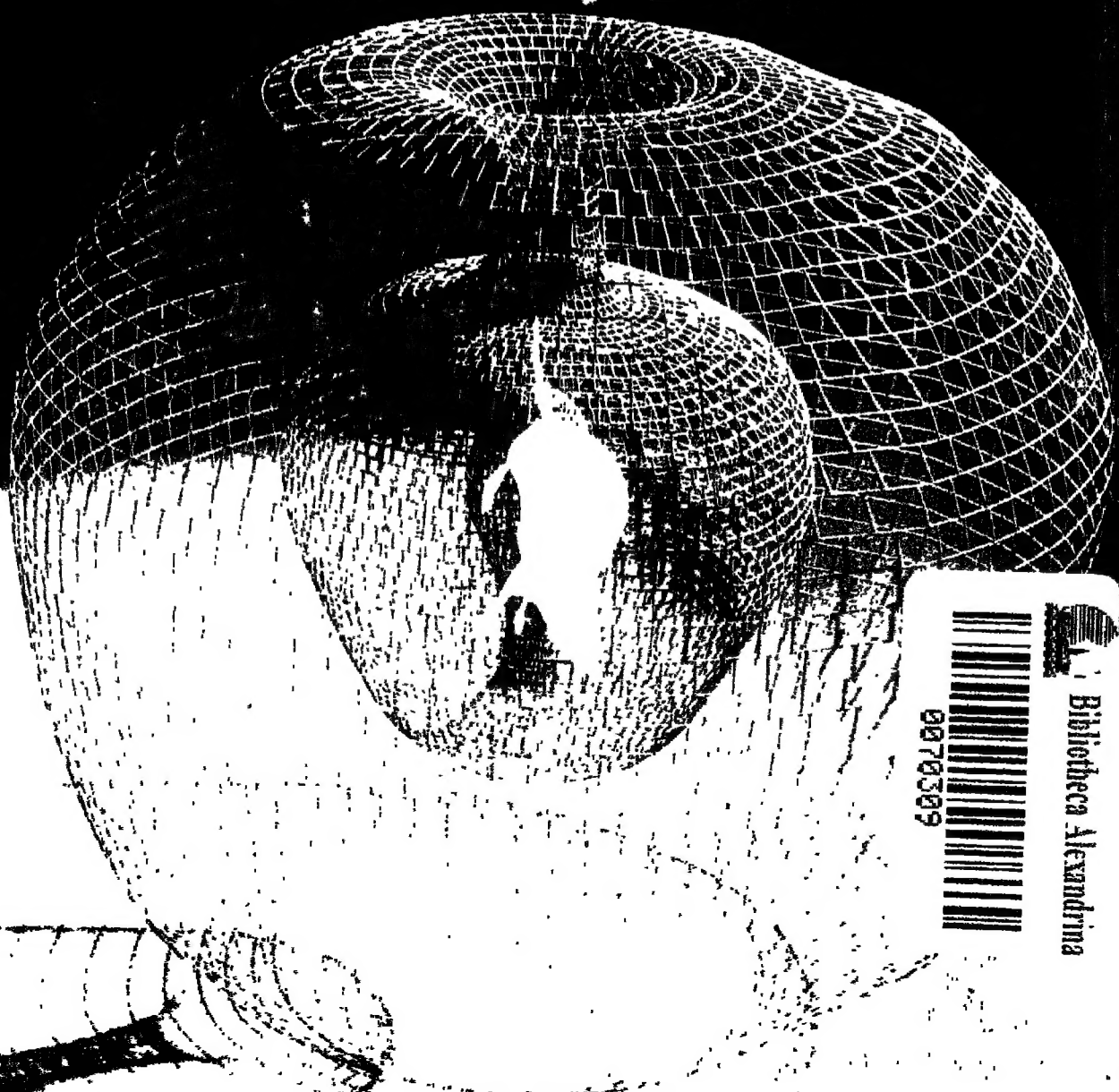


ميجيل دي ليس

الفكرات

(الرواية الفائزة بجائزة النقد الإسبانية)


ترجمة: د. علي عبدالرؤف البمبي



8

Bibliotheca Alexandrina

0070309



الفئران

(الرواية الغامضة بجائزة النكتة الأسبانية)

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

لمياء محرم

الفئران

(الرواية الفائزة بجائزة النقد الأسبانية)

تأليف

ميجيل دي ليليس

ترجمة

د. علي عبدالرؤف الجبلي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لرواية :

LAS RATES,

تأليف الكاتب الأسباني

Miguel Delibes

فهرس

الموضوع	الصفحة
دراسة تمهيدية	
البعد الانسانى فى رواية (الفئران)	٧
الفئران	٣٥
الفصل الأول	٣٧
الفصل الثانى	٤٦
الفصل الثالث	٥٥
الفصل الرابع	٦٤
الفصل الخامس	٧٢
الفصل السادس	٨١
الفصل السابع	٨٩
الفصل الثامن	١٠٠
الفصل التاسع	١١٠
الفصل العاشر	١٢٢
الفصل الحادى عشر	١٣١
الفصل الثانى عشر	١٣٩
الفصل الثالث عشر	١٥٠
الفصل الرابع عشر	١٦٠
الفصل الخامس عشر	١٦٨
الفصل السادس عشر	١٧٨
الفصل السابع عشر	١٨٩

دراسة تمهيدية

البعد الانساني في رواية « الفئران »

قبل الحديث عن البعد الانساني في رواية « الفئران » ،
التي بين أيدينا ، ينبغي أولا التعريف بالكاتب الذي تلتصق
شخصيته وتتناغم مع شخصيات عالمه الروائي .

صحيح أن الحديث عن كاتب كبير مثل «ميجيل دي ليبس»
أو مجرد القاء الضوء على رد فعله تجاه العالم المحيط به أو
الاشارة الى ضميره الاجتماعي يحتاج الى مؤلفات عديدة ، وقد
تم هذا بالفعل من خلال مجهودات كثير من الباحثين
والمتخصصين داخل أسبانيا وخارجها .

لكن ما تقدم ذكره لا يعفى من ضرورة إبراز الحقائق
المهمة في حياة هذا الكاتب ، لكي يتعرف عليه القارئ
العربي بشكل مناسب .

يعتبر «ميجل دي ليبس» من أهم الروائيين الأسبان بعد
الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، بل ان معظم النقاد يفضله
على « كاميلو خوسيه ثيلا » الحائز على جائزة نوبل في الأدب
لعام ١٩٨٩ ، والذي ينتمي لنفس جيله . وبالطبع فان لكل
كاتب منهما رؤيته الفنية الخاصة ، وأدواته المتميزة في طريقة
القص ، الا أن أسلوب حياة « دي ليبس » المستقيم ومشاعره
الانسانية العميقة وتعففه عن كل ما هو زائف ومصطنع
واحساسه المرهف بأوجاع وآفات المظلومين - في أقصى
فترات التاريخ الأسباني المعاصر - قد جعلت منه أنموذجا

يحتذى لكل من ينبغي توظيف ملكاته الفنية فى تحرير جوهر
الانسان من طفيان المظاهر المادية *

ولد كاتبنا عام ١٩٢٠ فى مدينة بلد الوليد (Valladolid)
(شمال اسبانيا) ، وتلقى تعليمه الأساسى والثانوى فى
مدارس كاثوليكية ، واختتم سلمه التعليمى بالحصول على
درجتى دكتوراه فى كل من التجارة والقانون *

ومن المعروف ان مقاطعة كاستيا (قشتالة) (او ما كان
يسمى بمملكة كاستيا فيما قبل العصور الوسطى) ، والتي
تقع داخل حدودها الجغرافية مدينة بلد الوليد ، كان لها
تاريخ عريق وعريض * فقد حملت هذه المملكة قديما لواء
مقاومة الفتح الاسلامى لشبه جزيرة أيبيريا ، وقادت حرب
الاسترداد التى استمرت أكثر من ثمانية قرون (أى طوال
المدة التى مكثها العرب فى أسبانيا والبرتغال) * وبعد
سقوط غرناطة العربية خرج كثيرون من رجال مملكة قشتالة
لاحتلال العالم الجديد *

ولقد كان من نتيجة هذا العبء الحربى الطويل اصابة
اقتصاد المملكة بالشلل وتدهور معيشة سكانها على خلاف
المقاطعات الأسبانية (ويمكن أن نلاحظ صورا عديدة لهذا
التخلف الاقتصادى والحياتى من أحداث الرواية التى بين
أيدينا) * وبالرغم من هذا فان قيمة المقاطعة (قشتالة)
الحربية لا تضارع قيمتها الثقافية * فلغة هذا الاقليم :
القشتالية (أى الأسبانية) هى التى أصبحت اللغة الرسمية
لكل أسبانيا ، وهى التى انتقلت الى العالم الجديد لتصبح
اللغة الرسمية لسكانه (باستثناء ثلاث دول فقط هى كندا
والولايات المتحدة والبرازيل) * كما أن هذا الاقليم قد دافع
عن الدين المسيحى وحفظه وعمل على نشره فى جميع أرجاء
المعمورة *

وبعد أن أوضحنا فى قليل من الكلمات الأهمية التاريخية

والثقافية للاقليم الذى ينتسب اليه كاتبنا نعود لاستكمال حديثنا عنه .

فى عام ١٩٤٤ عمل « دى ليبس » محررا بصحيفة « شمال كاستيا » ودافع من خلالها عن حقوق الفلاحين والفقراء . ولقد كشفت مقالاته المبكرة فى تلك الصحيفة عن اتجاهاته وميوله التى لم تكن أبدا سياسية أو حزبية بل انسانية فى مجملها ، كما كانت تلك المقالات - حتى الزراعى منها - بمثابة البذرة لمواهبه المتعددة كروائى .

وفى عام ١٩٤٥ شغل منصب أستاذ القانون التجارى فى جامعة بلد الوليد ، ثم تزوج فى العام التالى ، وله الآن سبعة من الأولاد .

فى نفس تلك الفترة أقام معرضا لرسوماته ولوحاته فى مدينته ، كما رأس تحرير مجلة شعرية واشتغل بالنقد السينمائى .

و « دى ليبس » يرتبط (روحيا وعاطفيا وحياتيا) بمدينته واقلية ارباطا وثيقا ، لدرجة أنه قاوم كل الاغراءات للانتقال الى العاصمة مدريد . وفى كل مرة يسافر فيها مضطرا للعاصمة للوفاء بما عليه من التزامات ثقافية ، فانه يحرص على قضاء معظم وقته الشاغر فى أحيائها الفقيرة وبين أناسها البسطاء .

تتسم شخصية « دى ليبس » - سواء على الصعيد الانسانى أو الأدبى - بالتوازن . وقد أسهمت عدة عوامل تعود الى نشأته الأولى فى هذا التوازن ، نذكر منها : شعوره الدينى العميق ، الاستقرار العاطفى والروحى نتيجة للمحيط الأسرى الهادئ الذى ترعرع فيه ، وحبه وافتتانه بالطبيعة ومعرفته لأسرارها وأدق خباياها ، نتيجة لاتصاله المباشر بها (فمن المعروف أن « دى ليبس » كان حريصا منذ نعومة أظفاره على اصطحاب والده فى رحلاته الأسبوعية من أجل

الصيد أو للاستمتاع بسحر الطبيعة الأخاذ بعيدا عن ضوضاء المدينة) -

ولقد ادت هذه السمات المبكرة الى تحديد نوعية اهتمامه فيما بعد (مثل الوقوف بجانب المظلومين والبسطاء ، والدفاع عن كل ما هو عفوى وانساني) والى تفضيله للموضوعات الخالدة فى رواياته (مثل الحب ، الموت ، العدل الاجتماعى ، الطبيعة ، النقائص البشرية ... الخ) - وهذا ما سنبحثه بشيء من التفصيل عند الحديث عن البعد الانسانى فى رواية « الفئران » -

أما أول رواية لكاتبنا فقد ظهرت عام ١٩٤٧ تحت عنوان « ظل شجرة السرو الممتد » ، وفازت وقتها بجائزة « نادال » الشهيرة -

وبعد هذه الرواية توالى عطاء الكاتب حتى يومنا هذا فكتب عشرات الروايات ، بعض كتب الرحلات ، العديد من المؤلفات فى مجال الصيد والقنص ، مجموعات من القصص القصيرة ، والكثير من المقالات والدراسات النقدية -

كما نال العديد من الجوائز الادبية : فبالاضافة لجائزة « نادال » التى فازت بها روايته الأولى ، حصلت رواية « الورقة الحمراء » على جائزة مؤسسة « خوان مارش » ، وفازت « يوميات صياد » بجائزة الدولة فى الأدب ، و « القيلولة وريح الجنوب » بجائزة الأكاديمية اللغوية الملكية ، و « الفئران » بجائزة النقد ، ... الخ -

وكان بإمكانه الفوز بجوائز أكثر من التى حصل عليها لولا احجامه عن الاشتراك فى المسابقات الأدبية المختلفة حفاظا على كرامته ، ولاحساسه العميق بمدى قيمته ككاتب ، ولافساح المجال أيضا للكتاب الشبان - ولقد أشار الى هذا صراحة فى حديث له مع الناقد « ألونسو دى لوس ريوس » :

« أعتقد أنني في هذه الظروف وفي مثل هذه السن أحسن صنعا بمنافستي لشاب في أول طريقه الروائي ؟ » -

ولأهمية « دى ليبس » ولمكانته الكبيرة في عالم الرواية الأسبانية فقد منحته الدولة جائزة « أمير أستورياس » في الأدب ، وجائزة الدولة التقديرية ، كما تم اختياره منذ بداية السبعينيات عضواً بمجمع الخالدين (الأكاديمية اللغوية الملكية) - أما أعماله فقد ترجم بعضها لكل لغات العالم الحية -

أما بالنسبة للإنتاج الروائي لكاتبنا ، فقد اعتاد النقاد الفصل بين مرحلتين مختلفتين فيه : فالمرحلة الأولى ، التي تضم الأعمال التي كتبت قبل ١٩٥٠ ، تتميز بالميل إلى التحليل الداخلي والفحص الباطني ، وإدراج شخصيات أنانية لا تعنى إلا بشئونها الخاصة حتى لو تعارضت مع المصلحة العامة للمجتمع ، وعدم خروج فن القص فيها عن المألوف في التراث الروائي الأسباني -

أما المرحلة الثانية ، التي تشتمل على ماكتب بعد ١٩٥٠ (الطريق ، يوميات صياد ، القيلولة وريح الجنوب ، خمس ساعات مع « ماريو » ، البندقية على الكتف ، الفئران ، يوميات مهاجر ، الورقة الحمراء ، الأمير المخلوع ، عام من حياتي ، القضبان ، الرحيل ، حروب الأجداد ، الصوت المشكوك فيه للسيد « كايو » ... الخ) ، فتتميز بالتحديث والموضوعية وبساطة السرد وطفان الشعور الانساني - كما تكتسب فيها الشخصيات والمواقف والأجواء أهمية تفوق الأفكار والموضوعات - صحيح أن هذا التغير من جانب المؤلف لم يحدث فجأة ، بل تدريجياً لأن كل عمل يضيف بعض الملامح والسمات الجديدة -

ويرى « رامون بوكلاي » أن الفن الروائي لكاتبنا يمثل اتجاهاً وسطاً بين الاتجاهين المتقابلين اللذين تتأرجح بينهما

الرواية الأسبانية بعد الحرب الأهلية : « الموضوعية » ،
« الذاتية » - وقد أطلق على هذا الاتجاه الوسط مصطلح :
« الانتقائية » -

وتعنى « الانتقائية » تمتع المؤلف بضرب من الاستقلال
عند ملاحظة وتفسير الواقع ، أو خلق نوع جديد من الواقع
من خلال منهج انتقائي للمواد الخارجية ، يسمح للمؤلف
بالإحاطة بكل صغيرة وكبيرة لكنه يظل محتجبا ، ويؤدى
احتجابه هذا الى سهولة قبول القارئ لوجهة نظر الراوى
(المؤلف) -

وهذا النوع (المنهج الانتقائي) يختلف عن المنهج
الموضوعي (أو الموضوعية) والذي يتحول فيه المؤلف (مثل
« ألدوكيا » ، « سانتشس فيرلوسيو » ، « كاميلو خوسيه
ثيلا » ..) الى عدسة لآلة التصوير السينمائي -

كما يختلف أيضا عن المنهج الذاتى (أو الذاتية) التى
سار على نهجها جيل الستينيات (أمثال : «خوان جوييتيسولو» ،
و « أنا ماريما ماتوتى » ، و « مارتين سانتوس » .. الخ) ،
حيث يخلق المؤلف عالمه الخاص ، وهو عالم لا يقره
ولا يتقبله القارئ الا اذا استبدل بموقعه موقع المؤلف -
وخلق عالم خاص يعنى صياغة المؤلف لعالم غير واقعى ،
لكنه تفسير للواقع من خلال منظور جديد -

١ - أهم موضوعات الرواية :

لا يهتم « دى ليبس » بصياغة نظريات حول المجتمع ،
بل يهتم - فى المقام الأول - بالانسان بعامة من خلال اهتمامه
بالفرد وعلاقته بالمحيط الذى يعيش فيه - وجل شخصياته
عبارة عن أناس متواضعين ، فقراء أنهكتهم المحن ، ويعيشون
- غالبا - فى صراعات مختلفة مع مجتمعاتهم - ومن الموضوعات

الطروقة فى كثير من رواياته وتمثل مكانا بارزا فى رواية
« الفئران » ، نذكر ما يلى :

(١) الطفولة :

يولى « دى ليبس » اهتماما كبيرا بموضوع الطفولة .
فهو يعتقد أن الأطفال والأشخاص البدائيين يقدمان للفاحص
المهتم وجها بلا قناع ، على طرف تقيض من زيف أهل الحضرة
الذين يعيشون أسرى للميكنة والمخترعات الحديثة .

كما يعتقد المؤلف أيضا أن طرح المشاكل البشرية من هذا
المنظور يضيف عليها بعدا انسانيا بارزا . ومن تم فقد
اختار لبطولة هذه الرواية صبيا (النينى) لا يتجاوز عمره
الحادية عشرة . انه صبي فقير يعيش مع والده (الراترو)
فى مقارة (أو كهف على قمة ربوة عالية) ، ويتمتع بذكاء
خارق وبمعرفة لا حدود لها بالنسبة لكل ما يتعلق بالطبيعة
وما يوجد عليها (من حيوانات وأشجار ونباتات وطيور
.. الخ) . صحيح أن الصبي تعلم الكثير من العلم « روفو »
المجوز (احدى شخصيات الرواية) لكن القسط الأكبر من
معرفته يرجع لدقة ملاحظته ومراقبته الواعية لكل مظاهر
الطبيعة وتحولاتها المختلفة . ولهذا كان يلجأ اليه سكان
القرية جميعا لطلب المشورة وحل المشاكل التى تعترضهم
سواء أكانت متعلقة بحقولهم وما عليها من مزروعات أم
بحيواناتهم وطيورهم الداجنة .. الخ ، فيقدم لهم « النينى »
طائعا الحسول والنصائح والمقترحات الايجابية قانعا
بالقليل الذى يجودون به عليه .

والأهم مما تقدم أن المؤلف يدافع من خلال « النينى »
عن أفكاره حول التقدم والمدنية الحديثة وتحسين سبل الحياة
فى الريف الأسبانى . ففى أكثر من مناسبة - فى الرواية -
حاولت « دونيا ريسو » (احدى الشخصيات) الجاق « النينى »
بمدرسة كى يتعلم ويحصل على شهادة من أجل مستقبل

أفضل ، لكن الصبي - ومن بعده والده - رفضا العرض رفضا قاطعا ، ولم يتزعزعا عن موقفهما هذا قيد انملة (انظر الفصل التاسع من الرواية) -

ويأتى رفض الصبي نتيجة لاقتناعه وسعاده بما يعرف عن الطبيعة من أسرار ، ولأنه لا يحب « التقدم » الذى يتطلب اقتلاع جذور الانسان الفطرية والهجرة الى عالم لا يريده ، الى عالم يكتظ بالمخترعات (الآلة) التى تقضى على استقلالية الأفراد وتصهرهم فى قالب واحد يسهل التحكم فيه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا واداريا : ففي إحدى المرات طلب « الروسالينو » (شخصية أخرى) من « النينى » أن يضرب بيده على (الكاربورتور) لأن محرك السيارة يقطع ، وعندئذ أجابه الصبي محركا كتفيه من الارتباك : « عن هذا لا أعرف شيئا ، يا سيد « روسالينو » ، انه من المخترعات » -

ولا يعنى ما تقدم أن « دى ليبس » ضد التقدم فى حد ذاته ، بل انه يرفض أن تسحب الآلة البساط من تحت قدمى الانسان - فقد تحكمت الآلة فى الفرد بشكل أدى الى فقدانه لحريته وذاتيته ، وحولته الى حيوان تتحكم فيه غرائزه وشهواته -

ويطلب « دى ليبس » من خلال رفض « النينى » للفرصة التى أتاحتها له « دونيا ريسو » (الذهاب الى المدينة للالتحاق بمدرسة) ضرورة تحسين مستوى الحياة فى القرية - فبدلا من الهجرة الجماعية الى المدن للاستمتاع بالتطور الحضارى والرعاية المادية يجب نقل هذه الوسائل الى الريف ، ومحاربة الفقر المدقع والجهل والحياة غير الكريمة لسكانه - ولقد ذكر المؤلف هذا صراحة عند حديثه عن بطل الرواية :

« . . . » « النينى » نوع من الضمير الاجتماعى - وصفنى البعض بالرجعية لرفض الصبي ترك القرية والذهاب الى مدرسة فى المدينة - لقد أردت الإشارة الى وجود أشخاص يحبون الحياة الريفية ويميلون اليها ، فعلينا ألا نقاوم هذا

لان الوضع العالى لا يحب مثل هذا التصدى - فقد يضطر البعض للهجرة الى المدينة فى الوقت الذى تعجبه فيه حياة الريف ، فهل لهذا من مقابل ؟ ما يجب عمله ، والكفاح من أجله هو تحسين ظروف الحياة البائسة فى الريف حتى يمكن الاستمتاع بالتطور الحضارى والرفاهية المادية دون الحاجة لترك القرية » .

وبالاضافة لمطالبة المؤلف الفورية بتطوير الريف ، فانه ينتقد سلوكيات الكبار من خلال « النينى » الذى يتمتع باحساس مرهف ويكره الموت فى كل صورته وخاصة القتل الفادر المستهتر للحيوانات - فالصبي - الذى يمتن الصيد مع والده - لم يكن يقبل قتل الحيوانات الا لضرورة استمرار بقاء النوع البشرى - وعلى خلاف هذا كان «ماتياس ثليمين» (المختلس) - وهو رجل ناضج وفى كامل قواه العقلية - لا يحترم مواسم الحظر فى الصيد ولا يتورع عن قتل الحيوانات الصغيرة غيلة وفى استهتار خالغ العذار - ومن الأمثلة الكثيرة التى تبين غلظة هذا الرجل وقسوته نشير الى قتله لثعلبة حديثة العهد بالولادة وافتخاره بهذا الصنيع أمام « النينى » - وذات مرة ، اكتشف « النينى » فى احدى جولاته بالجبل ، ثعلبا صغيرا لا يتعدى الأسبوعين من العمر ماتت عنه أمه فحمله الى المغارة وتمهده بالرعاية حتى أصبح كفرد من العائلة ، لكن « ماتياس ثليمين » تسلل الى المغارة فى غياب الصبي وأرداه قتيلا وجرى بالثعلب المقتول وهو يصيح ويضعك كالمجنون » .

فالمؤلف - كما نرى - ينتقد سلوكيات الكبار من خلال مقارنتها بتصرفات صبي صغير ، وهذا بهدف تضخيم سلبيات الكبار واثارة الإشمئزاز منها .

(ب) العدل الاجتماعي :

يولي كاتبنا هذا الموضوع عناية خاصة في كل أعماله . وهذا شيء طبيعي اذا عرفنا أن «دى ليبس» يهتم على الصعيدين الشخصي والأدبي بحاضر ومستقبل البسطاء والفقراء والمعدين في الارض . وينبع هذا الاهتمام من حبه العميق للآخرين ومن اتصاله المباشر بالفقراء ، وخاصة بفلاحى المناطق الأشد قحولة وقسوة في اقليم قشتالة (موطنه) . ونذكر في هذا المقام أن «دى ليبس» أخذ على عاتقه ، عندما كان يتولى رئاسة تحرير مجلة « شمال كاستييا » ، مسؤولية الدفاع عن حقوق الفلاحين والفقراء في الريف الأسباني مما أدى الى اصطدامه ، في النهاية ، بالادارة الحكومية والى اقالته من منصبه . وحبه للمستضعفين والفقراء قد ملك عليه نواذه ، وقد أشرنا فيما سبق الى انه عندما يذهب الى العاصمة مدريد لأمر ثقافى مهم ، يفضل شغل وقت فراغه بالانجول في الأحياء الفقيرة والتحدث مع ساكنيها .

انه بلا شك كاتب « ملتزم » — اذا أخذنا في الاعتبار رد فعله تجاه العالم المحيط به — ، لكن التزامه لم يوقعه في التشهير أو الاتهامات الصاخبة التي تتميز بها الرواية « الاجتماعية » .

انه التزام من نوع خاص حيث يهتم فيه بإبراز القيم التي تعتمد على الكرامة ، الاخاء ، المساواة ، وحقوق الانسان في العيش الكريم على سطح الأرض . ويؤكد رفض المؤلف للظلم الاجتماعي في رواية « الفئران » على أهمية القيم المشار اليها والتي تأخذ طابعا مختلفا في هذه الرواية .

يعتقد « دى ليبس » — بداية — أن هيكل المجتمع الأسباني به خلل واضح فيما يخص توزيع الأراضي الزراعية : فبجانب القلة التي تمتلك الكثير ، يوجد الكثيرون الذين يملكون القليل أو لا يملكون شيئا على الاطلاق ، ومن ثم فانه

ضد هذا التوزيع غير العادل - ففي قرية « النينى » - التى تدور فيها أحداث الرواية - نجد أن « دون أنتيرو » يملك وحده ثلاثة أرباع أرض القرية الزراعية ، بينما تمتلك « دونيا ريسو » والسيدة « كلو » ثلاثة أرباع الربع الباقي ، وما بقى من الأرض موزع مناصفة بين « البرودن » والثلاثين فلاحا الموجودين بالقرية -

ولم يمنع هذا الظلم الواضح والفادح « دون أنتيرو » من التشدق فى مسامراته بالمدينة بأن ما يفعله لقريته من خير يوازى التوزيع العادل للأرض - ولا شك أن المؤلف يسخر من قول « دون أنتيرو » الأخير لأننا لا نرى ولا نحس طوال الرواية بأى صنيع طيب من جانب هذا الرجل الذى خلع عليه الكاتب لقب El poderoso : أى المقتدر الجبار ، صاحب النفوذ والثروة -

ويرى « دى ليبس » - كضرورة لحل مشكلة التوزيع غير العادل للأرض ، أو للتخفيف منها على الأقل - اقتطاع أجزاء من الأراضى المخصصة للصيد والقنص أو لتربية الحيوانات وتوزيعها على الفقراء الذين يعيشون على هامش المجتمع الريفى -

كما يرفض « دى ليبس » أيضا الظلم الاجتماعى من خلال إبرازه ووصفه الدقيق للواقع البائس لقرى «كاستيا» (قشتالة) التى تعاني من الفقر والجهل وإهمال السلطات المركزية -

ومن صور الفقر الشديد فى الرواية نجد أن « النينى » وآباءه (الراتيرو) يعيشان معا فى مغارة أو كهف على قمة ربوة عالية ، ولا يملكان من الموارد ما يستطيعان به الانتقال الى بيت جديد نظير ايجار زهيد لا يتعدى مائة بيزيطة فى الشهر - وهما يعتمدان فى حياتهما على صيد الجردان - ولقد وصل الفقر بالراتيرو مداه لدرجة أنه قتل أربعة كلاب

من خمسة أنجبتهم كلبته لانه لا يستطيع اطعامهم ، وقد اضطر للابقاء على الخامس لكى يحل محل الأم التى شاخت ولا تستطيع الوفاء بما عليها من مهام فى الصيد . وبالإضافة لكل تلك الظروف المعاكسة فان مستقبل الاثنين لم يكن مضمونا : فقد ظهر منافس لهما يصيد الجرذان لم يتردد « الراتيرو » - فى نهاية الرواية - فى قتله دفاعا عن مورد رزقه الوحيد .

اما الجهل فقد كان يضرب بأطنابه فى القرية التى يعتقد سكانها فى الخرافات والخزعبلات ولا يعرف معظمهم القراءة ولا الكتابة .

فلم تكن بالقرية مدرسة وفرصة التعليم الوحيدة التى لاحت فى الأفق كانت لـ « النينى » ، عندما عرضت عليه « دونيا ريسو » الذهاب الى المدينة للالتحاق بالمدرسة ، لكن الصبى رفض العرض دون تفكير أو تردد .

ويتجلى الجهل أيضا فى عدم احترام أهل القرية للقسيس الشاب المتواضع (دون ثيرو) الذى كان يحدثهم عن قضايا اجتماعية فى غاية الأهمية وعلى رأسها قضية العدالة الاجتماعية . لم يكونوا يفهمونه ، ومع ذلك كانوا يقبلون سماعه فقط - وعلى مضض - لأن الأغنياء كانوا يفضبون منه للخوض فى مثل هذه الأمور .

وعلى خلاف ما تقدم ، كان أهل القرية يشتاقون لسماع القسيس القديم ، الكبير الضخم ، (دون ثوسيمو) ويحترمونه لأنه كان يزعم فيهم بصوته الجهورى ويحدثهم فى الموضوعات التى يفهمون فيها مثل المعاصى والآثام التى تقتربها الأعضاء .

ومن صور الجهل والتخلف الأخرى ما حدث لـ «الأجاييتو» عندما صدم بدراجته طفلا ، ولكى يحدد القضاة مدى مسؤوليته عن الحادث حولوه الى الأطباء - فى عاصمة الاقليم - بغرض قياس مستوى ادراكه . وبعد أن قام الأطباء باجراء

اختبار له قرروا ان ادراحه لا يتعدى ادراك صبي فى الثامنة من العمر .

ومن جهة أخرى ، فان القرية — شأنها فى ذلك شأن بقية القرى — كانت تعاني من اهمال السلطات المركزية . فلم يقيم مسئول بزيارة القرية الا عندما تناهى الى سمع السلطات ان بالقرية بترولا . وساعتها قام المحافظ بنفسه ، ومعه خبيران ، بزيارة القرية للتأكد من صدق الخبر وزف البشرى فيما بعد لأولى الأمر فى العاصمة مدريد ، ولكن الله خيب رجاء المحافظ وعاد بخفى حنين بعد اكتشاف الخبيرين لزيف النبوءة (انظر الفصل الثانى عشر) .

وبالاضافة الى هذا الظهور العارض والبراجماتى للسلطات المركزية ، فان « خوستيتو » ، العمدة ، (الذى يقيم بنفس القرية) قد حاول مرارا ، بأمر من المحافظ ذاته ، اجلاء « الراتيرو » وابنه عن المغارة وهدمها من أجل الحفاظ على مظهر الاقليم وسمعته أمام السياح الأجانب (انظر الفصول السابع ، الثانى عشر ، السادس عشر) .

وكما نرى ، فان تدخل السلطات فى الحالة الأخيرة لم يكن لصالح القروى الفقير ، بل للاضرار به لمجرد تحسين الصورة الخارجية أمام أجنبى جاء ليتسلى بالتقاط بعض الصور .

ودون الخوض فى أمثلة أخرى — وهى كثيرة ويمكن أن يتعرف عليها القارئ بنفسه — نود الاشارة الى أن « دى ليبس » قد رفض كل أشكال وصور الظلم الاجتماعى من خلال ابراز مشاكل الريف والفلاحين المقهورين ، والتعبير عن آلامهم وهمومهم وآمالهم بلغة واضحة ومباشرة مثل التى يتحدث بها أى فلاح منهم .

(ج) الطبيعة :

يؤمن كاتبنا بأن الطبيعة تجمع بين كل ما هو أصيل وعفوى ، ويعتبرها ثقلا ضروريا لمجابهة التقدم البارد غير

الانسانى ، لأنها خرجت من نفس الرحم الذى خرج منه
الانسان •

ولقد تعلم هذا الحب للطبيعة منذ صغره عندما كان
يخرج بصحبة والده فى رحلات الصيد الأسبوعية : « أحببت
– يقول « دى ليبس » – الحقل شيئاً فشيئاً ، يخضوع واذعان
فى البداية ، مدفوعاً بعد ذلك بالرغبة فى المعرفة ، ثم تحول
الحب الى شغف وأخيراً الى رغبة عارمة • لقد ملكت الطبيعة
على كل حواسى » •

ولقد دفع اهتمام الكاتب العميق بالطبيعة ناقداً مثل
« تورينتى بايستير » الى التأكيد بأن « دى ليبس » يعتقد أن
الفضائل مكانها الريف بينما تعشش الرذيلة داخل المدينة ،
لكن الكاتب أشار فى إحدى المناسبات الى أن اهتمامه بالريف
يرجع الى شعوره بالآخاء والشفقة تجاه سكان الريف الأسبانى
عامة – وتجاه فلاحي اقليم قشتالة على وجه الخصوص – قبل
أن يكون مجرد اعتراف بفضائل الريف •

أما بالنسبة للطبيعة التى وصفها الكاتب فى رواية
« الفئران » فهى طبيعة قاسية ، مشؤمة وبلا قلب • وتتجلى
مظاهر قسوة الطبيعة فى المفردات القاتمة المستخدمة فى
وصف الأجواء الريفية • انها مفردات تبعث على الاحساس
بالتشاؤم ، بخيبة الأمل والموت بدلاً من الحياة • وفى الفصل
الأول يقول المؤلف (الراوى) عند تعريفه لحدود القرية
الأربعة :

« ... تسد الأفق من هذه الناحية سلسلة من القمم
الغارية ، وكأنها جماجم ، متوجة بنصف دسنة من أشجار اللوز
الضامرة • تحت وهج الشمس يرسل الجص الكريستالى
للمنحدرات بلمعان متقطع وغمزات لونية ... تقدم
الخريف يخنق كل مظاهر الحياة النباتية ، فقط المرج ونبات
الأسل ومجرى النهر يضيفون أثراً لحياة على المشهد المحتضر » •

وكما نلاحظ فان وصف الطبيعة ليس مبهما (او مصاغا من وجهة النظر المثالية لفرد من سكان المدينة يعيش بعيدا عن هموم الريف ولا يحل به الا للاستمتاع بأجازته القصيرة . لكن الفلاحين الذين يعيشون في الريف - وخاصة الفقراء الذين لا يعرفون نظم الري الحديثة أو المكنة الزراعية وتعتمد محاصيلهم على ما تجود به السماء (مطر ، صقيع ، شمس ، طفيليات ... الخ) - لا ينظرون الى الطبيعة كما ينظر اليها مصطاف أو سائح . انهم ينظرون اليها بمزيج من الخوف وفقدان الأمل وخاصة عندما تكشف لهم عن أنيابها ، وهى تفعل هذا بصفة تكاد تكون مستمرة . ولهذا السبب كان العجوز (احدى الشخصيات التى تعرف الكثير من أسرار الطبيعة) لا يمل من ترديد المثل التالى : « فى قشتالة ، كما هو معروف ، الشتاء تسعة أشهر والجحيم ثلاثة » .

وتضم الرواية العديد من المشاهد التى توضح مدى قسوة الطبيعة ، وقد صورها الكاتب أدق تصوير وكأنه أحد الفلاحين البلقاء الذين يعاشون صراعها الدائم والمريع .

ففى احدى المرات أتى الجليد «الأسود» على ما بالبساتين مع خضروات ، ولم ييأس الفلاحون بل ذهبوا الى بساتينهم وزرعوها مع جديد .

وفى مرة أخرى قضت الآفات على الغلال وأضاعت فى ساعات قليلة مجهود تسعة أشهر طويلة . ولقد التقط « دى ليبس » صدى هذا الحدث المروع على السكان وكأنه كان فردا ممن ضاع محصولهم : « منذ أسبوعين لا يسمع بالقرية سوى نعيب اللقلاق أعلى البرج ، والثغاء الحزين للخراف الوليدة خلف أسوار الحظائر . كان الرجال والنساء يمشون فى شوارع القرية وهم يجرجرون أقدامهم فى التراب ، النظرات غائمة وكأنهم ينتظرون مصيبة ... » (انظر الفصل الحادى عشر) .

وإذا كانت الآفات والجليد قد اهلكا المحصول فى المرتين
السابقتين فقد تكفل بهذا - فى مرة ثالثة - المطر والثلج فى
عنقوان الصيف :

« ومع غروب الشمس انفلت عيار ريح ساخنة أحدثت
تموجات فى الحقول التى لم تحصد واثارت غيمة من الغبار
على الطريق ... أطبق الظلام فجأة وازداد تعكر الجو ...
شقت السماء عن ضوء شديد جعل سلسلة القمم العالية تلمع
وكانها من فضة ... أغرق البرق من جديد المنطقة فى ضوء
شاحب وتبع دوى الرعد أنين الأعصار وهو يكتسح الروابي
والحقول ، رافعا دوامات حلزونية كثيفة من التراب نحو
السماء . عندما هدأت الريح أخذت تتساقط حبات المطر
الأولى ، كانت حبات رمادية منتفخة ، مثل حبات العنب ... »
(انظر الفصل رقم ١٧) .

وإذا كان المطر هو سبب البلاء هذه المرة ففى مرات
أخرى كثيرة ينتظره الفلاحون بفارغ الصبر ، لكنه يابى على
السقوط فيلجأون الى صلاة الاستسقاء .

ولا نريد أن نسترسل فى سوق أمثلة أخرى للطبيعة
القاسية التى وصفها المؤلف فى هذه الرواية ، لكن نريد أن
نؤكد فقط على أصالة «دى ليبس» وشعوره الانسانى العميق
عندما صور احساس الفلاح المرتبط بأرضه تجاه الطبيعة
التى يعيش فى كنفها وعليها يعتمد حاضره ومستقبله .
ولا ينصب اهتمام «دى ليبس» على أركان الطبيعة فقط
(الأرض والسماء وما بينهما) ، بل يهتم أيضا بكل مهجة
حية تعيش فى أحضان الطبيعة سواء أكانت طيرا أم حيوانا .
ولذلك نجد أن كل رواياته تفص بالكثير من أنواع الطيور
والحيوانات ، حتى الغريب منها ، حيث يصف لنا أدق
خصوصياتها وصفا يجمع بين دقة العالم وحس الأديب . ولذا
فمن الشائع استعانة القارئ الحضرى (الذى يعيش فى

المدينة) لروايات « دى لبيس » بالقواميس والمعاجم
المتخصصة فى هذا المجال .

٢ - التهكم والسخرية :

من المعروف أن غالبية البسطاء أو من ينتمون الى
الطبقات الشعبية ، يتحلون بقدر كبير من السخرية والتهكم
وخفة الدم وحب الدعابة ، ويستعينون بها على تخفيف مرارة
الحياة ومعاناتهم اليومية .

ولأن « دى لبيس » يهتم بهذا الصنف من الناس فانه
يتحدث دائما بلسانهم ويرى بعيونهم ويرتدى لباسهم . ولقد
حدا هذا النقاد أن يقول عن « دى لبيس » : « انه ليس
كاتبا يحب الصيد بل صياد يعشق الكتابة » .

ومن هذا المنطلق ، لا نستغرب أن يستخدم المؤلف فى
الرواية التى بين أيدينا التهكم والسخرية لكى ينتقد سوء
الادارة المركزية ، ويبين فداحة تحكم الآلة فى الانسان
وتراجع القيم الايجابية فى انسان العصر ، أو لايزاز مثالب
الظلم الاجتماعى .

ويستخدم كاتبنا تكنيكات أسلوبية وبلاغية عديدة
للموصول الى غايته هذه :

فنجده يخلط أحيانا بين الجد والهزل أو بين ما يسر
وما يحزن ، وأحيانا أخرى نجده يقصد معنى آخر بعيدا غير
المعنى المباشر والقريب للكلمات والجمل مستعينا فى هذا
بالقرائن المختلفة سواء آكانت داخل النص أم خارجه . هذا
بالاضافة الى الصفات والألقاب الساخرة والمعبرة التى يخلعها
على شخصياته ، ناهيك عن دعاياته اللاذعة عند وصفه لبعض
الأحداث والأنشطة . . وقد أدى ما سبق الى تدخل الراوى
(المؤلف) فى كثير من الأحداث والمواقف لكن دون أن يحولها
الى مواقف تقريرية تعرض وجهة نظر صاحبها . ان المواقف

والأحداث تتحدث بنفسها عن نفسها ، وتدخلات الراوى
تعنى فقط بوضع بعض الرتوش عند الحاجة اليها حتى تكتمل
معرفة القارئ بما يجرى .

ومن بين الأمثلة الكثيرة التى تحفل بها الرواية بالنسبة
لموضوع التهمك والسخرية ما جاء عن « دون أنتيرو » - فهذا
الرجل على الرغم من امتلاكه لثلاثة أرباع أرض القرية ثم
يكن يوما يتقاعس عن الدفاع بكل الوسائل عن ممتلكاته
وما يمسه من قريب أو بعيد - ولكي يبرر وكيل أعماله
(الروسالينو) صنيعه هذا فقد كان يقول ان سيده لا يفعل
ما يفعله لسوء طوية ، بل لأن مواسم الشتاء تكون طويلة ومملة
فى المدينة ولا بد من أن يتسلى سيده بشيء - ولكي يكمل
الكاتب هذه اللوحة الساخرة فانه يقص علينا ما اعتاده
« دون أنتيرو » كل عام بمناسبة حلول العيد السنوى للقرية -
اعتاد الرجل « تأجير بقرة معيبة لكي يجرى وراءها الفتيان
ويضربوها على هواهم ، وبهذه الطريقة ينفسون عن الأحقاد
والضغائن المتجمعة فى الصدور طوال الاثنى عشر شهرا
السابقة » (انظر الفصل رقم ٥) .

ومن الأحداث الساخرة فى الرواية اضطراب « النينى »
لسكب صفيحة بنزين فى بئر العمدة (خوستو) ، لكي يرد على
اهانة امرأة العمدة وضربها له دون سبب - وفى اليوم التالى
عندما همت امرأة العمدة بشرب كوب من الماء صباحا أحست
بتغير طعمه ، وعندئذ أخبرت زوجها الذى أجرى التجربة
باشعال عود ثقاب ثم قربه من الماء فاشتعل فى الحال -
وعندها تصور أن البئر تحتوى على بترول، فأخذ دراجته على
عجل وذهب الى عاصمة الاقليم لينخبر المحافظ بعد أن طلب
من زوجته كتمان السر .

وقبل أن تغيب الشمس حضر المحافظ وبعد أن شاهد
اشتعال الماء ، طلب من العمدة الانتظار حتى صبيحة اليوم
التالى لكي يحضر خبيرين للمعاينة ، كما شدد عليه بضرورة

التكتم على الخبر لحين التيفيق منه - لكن الخبر ما لبث أن طار مع المساء الى كل أنحاء القرية ، فتجمع السكان عند بيت العمدة وألحوا في كشف المستور . وبعد أخذ ورد أخبرهم العمدة أن المنطقة تعوم على بحر من البترول ، فلم يتمالكوا أنفسهم من الفرحة واحتفلوا بالحدث الخطير حتى الصباح . الى أن جاء المحافظ بصحبة الخبيرين اللذين اكتشفا بعد المعاينة زيف الخبر . وساعتها تهاوت أحلام القوم ووقفوا كالتمثيل وكأن على رؤوسهم الطير ، فما كان من المحافظ الا أن تسلق حافة البئر ووقف يخطب فيهم محاولا الترسية عنهم :

« أيها الفلاحون - قال - : لقد كنتم هدفا لدعابة سخيفة . لا يوجد بترول هنا . لكن لا يجب أن يفلس هذا من عزيمتكم ، فالبتترول عندكم في أرضكم المحروثة وفي أسنة محاريثكم . استمروا في العمل ، وبمجهودكم وحدكم سترقى حياتكم وستساهمون في عظمة وطنكم . فلينهض الريف ويتقدم ! » (انظر الفصل رقم ١٢)

وبالرغم من حالة السخرية التي تغلف الحدث كله ، فإن الخطبة الختامية للمحافظ تتناقض مع واقع القرية المرير . فالفلاحون يعرفون تماما أن أرضهم ومحاريثهم ليست مصدرا للثروة ولا يمكن أن ترقى بمستوى حياتهم ولن يستطيعوا ، بالتالي ، المساهمة في مجد آسيانها وعظمتها . انها خطبة جوفاء ، مناورة سياسية عديمة القيمة لأنها تلقى على أصحاب الشأن ، المكتويين بنار العمل الشاق والعائد القليل ، وهم وان كانوا فقراء وبسطاء ، الا أنهم يتمتعون بقدر لا بأس به من المكر والدهاء ولذلك ، لم يصفق له أحد منهم عندما أنهى كلماته ، بل انه هو - السيامي البارع ، صاحب الحول والطول - من توارى خجلا بسيارته الكبيرة خلف سحابة من التراب . ومن الصور الخفيفة الظل صورة قسيس القرية القديم الذي كان السكان يهابونه ويتأثرون بمواعظه : « يرتفع » دون ثوسيمو « ، القس القديم ، متريث ونصف

المتر عن الأرض ويزن ١٢٥ كيلو جراما . كان رجلا بشوشا
لا يتوقف أبدا عن النماء » .

ومن المفارقات الساخرة خلع المؤلف للقب « الوصية
الحادية عشرة » على « دونيا ريسو » (احدى شخصيات
الرواية) . ونحن وان كنا سنتناول هذا الموضوع بشيء من
التفصيل فى العنوان التالى ، الا أنه من الواجب ايضاح ما فى
هذا الأمر من دعاية وتهكم) .

فهذه السيدة بها كل الصفات المنفرة : عجفاء ، متكبرة ،
فضة ، خصوم ، تهوى النيمة ، لا تحب التعامل مع أهل
القرية ، وتقبض ريع أرضها نقدا وفى موعده سواء أنجا
المحصول أم هلك . وبرغم كل هذه الصفات ، فهى تنصب
نفسها زعيمة دينية على الجميع ، حيث تترأس الاحتفالات
الدينية وتواظب على حضور القداس وتستشهد دائما فى
أحاديثها بنصوص من الانجيل (وخاصة بنصوص الوصية
الحادية عشرة) .

ان المؤلف يسخر من سلوكيات هذه المرأة بخلع هذا
اللقب المهيب عليها ، كما يسخر من كل من يعتقد أن الدين
شئ والتعامل والأخلاق والسلوكيات شئ آخر . فالمؤلف قد
استنفر كل امكانات اللغة (بنحوها وصرفها وبلاغتها
وبيانها وبديعها) فى تهكمه اللاذع وسخريته المريرة وذلك
بقصد ابراز السجايا والمثالب التى تتمتع بها كل شخصية من
شخصيات روايته . والقارئ الحصيف يمكنه الاهتداء الى
مواطن السخرية والتهكم دون جهد أو عناء .

٣ - اللغة الدارجة :

بالرغم من تمتع كل لغة بخواص ومميزات وملامح قد
لا يوجد لها نظير فى لغات أخرى ، الا أننا سنحاول تبسيط
أهم سمات اللغة المستخدمة فى رواية « الفئران » ، والتى
لا يستطيع القارئ الاهتداء اليها من مجرد قراءة الترجمة .

تحدثنا فيما سبق عن اهتمام الكاتب بالمشاكل الجوهرية لفلاحى اقليم قشتالة ، وعن اهتمامه بالنماذج البشرية البسيطة التى تعانى الفقر والجهل والتخلف .. ولأن كاتبنا يحترم الأنماط البشرية المختلفة فانه يحترم كذلك وسيلة تعبير هذه الأنماط واللغة التى تتحدث بها ، ولهذا نجده يترك شخصياته لتتحدث بلسانها وعلى سجيته ولا يسمح لنفسه التحدث نيابة عنها . ومن ثم فاننا نجد أن اللغة الدارجة أو العامية تحظى بأهمية كبيرة فى الرواية ، لأنها تتناسب وطبيعة الشخصيات وذات دلالة قوية داخل محيطها الاجتماعى .

وبالإضافة الى هذا التبرير المنطقى للتواجد المكثف للغة العامية فى الرواية ، فان كاتبنا يفضلها كثيرا على لغة وسائل الاعلام التى يعتبرها سطحية متحذقة وفارغة . فاللغة الدارجة - على حد قوله ، وبالرغم من الأخطاء القواعدية التى يمكن أن تشتمل عليها - أكثر دقة وخصوبة وثراء .

ومن سمات اللغة الدارجة الأسبانية ، والتى استخدمها الكاتب نذكر :

استخدام أدوات التعريف مع الأسماء الاعلام ، الاكثار من التشبيهات والمقارنات ، شيوخ استخدام الألقاب والصفات مع الأسماء ، لجوء المتكلم للايماءات والحركات لتوضيح ما يقول ، ضرب الأمثلة والأقوال الماثورة ، عدم التحرز فى استخدام بعض الألفاظ النابية .. الخ .

- وبالنسبة للسمة الأولى من سمات اللغة الدارجة ، نجد الكاتب قلما يذكر اسما علما بدون صفة الا وسبقته أداة التعريف (« el » « ال » أمام المفرد المذكر ، « la » أمام المفردة المؤنثة) .

فبدلا من أن يقول : « برودن ، نينى ، مالبينو ، روسالينو ، خوسيه لويس ، أنتوليانو ، سيميونا ،

كولومبا ٠٠٠ الخ » ، فانه يقول عادة : « البرودن ، النيني ،
المالينيو ، الروسالينو ، الخوسيه لويس ، الأنوليانو ،
لاسيمونا ، لاكلومبا ٠٠ الخ » .

— كما يلجأ كاتبنا الى الاكثار من التشبيهات والى عقد
المقارنات كما يفعل البسطاء ومن ينتمون الى الطبقات
الشعبية فى أحاديثهم عادة • فانهم لكى يوضحوا فكرة أو
معنى من المعانى يلجأون الى تشبيهه أو مقارنته بشيء ينتمى
لنفس بيئتهم ويمكن أن تدركه حواسهم • ومن أمثلة هذا
فى الرواية نذكر :

« سلسلة من القمم العارية وكأنها جماجم » ،
« عينا المختلس رماديتان ومشاكستان مثل عيني صقر » ،
« كل صباح كانت القرية تنهض متناقلة فى جو من
الزجاج ، حيث تفرقع أذننى ضوضاء مثل ضربة سوط » ،
« ٠٠٠ هو أشقر وعيناه زرقاوان كحيلتان صغيرتان »
« بدأ رجال » اكستريمادورا « العمل فى رابية
« دونالتيو » وخلال أشهر قليلة رشقوها بأشجار صغيرة ،
فأصبحت مثل وجه آدمى هاجمه الجدرى » ٠٠ الخ -

— كما يدقق « دى ليبس » فى اختيار أسماء شخصياته •
فلكل طبقة اجتماعية أسماؤها الخاصة والتي تشتمل — فى
كثير من الأحيان — على دلالات ذات مغزى ومعنى • فنجد
— مثلا — يسمى العمدة : « خوستو » (بمعنى عادل) •
والمؤلف قصده السخرية من اطلاق هذا الاسم بالذات على
العمدة ، لأن أفعاله فى الرواية — وخاصة مع بطلها وأبيه —
تتناقض مع مدلول الاسم المطلق عليه •

كما يسمى المؤلف صائد الفئران « راترو » (والكلمة
لها نفس المدلول فى الأسبانية) ، ويسمى الفلاح الحريص

القطر الذى لا يكل ولا يمل من رعاية ارضيه « البرودن »
(والاسم يحمل نفس المدلول فى الأسبانية) ... الخ .

ولا يكتفى المؤلف بهذا ، بل انه يتبع الاسم العلم
— عادة — بصفة أو لقب يحددان طبيعة الشخصية أو عملها
أو سلوكياتها ، ويذكر الاسم مشفوعا بالصفة أو اللقب أو
يستغنى بالصفة أو اللقب عن ذكر الاسم . وعلى سبيل
المثال نذكر : « نينى ، الصبى » ، « دون أنتيرو ، الغنى » ،
« خوستيتو ، العمدة » ، « الرايينو جراندى ، راعى الأغنام »
« الرايينو تشيكو ، راعى الأبقار » ، « العم روفو ، المعجوز » ،
« ماتياس ثليمين ، المختلس » ، « السيدة كلو ، صاحبة دكان
الخردوات » ، « دونيا ريسو ، الوصية الحادية عشر » ... الخ
ويندرج هذا أيضا تحت خصائص ومميزات اللغة الدارجة
فى الأسبانية .

— كثيرا ما تصدر عن المتكلم ايماءات أو حركات تعكس
احساسه الداخلى مثل الخوف ، الحرس ، الحيرة ، الخجل ،
الضيق ، السرور ، الألم ... الخ . والبسطاء هم أكثر
الناس استخداما لهذه الايماءات لعدم قدرتهم على التظاهر
أو التكلف .

ولقد وفق الكاتب فى ابراز هذه السمة عند عرضه
للمواقف المختلفة لشخصيات عالمه الروائى . ومنها نذكر
ما يلى :

« ويهيج خوستيتو ، العمدة ، وفى تلك الأحوال ، كانت
تضيق ناصيته البنفسجية وتخفق وكأنها قلب صغير ينبض » ،
« تضاملت انسانية القسيس الطاغية أمام المشكلة :
أمسك قبعته بحركة آلية قبل أن يتكلم » ،

« اكفهرت نظرتة عندما اضاف : حقا لا يحتاج الفرد منا لأكثر من هذا » ،

« نلظر الخوستيتو الى الخوسيه لويس الذى هز رأسه وقال مهمهما ... » ،

« أوما الخوستيتو برأسه • كان يبدو مثل تلميذ فى مدرسة يعانى من توبيخ أستاذه » ... الخ •

— كما تفص الرواية بالأمثال الشعبية والأقوال المأثورة واللى يتعلق معظمها بالحقل وبالظواهر الطبيعية المختلفة :
« عندما يكون العم أحمق ، فلا بد أن يكون ابن العم كذلك » ،

« بعد انتهاء عيد آخر قديس ، ازرع القمح واجمع الدريس » ،

« يوم الثلاثاء لا تزوج ابنا ولا تذبح خنزيرا » ،

« عندما يكثر التبيذ تقل المون » ،

« فى قشتالة ، كما هو معروف ، الشتاء تسعة أشهر والجحيم ثلاثة » ،

« فى يونيو المطر ، يجلب الخطر » ... الخ •

هذه هى بعض خصائص اللغة التى تتحدث بها شخصيات الرواية واللى تتناسب وتتفق مع مستواها الفكرى والاجتماعى ، وهى وان دلت على شىء فانما تدل على معرفة الكاتب لأدق خصوصيات هذه اللغة وللكتير من أسرار الطبيعة التى تخفى على أهل الحضر •

وقد أشرنا فيما سبق الى أن اللغة الدارجة أو العامية التى تتحدث بها الشخصيات الريفية البسيطة ، تحظى بحضور مكثف فى الرواية • وهذا يعنى وجود مستوى لغوى آخر • وهذا المستوى الثانى يخص الراوى (المؤلف) عند تدخله

لوصف مظاهر الطبيعة المختلفة او لاضافة بعض الايضاحات التى لا يستغنى عنها الاطار العام للأحداث والشخصيات .
ويستخدم الكاتب لذلك لغة راقية ، عذبة ، رقيقة وشاعرية
تذكرنا بلغة الملاحم اليونانية القديمة . وها هى بعض
الأمثلة :

● « أطل قمر أخضر فاتح وعليل خلف ربوة «كلورادو»
ثم ارتفع بفتور فوق سماء معدنية عالية » .

● « بدأت قطع الثلج تتهاوى وتحولت المنطقة ، بعد
ساعات قليلة ، الى كف لا نهائى - آدمى البياض عيون القرية
وطوبها اللبن . . . تبدو الحياة وكأنها هربت من العالم
مخلفة وراءها صمتا مخيفا وكثيفا كصمت المقابر » .

● « فى صبيحة اليوم الرابع أيقظ الصمت النينى .
أطل الصبى من فوهة المغارة فوجد السحابة قد انقشعت ،
وشعاع الشمس الخجول ينثر خصلاته الطويلة البيضاء
لي رسم قوس قزح مضيئا بين قمى «دونالديو» و «كلورادو» .
وصلت الى الصبى الرائحة الرخوة للأرض السكرى وسرعان
ما أحس بغناء العندليب ، هناك تحت ، بين أشجار الصفصاف ،
وعندئذ أدرك أن الربيع قد أتى » .

● « أمسك فجأة عن الضحك وراقب حوله انتظارا
لتأييد أحد ، طافت عيناه بكل الوجوه ، واحدا بعد آخر ،
لكنه لم ير الا سحابة من الشك ، استسلاما مخيفا قابعا هناك
داخل الحداقات . » .

يتضح مما سبق عرضه لبعض الملامح المهمة لرواية
« الفئران » - التى نشرت عام ١٩٦٢ وفازت بجائزة «النقد»
حال صدورها - مدى عمق الشعور الانسانى لمؤلفها «ميجيل
دى ليبس» الذى انصب اهتمامه فيها على حياة البسطاء
المقهورين (فلاحى اقليم قشتالة الأسبانى) ، وعلى الحيوانات
والطيور والمزروعات التى تشاركهم هذه الحياة ، وعلى
تصوير نبض الطبيعة التى شكلت مسرح الأحداث .

ولا نستغرب هذا البعد الانساني على رجل مثل
« دى ليبس » عاش وفيما لمبادئه ولمشروع حياة ، صارم
وشريف .

اننا لا نبالغ اذا قلنا انه لا يوجد بين الروائيين الأسباب
فيما بعد الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) من يتوافر فيه
الانسجام التام والتناغم الكامل بين الشخصية والأيدولوجية
والفن مثلما يتوافر في « دى ليبس » .

هذا الكاتب الذى يبغض آثام المدينة التى يلغ فيها
رجالها المزيفون عن عمد ووعى كاملين ، ويكره « التقدم »
المادى الخالى من دفء المواطف البشرية والذى يستعبد الفرد
ويحوّله الى دمية وبهلوان وأداة للقمع والقهر .

هذا الكاتب الذى يجد فى كل ما هو أصيل وعفوى ملاذه
وقرة عينه : الريف والطبيعة - التى تدنسها يد الانسان
بالتفجير والتشويه - حيث تتجلى قدرة الخالق وعظمة ابداعه
وتصويره .

وقد أدى وفاء الكاتب لموقفه هذا الى رفضه لوجهة النظر
المتحذلقة السفسطائية عند معالجته لمشاكل الفقراء
والمطحونين ، بل عرضها فى الاطار المناسب ، أى على مستوى
بسيط وواضح كما كان يمكن أن يفعله فلاح بسيط من بنى
جلدته .

ولهذا نجد أن سهام الكاتب كلها - فى الرواية - موجهة
الى هدف واحد : ضرورة تحسين مستوى حياة الفلاحين
الفقراء ، والعمل على تقوية الروابط والحض على التضامن
بين قطاعات المجتمع المختلفة ، ونصح من بيدهم مقاليد الأمور
والأغنياء للاهتمام بالفقراء والمطحونين ومساعدتهم على حل
مشاكلهم المزمنة لأن العائد سيكون خيرا على الجميع ، واعادة
الانسان الى مرفأ الانسانية الذى أوشك أن يدمره التقدم
المادى ، وتزكية الخير أينما كان ومقاومة الشر أيا كان
مرتكبه أو المحرض عليه .

وقد عبر الكاتب عن كل ما تقدم ذكره بلغة انسانية متدفقة ، أصيلة ، عفوية ، رقيقة وشاعرية ، بعيدة كل البعد عن البهرجة والتقاليع المستحدثة .

ولقد تمخض احترامنا لهذا الكاتب الفذ عن ترجمة عمله هذا ترجمة دقيقة حتى لا نفوت على القارئ فرصة التعرف على أسلوب المؤلف العذب وطريقته الشيقة فى السرد والحوار ، وللوفاء بهذا لم تفقد - ولله الحمد - الجملة العربية تماسكها ووضوحها ، بل وعدوبتها أيضا - - فالنصيحة التى يمكن أن نسديها تتلخص فى القراءة المتأنية الواعية ، لأننا أمام عمل يعد من روائع الفن الروائى فى مختلف العصور .

ولا نجد لختام ما بدأناه من حديث أفضل من هذه الصرخة الانسانية الحميمة للمؤلف : « اذا كانت مغامرة التقدم ، كما عهدنا حتى اليوم ، لا تعنى سوى زيادة العنف والكراهية ، الاستبداد وعدم الثقة ، الظلم والاعتداء على الطبيعة ، المنافسة غير الشريفة والتفنن فى التعذيب ، تسخير الانسان لأخيه الانسان وعبادة المال ، فانى أصرخ بأعلى صوتى : أوقفوا الأرض ، أريد أن أسير على قدمى وحدى ! » .

د . على عبد الرؤوف على البمبى

الف، فران

— ١ —

بعد الفجر بقليل ، أطل « النيني » من فوهة المنارة
وتأمل سحابة الغربان المتجمعة • على ضفة النهر بدت أشجار
الصنوبر الثلاث ، المجذوة الرؤوس ، وهي مغطاة بالطيور
وكانها مظلات مقفلة تشير بأطرافها المدببة نحو السماء •
وعلى البعد كانت أراضى « دون أنتيرو » (١) الوحشية تلمع
بالسواد وكأنها مكان شاسع لحرق الحطب •

دلفت الكلبة بين ساقى الصبى الذى داعب ظهرها
بقدمه المتسخة العارية دون أن ينظر إليها ، ثم تثائب ، مد
ذراعيه ورفع عينيه نحو السماء البعيدة الصافية وقال :

— الجو مهياً لنزول الثلج ، يا « فا » (٢) ، سنذهب يوم
الأحد لصيد الجرذان •

هزت الكلبة بعصبية ذيلها المقصوص ورمقت الصبى
بحدقتها النشطتين الصفراوين •

جفنا الكلبة متورمان وبدون أهداب ، قليلاً ما يصل
الكلاب أمثالها الى سن الشياح محتفظين بعيونهم ، فمن المعتاد
أن يتركوها بين أحراج النهر ، بفعل النباتات الشائكة
والسروال وشجر اللبلاب •

تحرك العم « راتيرو » بالداخل ، بين القش ، وعندما
أحست به الكلبة نبحت مرتين ، فارتفع ، عندئذ ، سرب
الغربان بكسل عن الأرض فى طيران متمهل وعميق ، منظوم

(١) « دون » (Don) لقب معناه : السيد — (المترجم) •
(٢) « فا » (FA) الاسم الذى يطلقه الصبى على كلبته — (المترجم) •

بضوضاء نعيقه المشئوم - ظل طائر منها على الأرض الداكنة
بلا حراك ، وعندما رآه الصبى جرى تجاهه فى خطوط
متعرجة تعدها الأخاديد الرطبة ، ومتفاديا مزاحمة الكلبة
التي كانت تنبج الى جواره - عندما رفع الفخ لتحرير جثة
الطائر ، رأى سنبلة مع الشوفان لم تخذش فأمسكها بين
أصابعه الصغيرة بعصبية فتبعثرت حباتها على الأرض -

نادى ، رافعا صوته فوق نقيق الغربان التي كانت
ترفرف بأجنحة ثقيلة ، ومتوجها نحو السماء :

— لم يتذوقها ، يا « فا » - لم يأكل حبة واحدة -

تبدو المفارة ، وهى فى منتصف القمة وحولها أخاديد
المنحدر ، وكأنها قم كبير يتثائب - ما زالت توجد على جوانب
القمة أطلال ثلاث المغارات التي هدمها بالديناميت
« خوستيتو » ، العمدة ، منذ عامين مضيا - كان « خوستيتو
فادريكو » ، العمدة ، يطمح فى أن يعيش جميع من بالبلدة
فى مساكن كالسادة -

كثيرا ما كان يضيق الخناق على العم « راترو » قائلا :

— أعطيك بيتا نظير مائة بيزيتة وأنت ولا كلمة - ماذا
تريد ، اذن ؟

ويكشف « الراترو » عن أسنانه الصفراء فى ابتسامة
مبهمة ، ما بين بلهاء وماكرة ، ويرد عليه قائلا :

— لا شيء -

ويهيج « خوستيتو » ، العمدة ، وفى تلك الأحوال ،
كانت تضيق ناصيته البنفسجية وكأنها شيء يتحرك :

— ألا يروقك أن تفهمنى ؟ أريد هدم جميع المغارات -
لقد وعدت المحافظ بذلك -

ويهز « الراتيرو » كتفيه القويتين مرة بعد أخرى، ليقول له « مالبينو » بعد ذلك فى الحانة :

— خذ حذرك من « الخوستيتو » • انه من النوع الذى يخيف • أسوأ من الفئران •

فيرمقه « الراتيرو » المكوم على المائدة بعينين خشنتين جاحظتين ، ليقول له :

— الفئران لا تؤذى أحدا •

« مالبينو » كان يسمى من قبل « بالبينو » ، ولكن معارفه أطلقوا عليه الاسم الأول ، لأنه كان لا يحتمل بعد كأسين فقط من الشراب •

كانت حانة « المالبينو » ضيقة وقذرة ، أرضها من الأسمنت وبها نصف دسنة من الموائد المصنوعة من الألواح الخشبية ، ومقاعد ذات ظهور منخفضة •

اعتاد « الراتيرو » عند عودته من النهر الجلوس هناك ليأكل زوجا من الفئران المقلية والمتبلة بالخل ، مع نصف رغيف ، ويشرب كأسين من النبيذ الفاتح • أما بالنسبة لبقية محتوى المخلاة فقد كان يشتريه « المالبينو » الفأرة ببيتزتين • تعود صاحب الحانة الجلوس الى جوار « الراتيرو » أثناء تناوله للطعام :

— عندما لا يقنع الرجال بما لديهم يثيرون المشاكل ، أليس كذلك يا « راتيرو » ؟

— فعلا •

— وعندما يقنعون لا يخلو الأمر من داهية يشغل نفسه بتقديم المزيد لهم ويثير المشاكل نيابة عنهم • والنتيجة ، استمرار الشغب ، ألسنت معى فى هذا ؟

— معك •

— وعلى سبيل المثال انت ، فانت راض بالعيش فى مفارئك ولا تدخل فى شجار مع أحد - ومع ذلك تتملك « الخوستيتو » فكرة ذهابك الى هذا البيت ، فى الوقت الذى يتقاتل عليه الكثيرون -

— نعم -

كانت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تؤكد ان « المالبينو » هو ملاك الشر للعم « راتيرو » ، لكن « المالبينو » كان يرد على هذا قائلاً : انه لا يمثل سوى ضميره -

من على عتبة المغارة ، رأى العم « راتيرو » « النينى » وهو يهبط من على سفح القمة ، حاملاً الغراب فى يده والفتخ فى اليد الأخرى - تقدمت الكلبة عندما اكتشفت الرجل ووثبت مرة بعد أخرى عليه ، محاولة لعق يده الخشنة ذات الأصابع المتساوية ، وكأنها سويت بمقصلة - لكن الرجل كان يطبق ، فى كل مرة ، خرطومها وهو شارد الذهن والحيوان يهتمهم بين غضب وسرور -

قال له « النينى » وهو يشير الى الغراب :

— قتله « البرودن » ، لن تترك له الغربان شيئاً فى الأرض المبدورة -

كان « البرودن » يكرر دائماً بالزراعة ، وقد سبق أسبوع المطر الأخير وبذر الأرض بالحبوب - اسم « البرودن » الحقيقى « أثيسكلو » وقد أطلق عليه لقب « البرودن » لما يتسم به من عقل وحيلة - كان يحرق الأراضى البور فى مايو ، وهكذا تكون أرضه جاهزة عندما يصل شهر نوفمبر - وعندما ينقضى الصيف ، وقبل أن تصفر الأوراق بقليل ، كان يجمع أوراق أشجار الصنوبر الثلاث ويخزنها فى طرود ، لكي يغذى بها الماعز خلال فصل الشتاء - كثيراً ما كان يستشير « النينى » : « نينى ، أيها الغلام ، سيسقط المطر

أم لا ؟ » - « نينى ، أيها الغلام ، الليلة ساكنة والسماء صافية ، ألا يندر هذا بكارثة الثلوج السوداء ؟ »

من يومين اقترب « البرودن » من « النينى » وكانها مصادفة :

— « نينى » ، يا بنى — ناداه فى نغمة باكية — ، الغربان لا تترك السزرع فى حاله ، تنبش الأرض وتلتقط الحب . ماذا أفعل لتخويفهم ؟

تذكر « النينى » الجد « رومان » ، الذى كان يعلق غرابا ميتا ويجعل رأسه متدليا الى أسفل كى يبعد المصافير عن الأرض المبدورة . كانت الطيور تهرب من المشهد الدامى ، من حداد الأرض السوداء الصامت كى تزدهر .

— دع الأمر لى — رد عليه الصبى .

بينما كان « النينى » يلتهم حساء الخبز على باب المفارة ، تأمل الغراب بريشه المتصلب وهو ملقى على نبات السمتر . كانت الكلبة تقمى الى جواره تتأمله فى ثبات واذا شرد الصبى ، كان الحيوان يضرب ساعده بحافره الأمامى . خلف الكلبة ، أسفل القمة كان يفتح عالم ، عالم تحسبه « لاكولمبا » ، امرأة « الخوستيتو » ، قاحلا ربما لأنها تجهله . عالم من الأخاديد الداكنة ، المشكلة تشكيلا هندسيا رائعا .

كانت أخاديد الخريف تتحول ، بعد جفاف مانها ، الى بحر من الطين يخترقه شريان النهر المقتضب ، والذى تقسع القرية على جانبه الآخر . كانت القرية داكنة أيضا ، كشيء زائد من نفس الأرض ، ولولا فجوات الضوء والظلال التى تعكسها أشعة الشمس الوليدة — الحقيقة الايجابية الوحيدة فى هذا المنظر المقبض — لما تعرف عليها أحد .

على بعد كيلو متر واحد ، وبمحاذاة النهر الصغير ، يلمع بالبياض الطريق المؤدى الى المدينة ، والذى تدوسه فقط

سنايك جياذ المركبات ، والعريه « الفورديش » (٣) ل « دون أنتيرو » ، الغنى ، وحافلة المدينة التي تربط عاصمة الاقليم بسائر قرى المنطقة . تسد الأفق من هذه الناحية سلسلة من القمم العارية ، وكأنها جماجم ، متوجة بنصف دسطة من أشجار اللوز الضامرة . تحت وهج الشمس ، يرسل الجص الكريستالى للمنحدرات بلمعان متقطع وغمزات لونية وكأنه يحاول ارسال اشارة مبهمه لسكان القرية الوطيئة .

تقدم الخريف كان يخنق كل مظهر من مظاهر الحياة النباتية ، فقط المرج ونبات الأسل ومجرى النهر كانوا يضيفون أثرا من حياة على المشهد المحتضر . تمتزج سلسلة من التحولات اللونية تجمع بين الرمادى والأزرق الرصاصى والداكن . فقط أعلى المغارة ، فى الصخراء الباردة ، كان يمثل جبل البلوط العمومى الماوى الأمين للطيور والوحوش الكواسر .

جرى الصبى ، وييده الغراب ، هابطا المنحدر تتبعه الكلبة . فى الجزء الأخير من المنحدر رفع « النينى » ذراعيه كما لو كان سيطير فوق الطريق . لم تكن الشمس قد ارتفعت الا قليلا ومازال يتصاعد من مداخل البيوت لسان أبيض من الدخان، ومازالت تتجمع فوق القرية الرائحة الخشنة للقش المحترق وكأنها ينخور لزج . عبر الصبى والكلبة قنطرة الألواح البدائية ودخلا البيدر . كان برج حمام « الخوستيتو » يقع الى جوار مخزن التبغ العمومى ، وعندما مر الصبى أمامه صفق بشدة مرتين فارتفع سرب الحمام هائجا فى صخب محموم وكان ثوبا يتمزق . نبعت الكلبة مسرورة ولكن ظهور « المورو » ، كلب « الرايينو جراندى » (٤) ، الراعى ، أسكتها فى الحال .

(٣) « الفورديش » ماركة قديمة للنوع معين من السيارات - (المترجم)

(٤) جراندى (Grande) لقب هذا الراعى ، ومعناها . كبير أو طاعن فى

السن - (المترجم)

رسم سرب الحمام نصف دائرة متسعة خلف برج الكنيسة ثم عاد الى حيث أتى .

أطل « البرودن » من الباب الخلفى وهو يخلق فتحة سرواله .

— خذ — قال « الثينى » وهو يسلمه الطائر .

ابتسم « البرودن » ابتسامة مراوغة ، وقال :

— أمسكته وأوقعت به أخيراً ؟ • أمسك الطائر من طرف جناحه ، متوجساً ثم أضاف :

— هيا ، ادخل •

كان يستند على جدار الحظيرة محراث يعلوه الصدا وأدوات الفلاحة وعربة كارو قديمة ، وفي أعلى الحظيرة توجد فتحة مخزن التبن • دخل « البرودن » الحظيرة فضربت البغلة السوداء الأرض بقدمها ، فى جزع • وضع الطائر على الأرض ، وبينما كان ينظف المداوم منه القش قال الصبى دون أن يلتفت اليه :

— ياله من طائر ! عندما تهبط هذه الدواهي على المحصول تفتك به أكثر من السيول •
يا له من طائر !

بعد أن نظف المداود ، صعد بسرعة الى مخزن التبن ، أمسك بالمدراة وألقى على الأرض بعضاً من حزم القش • هبط بعد ذلك ، أخذ الغربال ونخل التبن بحركات سريعة متذبذبة • وزع التبن بعد ذلك على المذودين ، ثم غطاها بقفّة صغيرة من الشعير • كان الصبى ينظر اليه متأملاً وعندما انتهى من توزيع الشعير قال له :

— علقه من رجليه ، والا ، فانك بدلا من تخويفهم ستدعوهم الى الهبوط •

نفض « البرودن » يدا باخرى وأمسك بطرف جناح الطائر من جديد ثم دلف الى البيت من باب المطبخ • دخل الصبى والكلبة وراءه • ثارت ثائرة « لاساينا » عندما رأت الغراب وسألته :

— الى أين أنت ذاهب بهذه القمامة ؟

لم يغير « البرودن » من نفمة صوته المتزن وهو يقول :

— أغلقى فمك •

وضع الطائر فوق المائدة • قلب قشر البطاطس الذى كان يغلى فوق نار هادئة ورفع القدر من على النار ثم جلس ووضع بين رجليه وبدأ فى عمل أصابع من قشر البطاطس • أمسك الصبى بالباب فى طريقه الى الخروج ، عندئذ نهض « البرودن » ونادى عليه :

— انتظر •

تبعه فى المدخل ذى البلاطات الحمراء وهو يفتش فى جيوب السروال وبعد أن خرجا الى الشارع مد له يده بقطعة معدنية فئة البيزيتة • كان « النينى » ينظر اليه فى ثبات مما جعل « البرودن » يرتبك ، عندئذ رفع عينيه الى السماء ، سماء بيضاء ، مشوبة بزرقة خجولة ، ثم قال :

— لن تمطر أكثر من هذا ، أليس كذلك يا فتى ؟

— ان السماء صافية • الجو مهياً لنزول الثلج — أجاب الصبى •

عندما رجع الى المطبخ ، فحص « البرودن » الطائر بعناية ثم استمر فى تصنيع علف الدجاج وهو صامت • رفع رأسه بعد مضي بعض الوقت ثم قال :

— « النينى » هذا يعرف كل شيء • كأنه اله •

لم تجب « لاساينا » • فى الأوقات التى تكون فيها

معتدلة المزاج تعتاد القول بأنها عند رؤية « النينى » وهو
يتحدث مع رجال القرية تتذكر المسيح بين حواريه ، لكنها
عندما تكون عكرة المزاج ، تسكت ، والصمت ، عندها ،
علامة احتجاج •

- ٢ -

تابع « النيني » سيره فى الشارع المقفر ، مقتربا من حوائط البيوت لكى يتفادى الوحل . كان يحك القطعة المعدنية التى كانت معه فى حوائط الطوب اللبى وعندما وصل لأول ناصية ، لاحظ بلدة صبيانية البريق المتولد فى طرفها . كان الوحل هناك أشد كثافة ولكن الصبى عبره دون تردد ، غامرا قدميه العاريتين فى الوحل المخلوط بروث البهائم والأغنام ، وفى المياه الراكدة النتنة . اخترق القرية وقبل أن يصل الى اصطبلات « دون أنتيرو » سمع الصوت الدافى لـ « الرايينو تشيكو » (١) وهو يتحدث الى الأبقار . كان « الرايينو تشيكو » يعمل فى خدمة « دون أنتيرو » واشتهر عنه معرفته للغة الحيوانات .

« الرايينو تشيكو » ، راعى الأبقار ، « والرايينو جراندى » ، راعى الأغنام هما ابنا « الببيخو رايينو » ، الذى كان - على حد قول الأستاذ « دون أوستاسيو دى لا بيدار » - مثالا حيا على صدق نظرية انحدار الانسان عن القرد .

وفعلا ، كانت بالعمود الفقري لـ « الببيخو رايينو » فقرتان زائدتان ، على شكل ذيل مقطوع ، وكان جسده مغطى بشعر أسود كثيف ، وعندما كان يتعب من المشى على رجليه كان بإمكانه المشى على يديه بسهولة . ومن أجل هذا دعاه « دون أوستاسيو » عام ١٩٣٣ لحضور مؤتمر عالمى ، لا لشيء الا لكى يبرهن لزملائه أن الانسان ينحدر عن القرد

(١) تشيكو (Chico) بمعنى صغير (Viejo) ببليخو بمعنى عجوز . وقد أطلق المؤلف على الابن الأكبر للرايينو لقب (جراندى) ، أما أخوه الأصغر فقد أطلق عليه لقب (تشيكو) بينما أطلق على الأب لقب العجوز (ببليخو) - (المترجم) .

وأنه مازال من الممكن حتى الآن العثور على نماذج فى منتصف طريق التطور • وبعد هذا المؤتمر ، كان « دون أوستاسيو » يدعو إلى العاصمة كل مرة يزوره فيها زملاء العمل ويجعله يتعزى ويدور على يديه ، ببطء ، فوق مائدة • فى البداية ، كان « البييخو رابينو » يشعر بالخجل ، لكنه سرعان ما اعتاد هذا لدرجة أنه كان يسمح للأستاذ ، الذى كان عالما فى هذا المجال ، بتحسس الفقرتين الزائدتين دون أن يهتز •

ومنذ ذلك الحين ، ما من غريب أظهر اهتمامه بخصوصية ما لدى « البييخو رابينو » من مزايا ، الا وخلع الأخير لباسه وأطلعه على الفقرتين الزائدتين •

وبهذه العلاقات ، تحول « البييخو رابينو » — على حد قول الوصية الحادية عشرة (٢) عن الطريق القويم وترك الذهاب إلى الكنيسة • كان يقول له « دون ثوسيمو » ، القس الذى كان يتولى مهمة الوعظ فى القرية حينذاك : « رابينو ، لماذا لا تأتى إلى القديس ؟ » ، فيجيبه « البييخو رابينو » مختالا : « لا يوجد له كان جدى قردا • هذا ما يقوله الأستاذ أوستاسيو » •

وعندما اندلعت الحرب الأهلية ، ذهب خمسة فتيان من قرية « توريثيو ريجو » ، يتزعمهم « بلتسار » ، من « الكيركو » ، وهم يحملون البنادق إلى باب بيته • كان اليوم أحدا وظهر « البييخو رابينو » وهو يرتدى حلة الاجازة المتواضعة ويضع فى قدميه الحذاء الضيق ، فدفعه « بلتسار » بفوهة البندقية قائلا :

« الآن أعلمك أين ترعى الخنازير » • طرقت عينا

(٢) الوصية الحادية عشرة لقب آخر يطلقه المؤلف على إحدى الشخصيات النسائية لاكتارها الاستشهاد فى أحاديثها بنصوص تنسب إلى الوصية الحادية عشرة من الكتاب المقدس — (المترجم) •

« البييخو رابينو » ولم يقل سوى : « ماذا تريد ؟ » - رد
« بلتسار » : « أريد أن تأتي معنا » -

كان « البلتسار » يزين صدره بالصليب ، فنظرت اليه
امراة « البييخو رابينو » وكأنها تتوسل ، ثم نظرت الى زوجها
الذى كان ينظر بدوره الى حذائه ثم قال فى مسكنة : « انتظر
لحظة » - وعندما عاد من داخل البيت كان يرتدى ثياب
الرعى ويلبس الحذاء الجلدى الطويل ، ثم قال متوجها
لزوجته : « الى اللقاء » وبعد ذلك قال « لبلتسار » : « عندما
تريد » -

فى اليوم التالى ، وجد « الأنطوليانو » جثته عند المنعطف
وعندما حملها الى البيت تسمر فم « الرايينو تشيكو » ، الذى
كان صبيبا وقتها ، بالرغم من تمتعه أيضا بفقرتين زائدتين ،
ولم تفلح أية وسيلة لادخال الطعام فمه - أفتى « دون
أورسينوس » ، طبيب « توريثيو ريجو » ، بأن المرض عصبى
وسيزول بمرور الوقت - عندما زال المرض ذهب
« الرايينو تشيكو » الى « دون ثوسيمو » ، قسيس القرية ،
وسأله :

« أليس الصليب علامة على المسيحى ، سيدى القس ؟ » -
« هكذا يكون » - أجاب القسيس - أضاف « الرايينو تشيكو » :
« ألم يقل المسيح : أحبوا بعضكم بعضا ؟ » - « هكذا قال » -
أجاب القسيس - هز « الرايينو تشيكو » رأسه هزة خفيفة
ثم سأل : « حينئذ ، لماذا قتل هذا الرجل الذى يحمل الصليب
أبى ؟ » - تضاءلت انسانية القسيس الطاغية أمام المشكلة -
أمسك قبعته بحركة آلية قبل أن يتكلم : « اسمع - قال
أخيرا - ، ابن عمى « باكوميرو » كان قسيسا فى « رولدانا » ،
الواقعة على الجانب الآخر ، حتى أمس الأول - هل تعرف لماذا
حتى أمس الأول ؟ » - « لا » - أجاب « الرايينو تشيكو » -
« اسمع اذن » - أضاف القسيس - : « لقد قيده الى عسود ،

تم قطعوا ذكره بموسى ورموه الى القطط أمامه . ما رأيك؟ »
كان « الرايينو تشيكو » يهز رأسه لكنه استطاع أن يقول :
« هؤلاء ليسوا مسيحيين ، سيدى القس » .

عقف القسيس أصابعه ثم قال فى تؤدة : « انظر ،
يا بى . عندما تنزل الغشاوة على الأعين ، فان الأخوين ،
مسيحيين أم لا . يتقاتلان بضراوة كالآعداء » . لم يعلق
« الرايينو تشيكو » على هذا الا بقوله : « آه ! » .

بعد تلك اللحظة بدأ « الرايينو تشيكو » فى الابتعاد عن
الناس والخروج الى الربى بصحبة القطيع الى ان تعاقده معه
« دون أنتيرو » . الفنى ، كى يرعى أبقاره . وعلى عكس
ذلك ، كان يحلوا لـ « الرايينو تشيكو » محادثة الأبقار ،
وطبقا لما يروى ، فقد كانت لديه موهبة تفسير خوارها .

وسواء أصبحت هذه الرواية أم لا ، فانه قد برهن أمام من
هم أكثر تشككا أن البقرة التى يتحدث اليها بحنان أثناء
جلابتها ، تدر كمية من اللبن أكثر بكثير مما اذا حلبت فى
صمت . كما اكتشف فى مناسبة أخرى أن البقرة التى تنام
على حشيتة تعطى لبنا أكثر من التى تنام على القش ، وهو يقوم
الآن بطلاء جدران الاضطبل باللون الأخضر حتى تزداد كمية
اللبن حسبما يدعى .

امح « النينى » « الرايينو تشيكو » من ظهره فصاح :

— صباح الخير .

كان « الرايينو تشيكو » يتحرك ببطء وتؤدة كرجل
سمين ناضج . ولم يكن أبدا ينتظر أمامه . سأل « النينى »
ذات مرة عن سر حديثه مع الأبقار ونفوره من الرجال
فأجاب : « الرجال لا يرددون سوى الأكاذيب » .

الآن ، يتجه « الرايينو تشيكو » نحو « النينى » ليسأله :

— « نينى » ، هل صحيح ان « الخوستيتو » يريد طردكم من المغارة ؟

— هذا ما يقولون .

— من هذا الذى يقول ؟

هز الصبى كتفيه ، ثم سأله :

— هل انتهيت من طلاء الاصطبل ؟

— مساء أمس .

— وماذا ؟

— انتظر حتى تقول الأيام كلمتها .

اجتاز الصبى منعطف الكنيسة . كانت الحفر هناك أشد عمقا والمياه راكدة ، وبالرغم من البرودة فقد كانت تنبعث منها روائح كريهة تصيب الرأس بالدوار . على سور منزل السيدة « كلو » ، أمام الكنيسة ، ترتفع لافتة كتب عليها بحروف ضخمة من القار : « تعيش دفعة ٥٦ » . كانت السيدة « كلو » تكنس بهمة درجتى السلم الأسمنتى المؤدى الى مدخل دكان الخردوات ، وعندما رفعت رأسها رأت الصبى وهو يحك العملة المعدنية فى جدران الكنيسة .

— الى أين أنت ذاهب فى هذا الوقت المبكر ، يا « نينى » ؟

استدار الصبى نصف استدارة وظل ناظرا تجاه المرأة منفرج الساقين . كان الطين قد ترك على احدى ساقيه بدهنة بدت وكأنها جورب أسود .

استندت السيدة « كلو » على يد المكنسة ، ابتسمت بكل وجهها العريض ثم قالت :

— بدأ الجو يتغير ، متى سنذبح الخنزير ، يا « نينى » ؟

نظر اليها الصبى نظرة متأنية ثم أجاب :

— مازال الوقت مبكرا .

— لو كانت جدتك موجودة ما فكرت كثيرا مثلك .

حرك « النيني » رأسه فى عزم :

— لا تشغلى بالك ، يا سيدة « كلو » ، فليس من الصواب
ذبحه قبل عيد « سان دامسو » * سأخبرك بالموعد فى حينه .
استأنف طريقه ولما رأى الكلبة تطوف حول بيت
« خوسيه لويس » ، المحضر نادى عليها بصفرة خافتة . لبث
الكلبة النداء وسارت مطيعة خلفه ، لكنها هجمت عندالناصية
على سرب من العصافير التى كانت تنقر فى الروث .
طارت العصافير محدثة صخبا بينما تابعتهم الكلبة ،
رافعة رأسها ومحركة ذيلها المقصوص بعصبية .

كان يسمع صوت منشار « الأنتوليانو » واطل « النيني »
من الباب ، المفتوح حتى فى أيام الشتاء الأشد برودة ،
فراه ، منحنيا على الطاولة ، ويده القوية تمسك بمقبض
المنشار . الورشة عبارة عن غرفة سيئة التهوية وحقيقية ،
تغص بسلخات خشبية ونشارة ، وبها أربع كتل من الخشب
الخام ملقاة رأسيا فى أحد الأركان . على الحائط ، بجانب
النافذة ، كان يوجد حجل يدور حول نفسه وينقر فى قضبان
القفص . مضى زمن كان يعيش فيه « الأنتوليانو » على
ما يكسبه من صناعة مكاييل الجبوب ، لكن بعد الاستعاضة
عنها بموازين الجبوب الجديدة مثل الكيلو ، انقطع مورد رزق
« الأنتوليانو » ، وأصبح يعمل فى كل ما يعرض عليه .
عند النظر الى « الأنتوليانو » من جانب ، يلاحظ عدم
التناسق الواضح فى أنفه ، الذى يبدو وكأنه قد نما وحده
ثم توقف فى منتصف الطريق نكاية فى صاحبه . على أية
حال ، كان أنف « الأنتوليانو » يشبه أنف ملاكم ، ويشكل
بالنسبة له ، هو الذى يتباهى بالقوة والجسارة ، نقطة
ضعف وامتهان . كثيرا ما كان يتطوع بشرح الأمر دون أن
يطلب منه أحد ذلك : « هل تعرف السبب فى أن أنفى يشبه

كمكة العجين المقلى ؟ يداى هاتان ، عليهما اللعنة » • يدا
« الأنتوليانو » ، وعليهما الآن نشارة الخشب ، تشبهان
مجرفتين كبيرتين ، وطبقا لروايته ، فقد كان يسير ذات ليلة
حاملة السواد وهما فى جيبيه فعثرت قدمه وسقط بوجهه
على حافة بئر « الخوستيتو » ولم يسعفه الوقت لانتزاعهما من
مكمنهما •

— أهلا — قال له « النينى » من على عتبة الباب •

تسللت الكلبة داخل الورشة ثم أقعت فى زاوية منها ،
بجوار الشرائح الخشبية المسحوجة حديثا •

— يا شقية ! — ناداها •

انفجرت شفتا « الأنتوليانو » عن ابتسامة مبتسرة دون
أن يرفع عينيه عن اللوح الذى كان يقوم بنشره •
— اتركها ، فلن تحطم شيئا •

اضطجع « النينى » على عتبة الباب • كانت شمس
مخريف العذبة تغمر الشارع وتغطى نصف باب الورشة •
نأ الصبى بكسل وعيناه على الشمس :

— ماذا تصنع ؟

— كما ترى • أصنع نعشا •

التفت اليه « النينى » مندهشا وساله :

— هل مات أحد ؟

أنكر « الأنتوليانو » دون أن يتوقف عن العمل •

— ليس من هنا — قال • انه من « توريشيوريجو » •
« الديفونسو » •

— « الديفونسو » ؟

— كان كهلا • تعدى السابعة والخمسين •

ترك « الأنتوليانو » المنشار على الطاولة • جفف عرق
جبينه بساعده • كان شعره الأشعث يلمع بالنشارة وتفوح
من كل جسده رائحة الخشب الخام • قال :

— أثمان النعوش فى العاصمة تزداد يوما بعد آخر •
وكما ترى فكل واحد منها لا يزيد عن أربعة ألواح •
اكفهرت نظرتة عندما أضاف :

— حقا لا يحتاج الواحد منا لأكثر من هذا •
جلس عند الباب ، على المصطبة الحجرية ، بجوار الصبى ،
ثم لف بعناية سيجارة :

— أحضر « أدولفو » البذور أمس • والحوض جاهز —
قال وهو يمرر طرف لسانه على الطرف اللاصق لورقة
السيجارة •

— عليك أن تضع فى الحوض تربة حامية — قال الصبى •
— حامية ؟

— طبقة من الروث أولا ، ثم طبقة أخرى من التراب
المنخول •

أشعل « الأنتوليانو » السيجارة وسأل بشفتين مضمومتين :
— روث أبقار أم خيول ؟

— روث خيول اذا كنت تريد تربة حامية ، ثم ترويهما
بعد ذلك •

— حسنا ••

جذب « الأنتوليانو » نفسا عميقا من السيجارة ، منكرا
قال وهو ينفث الدخان بلذة

— اذا نما نبات عش الغراب فى الحوض ، فيجب أن
أزرعه فى المغارات العلوية •

- فى مغارة جدى ؟
- وفى مغارة « المودو » (٣) والفجرية • فى الثلاث •
استنكر الصبى بنظرة منه :
- لا يجب أن تفعل هذا — قال : يمكن أن تسقط تلك
المغارات فى أى يوم •
- صدرت عن « الأنتوليانو » ايماءة بعدم الاكتراث :
- تنبغى المخاطرة •
- تسلق الديك الأبيض فجأة سور الحظيرة ، المجاورة
للورشة ، نفش ريشه تحت ضوء الشمس ثم مد عنقه وصاح
بصوت خشن • وثبت الكلبة فى طين الشارع وأخذت تنبح
بغضب وعندئذ أمال الديك رأسه وأخذ ينفخ من الغيظ
كالأوزة •
- يمكن أن يسقط هذا الديك • سيجلب لك الكدر
والاستياء ذات يوم •
- نهض « الأنتوليانو » ، ألقى بعقب السيجارة فى الوحل
ثم داسه بقدمه وهو يقول :
- لا بد وأن يتولى أحد حراسة البيت •
- وعندما هم بدخول الورشة بدا أنه تذكر شيئاً فعاود
الخروج :
- تقول ان طبقة التراب يجب أن تكون فوق طبقة
الروث ؟
- نعم • ومنخولة جيداً — أجاب الصبى •
- أمال « الأنتوليانو » رأسه قليلاً وقبل أن يدخل الورشة
أوماً بيده الضخمة ايماءة صداقة • نادى « النينى » على
الكلبة وتواريا فى الشارع ، المؤدى الى النهر •

(٣) المودو (El Mudo) لقب آخر لاحدى شخصيات الرواية ، ومعناه الآخرس —
(المترجم)

- ٣ -

كانت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تنسب الى « النيني » صفة العلم اللدنى . لكن « دونيا ريسو » (١) ، أو الوصية الحادية عشرة كما كان يناديها أهل القرية ، كانت تؤكد أن معرفة « النيني » مصدرها الشيطان ، لأن العم اذا كان أحق فمن الضروري أن يكون ابن العم كذلك .

أما السيدة « كلو » فقد كانت تؤول المثل السابق قائلة ان ابن العم يمكن أن يكون أحق أو ذكيا تبعا لوجهات النظر المختلفة . أما « الأنتوليانو » فقد كان يرى خلاف ما تقدم : « لكن ، دونيا ريسو ، أليس الأحق الا ذكيا تجاوز الحد؟ » . فترد « دونيا ريسو » مستنكرة : « رجعنا ثانية للفلسفة ! » . فيضيف « الأنتوليانو » : « ألم أقل صوابا ؟ » وعندئذ ترد عليه « دونيا ريسو » : « لا أدري اذا كان صوابا أو لا ، لكنه مما يروق لك ترديده » .

على أية حال ، فان معرفة « النيني » تنبع فقط من نظرتة الفاحصة المتأملة ، ودون الذهاب بعيدا ، فلئن كان الأطفال والشبان يحومون حول العم « روفو » ، العجوز (٢) ، فقد كان هذا بدافع رؤية يده وهى ترتجف ، كى يتخذوها مادة للتسلية فيما بعد ، أما « النيني » فقد كان يقترب منه

(١) دونيا (Dona) (لقب بمعنى سيدة مثل سنيورا (Senora) لكن الاول اكثر وجاهة وخصوصية - (المترجم) .

(٢) اللقب الحقيقي الذى أطلقه المؤلف على العم « روفو » هو « المكوى » (نظرا لجلوعه المائة سنة) ، لكننا استعاضنا عنه فى الترجمة بكلمة عجوز لأنها أكثر شيوعا فى الاستعمال - (المترجم) .

بدافع حب الاستطلاع - كان العم « روفو » ، العجوز ،
يمرّف الكثير عن جميع الأشياء - كان يتحدث دائما بالأمثلة
ويعرف أسماء القديسين التي تطلق على كل أيام السنة -
وهو وان كان لا يتذكر بالتحديد السنوات التي يحكى عنها ،
نقد كان بإمكانه ، وعلى خلاف ذلك ، التحدث بجلاء عن
مناغون ١٨٥٨ ، وعن زيارة جلالة الملكة « ايزابيلا » وأيضا
عن شن المصارعة الراقى لكل من « كوتشارس » و « التاتو » ،
بالرغم من أنه لم يشاهد أبدا لمصارعة الثيران -

وعندما كان « النيني » يجلس الى جواره على مصطبة
البيت لم يكن يدقق النظر فى حركاته العصبية - بل انه لم
يكن يرد أحيانا بنعم أو بلا ، لكن عينيه المترقبتين واهتمامه
الفاحص كانا يشجعان العجوز ، هذا بالاضافة الى رباطة
الجأش المبكرة عند طرحه لأسئلة أو تقديمه لاجابات -

كان العجوز يتحدث ، عادة ، عن الزمن وعن الحقل
مستخدما أسماء القديسين :

- عندما يحل يوم « سان أندريس » ، يبدأ الشتاء -
أو :

- فى « سان كليمنتي » تربو التربة وتغطى البذور -
أو :

- اذا أمطرت السماء فى « سانتا بيبيانا » ، يسنمر
المطر أربعين يوما وأسبوعا -

كان العجوز اذا تكلم أسهب فى الحديث - وبهذا الشكل
تعلم « النيني » الربط بين الزمن والمناخ ، بين الحقل واسماء
القديسين ، كما تعلم التنبؤ بالأيام المشمسة ، بموعد وصول
القبرات والصقيع المتأخر - وأيضا التمييز بين العقعق
والشقراق الأزرق ، وبين الحمام المطوقة والحمام البرية -

تعلم الصبى أيضا أشياء أخرى من أجداده • فقد كان لديه ، على خلاف المعتاد • ثلاثة أجداد من جهة الأب والام : جدان وجدة • عاش الثلاثة معا فى المغارة المجاورة ، وأحيانا كان « النينى » يسأل مستقصيا ، وهو صغير جدا ، العم « راتىرو » (٣) عن الجد الحقيقى منهم • «الجميع حقيقيون» - كان يرد عليه العم «راتىرو» وهو يبتسم ابتسامة بين بلهاء وماكرة • قليلا ما ينطق العم « راتىرو » بأكثر من أربع كلمات متتالية • وإذا فعل هذا فمن خلال مجهود كبير يدعه منهكا ، لا بسبب التعب الجسمانى بقدر ما هو بسبب التركيز الذهنى الذى يتطلبه الفعل فى حد ذاته •

كان « النينى » يصحب الجد « أبونديو » ، مقلم الاشجار ، الى « توريشيو ريجو » ، حيث « دون بيرخيليو » الذى يملك خمسين هكتارا من أشجار العنب وبيتا جميلا بعريشة كرم ومخزنا مهجورا ، بسقف من القرميد تملوه الثقوب ، حيث يمضيان الليل بصحبة كلاب الرعاة ورجال من اقليم « اكستريمادورا » كانوا يعملون وقتها فى زراعة الجبل بالاشجار • فى الليلة الأولى ، كان الجد « أبونديو » لا ينام ، فقد اعتاد أن يقضى تلك الليلة فى اصلاح السقف بالواح من الصفيح والحجر للاحتماء من البرد والرطوبة • كان يحب « النينى » تغيير رتابة الحياة بالذهاب الى « توريشيوريجو » بالرغم من شدة فزعه من رجال « اكستريمادورا » بحكاياتهم التى يقصونها الى جوار النار، أثناء اعدادهم للعشاء البسيط بينما تنام كلاب الرعاة ، مطوية ، تحت أقدامهم • كما كان يفزعه فى الصباح صرير مضخة البئر التى يفتحها جده ، قبل الشروق للاغتسال • كان رجال « اكستريمادورا » يهددونه بالضرب المبرح اذا لم يقلع عن تلك العادة ، لكن

(٣) العم « راتىرو » هو والد « النينى » ، لكن المؤلف يطلق عليه هذا اللفظ لأن أهل القرية اعتادوا مخاطبته به - (المترجم) •

عندما يجد الجد لا ينفذ أحد منهم وعيده ، ربما لشدة البرودة خارج المخزن .

وفي الحقل ، كان يملك « النيني » احساس مؤلم كل مرة يرى فيها اسوداد الجفان .

وعلى خلاف هذا ، كان الجد « أبونديو » يقطع ، دون شفقة ، الأفرع عديمة الفائدة أينما وجدت ومن فوق كتفه يعطى التعليمات للصبي :

— التقليم ليس قطع الجفان ، أسمعت ؟

— نعم ، يا جدى .

— كل جفن له تقليمه الخاص ، أسمعت ؟

— نعم ، يا جدى .

— الجفنة الخضراء البالغة من العمر ثلاثين عاما تحمل فرعين متصلين ، وآخرين جديدين ، وطرفين أو ثلاثة بدون تقليم ، أسمعت ؟

— نعم ، يا جدى .

— فى الأشجار التى يستخرج منها النبيذ الأبيض أو الأحمر القانى لا نفعل هذا ، بل نترك فى كل منها فرعين بدون تقليم ، برعمين و (يذبوذ) ، أسمعت ؟

— نعم ، يا جدى .

عندما كان الجد ينتهى من تقليم كل جفن كان يدفن تحته الأفرع المقطوعة لكى يستفيد بها كسماد . كان يروق للصبي عمل جده وكان يعتقد أن اهتمامه الكبير بالنظافة قد اكتسبه من وظيفته ، من كثرة عمله فى ازالة كل ما هو متسخ وغير نافع من على عريشة الكرم .

وبالرغم من كونهما أخوين ، الا أن الجد « رومان » كان بمثابة النقيض للجد « أبونديو » ، فلم يكن يقرب الماء الا فى شهر يناير ، وهذا لأن — على حد قول العم « روفو » — ، « الأرانب البرية تعتاد ورود الماء فى الشهر المذكور » . كان

يترك لحيته ولا يحلقها الا مرة كل عام ، فى الحادى والعشرين من مايو ، وهو اليوم السابق لـ «سانتاريتا» . آخر مرة حلق فيها لحيته ، بعد الحاح من أخيه ، كانت فى الشتاء وأرغى وأزبد يومها . كان الجد « روما » يقول للجد « أبونديو » كل مرة يضبطه فيها وهو يغتسل من ماء الدلو : «ابتعد عني ، يا أبونديو ، تفوح منك رائحة مثل رائحة الضفادع » .

إذا كان يفكر ، أو يصطنع التفكير ، كان الجد «رومان» يدخل اصبعاً تحت قبعته الملوثة ويهرش جمجمته بخشونة . وهكذا ، الى أن جاء يوم أكمل فيه « النينى » أربع سنوات ، فقال له الجد « رومان » :

— ستذهب معى غدا الى الحقول .

وخرجا ، تحت شمس كالسفرجل ، وفى الأرض المجروثة تحول الجد « رومان » الى نوع من الحيوانات المتربسة . كان يمشى منحنيا فى زاوية مستقيمة ، يشم الهواء بصوت رنان . فى كل يد قضيب ، وحتى لحيته بدت وكأنها مزودة بحاسة اللمس . من وقت لآخر كان يتوقف ويختلس بعض النظرات على ما حوله ، دون أن يحرك رأسه تقريبا . عيناه ، فى تلك الأحوال ، تبدوان وكأنهما اكتسبتا حياة مستقلة . أحيانا ، كان الجد « رومان » يميل برأسه الى ناحية متسمعا أو يستلقى على الأرض ليفحص بعناية الحجارة والقش المتبقى من الحصاد .

التقط فى إحدى المرات التى بحث فيها بكرة صغيرة داكنة من فوق قلقة حجر ، ثم ابتسم مبتهجا وكأنه عثر على لؤلؤة ففزع « النينى » :

— ما هذا ، يا جدى ؟

— ألا ترى ؟ البكرة . ليست بعيدة من هنا ، البكرة لا تزال ساخنة .

— ما هى البكرة ، يا جدى ؟

— خى ، خى ، خى ، الروث ! اهكذا أنت ؟
وفجأة ، تخشب الجد « رومان » ، اصبعه تحت القبعة ،
عيناه ثابتتان كزرين ، ثم قال دون أن يحرك شفتيه :
— انظر ، انها هناك •

اعتدل ببطء ، غرس قضيبا فى الأرض ووضع فوقه
القبعة ، ثم تحرك رغما عنه راسا نصف دائرة صغيرة بينما
كان يعطى تعليماته للصبي فى صوت هامس :

— لا تتحرك ، يابنى ، حتى لا تفر • أترى فلقة الحجر
البيضاء على بعد مترين من المنخفض ؟ انها تقعى هناك •
لا تتحرك ، اسمعت ؟ الا ترى عينيها الوقحتين ؟ لا تتحرك ،
يابنى ، لا تتحرك • لم يهتد « النينى » لرؤية الأرنب البرية ،
لكنه لمحها بعد أن اقترب الجد شاهرا القضيب الآخر • كان
ينبعث من عيني الحيوان الصفراوين ، عندما نظر بهما الى
القبعة ، بريق فوسفورى • وشيئا فشيئا بدأت معالم الحيوان
تتضح للصبي : الخرطوم ، الأذنان الزرقاوان الملتصقتان
بصلبه ، المؤخرة وبها نتوء خفيف • كانت الأرنب البرية ،
كبيوت القرية ، تشكل ، فى انسجام بيئى مدهش ، جزءا
لا يتجزأ من الأرض التى تقف عليها • اقترب الجد بجانبه
منها ، دون أن ينظر اليها تقريبا ، وعندما أصبح على بعد
ثلاثة أمتار منها رمى المحجن بقوة مخلخلا الهواء • تلتقت
الأنبه الضربة على ظهرها ، دون أن تتحرك ، وفجأة فتح فمها
مثل زهرة واهتزت مرتجفة عدة لحظات داخل الحفرة • قفز
الجد « رومان » فوقها وأمسكها من أذنيها • كانت حدقتاه
تبرقان •

— حجمها كبير مثل كلب ، ألا ترى ؟
— حسنا — أجاب الصبي •
— تم كل شيء بنظافة ، أليس كذلك ؟
— نعم •

لكن الصبى لم يعجبه عمل الجد « رومان » ، فقد كان يكره الموت فى جميع صوره . . .

وبمرور الزمن لم يتغير موقفه تقريبا ، بمعنى ، انه كان يسمح فقط بموت الفتران التى كان يأكلها والغربان والعقاق ، لأن ريشهما الجنائزى كان يذكره بموت الجد « رومان » والجد « الومينادا » ، بنعشيتهما المتجاورين فوق عربة « لاسيميونا الكارو » ولنفس السبب كان الصبى يكره « ماتياس ثليمين » ، المختلس (٤) .

كان الجد يواجه ، على الأقل ، الأرانب البرية ، بيتما كان المختلس يتسلل الى مراقدها ، ويطير جماجمها بطلقات بندقيته ، دون أن يعطيها أية فرصة . ومع هذا لم يكن المختلس يكف عن سؤال الصبى :

— « نينى » ، أيها الصعلوك ، دلنى على مكان الزيزب (٥) وسأعطيك خمس بيزيتات ان أصبت . . . كانت عينا المختلس رماديتين ومشاكستين كعيني صقر . أما جلده المحترق بشمس ورياح الهضبة فقد كان ينطوى ألف طية عندما يضحك متجها الى الصبى ، وكان فمه يبين ، فى تلك الأحوال ، عن أسنان مفترسة مخيفة .

تعرف « النينى » ، بجوار الجد « رومان » ، على الأرانب البرية ، تعلم متى تجرى ومتى تبحث عن مأوى بين الحقول ، كما عرف أنها تتفادى أيام الشتاء جفان الكرم وأشجار الصنوبر الصغيرة ، وإذا هبت الريح من جهة الشمال فأنها تأوى الى جنوب الجبل أو الى النباتات الشائكة ، أما اذا هبت من الجنوب فأنها تأوى الى الشمال ، وأنها تبحث فى الأصبحة المشمسة لشهر نوفمبر عن ملاذ آمن بين المنحدرات . كما

(٤) المختلس هو الذى يصيد . لا رخصة ولا يحترم قواعد الصيد ولا مواسم الحظر .
(المترجم)

(٥) الزيزب . حيوان برى يعيش فى الجبال أو فى الصحراء .
(المترجم)

تعلم التمييز بين ارناب الاماكن المنخفصة - بنية كارض المنطقة - وبين الأرناب الجبلية - حمراء مثل ارضه - .
تعلم أن الأرنبة البرية ترى في الليل مثل النهار ، وحتى عندما تنام ، واستطاع التمييز بين طعم الأرنبة التي صيدت بيندقية وبين التي صيدت بالضرب أو التي صادها كلب ، حيث يكون لحم الأخيرة لأذعا بسبب المشوار الذي جرت به . وتعلم ، في النهاية ، كيف يحدد مكانها بدقة ويحدد ، في غلس الليل البهيم صوتها الخشن الخارج من الحلق . لكنه تعلم أيضا ، بجانب الجد « رومان » ، الاحساس بنبض الحياة حوله .

في القرية ، كان الناس يلعنون السكون ويسخطون عند رؤية الغمام والجفاف أو الصقيع الأسود قائلين : « لا يمنح العيش في هذه الصحراء » . لكن « التيني » ، الصبي ، كان يعرف أن القرية لم تكن صحراء وأن كل جزء من اراضى المزروعة أو البور ينبض بمئات الحيوات . كان يكفيه الاستلقاء على الأرض والملاحظة لاكتشاف تلك الحيوات . كانت تدله بعض الآثار على الأرض أو بقايا الأفرع المهشمة أو مجرد ريشة ملقاة على وجود العبارى الصغيرة ، بنات عرس ، القنافذ أو الكروان .

وذات يوم ، منذ عامين ، حلق الجد « رومان » ذقنه ومرض . أما الجدة « الومينادا » ، التي كانت ترعاه في المغارة ، فقد وجدوها في الفجر متيبسة ، جالسة على المقعد ، دون أن تتغير ملامحها أو هيئتها ، كما لو كانت نائمة .

كانت الجدة « الومينادا » تدبج لأغنياء المنطقة كل عام ، وتفتخر بأن أى خنزير لم يكن يهمهم أكثر من ثلاث مرات بعد ذبحه بالسكين ، كما أن سكينها لم تكن تخرج روثا من بطن الحيوان عندما تقوم بسلخه .

وعندما وصلت عربة « لاسيميونا » الكارو الى المغارة وعليها التابوت ، مات الجد « رومان » أيضا ولزم احضار تابوت آخر . كان حمار « لاسيميونا » يجر التابوتين مبتهجا .

فى طريق المتعذر ، لكنه عندما وصل الى القنطرة الصغيرة
دخل الاطار الايسر للعربة فى التعشيقه فسقطت فى النهر .
وعندئذ فتح تابوت الجدة وظهرت وهى تنظر اليهم فى
هدوء . كان فمها فاغرا ، كأنما أخذت على غرة ، ويداه فى
حضنها . لكنها هناك ، داخل التابوت ، طافية فوق المياه
القدرة ، كانت أشبه بامرأة محفوظة . عندما علقت السيدة
« كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، على سكون الجثة وصفوها
داخل التابوت قالت ان « لا الومينادا » خلقت لتعيش تحت
الأرض ، وأن الموت لم يكن يفزعها . عندما عاد « النينى »
والعم « راتيرو » من المقابر ، كان الجد « أبونديو » قد رحل ،
لا أحد يعلم الى أين ، ومعه أدوات التقليل .

- ٤ -

انحنى العم « راتيرو » ، الصق أذنه بالأرض وفحص
متسمعا أحشائها • عاود النهوض ، أشار بسينخ الحديد الى
حفرة بجوار النهر وقال :
- انها هناك •

مزت الكلبة ذيلها المقصوص وتشممت فوهة الحفرة •
جسبت أخيرا على الأرض ، ورأسها الصغير مائل الى ناحية ،
ظلت بلا حراك ، مترقبة •

- حذار - قل « الراتيرو » وبضربة واحدة غرس
السينخ على بعد متر من الشاطئ •

مرقت الفأرة مسرعة أمام خرطوم الكلبة محدثة ، عند
مروءها بين حلفاء الشاطئ الجافة ، حفيفا كحفيف الأوراق
المتساقطة • صاح « النيني » :

- هيا وراءها •

اسرعت الكلبة كالبرق خلف الفأرة • جرى الرجل
والصبي في المنحدر ، محمسين الحيوان بصيحاتهما • جرت
مطاردة مضنية بين مخلفات الحلفاء وشجر اللبلاب • هشممت
الكلبة • غى هيجانها ، سيقان نبات البوط الهشة ، فتساقطت
ثمارها في النهر وحركتها الأمواج حركات متأرججة •
توقفت الكلبة فجأة • تعرف « الراتيرو » و « النيني » على
مكانها بالضبط بفضل نباتات البوط المنتصبة السامقة ،
هناك حيث تنتهي الثلثة المفتوحة بين الأحراج •
- أحضرها يا « فا » - صاح « النيني » -

اهتزت نباتات البوط لحظة ، سمع حفيف صراع مكنوم ،
وفى النهاية ، دمدمة قصيرة ، قال العم « راترو » :

— لقد أمسكت بها •

رجعت اليهما الكلبة وهى تحرك ذيلها المقصوص
بابتهاج والفارة فى فمها • أخذها العم « راترو » من بين
أسنان الكلبة ثم تمتم :

— انه ذكر كبير •

كانت أسنان الفار نطل دن تحت خرطومه فى عدوانية
عديمة الفائدة •

منذ « سان ثكارياس » و الرجل والصبى يهبطان الى
النهر كل صباح • وظل الامر على هذا الحال منذ ان ادرك
الصبى التمييز بين الاشياء • كان عليهما الاستنادة من
الخريف والشتاء • ففى هذين الفصلين نساقت اوراق
الاشجار الوارفة ، ويتحول الكرفس المائى والصفصاف
واللبلاب وشجيرات النعناع الى فضلات جافة تستطيع الكلبة
البحث الجيد خلالها • فقط كان البوص ، بأوراقه التى يحركها
الهواء ، والبوط بشماره الداكنة يسجلان فى عرض النهر
علامة البقاء والاستمرار • كانت أطراف نبات الأسل انقليل
على جانبي النهر تصفر ، وكأنه شئ يتدهور ، فى طريقه
أيضا الى الزوال • ومع ذلك ، وعام بعد آخر ، عندما يصل
الربيع ، تزين الخضرة مجرى النهر من جديد ، فتمتد قامة
نبات الأسل ، ويكتسى البوص بأوراق كالحراب وتنضج ثمار
البوط لتفمر الحقول بالزغب الأبيض لزهرة الشوك • كان
الأريج اللزج للنعناع الشيطاني والازدهار الكثيف لكرفس
الماء ، يغطى الممرات ، ويعوق أية محاولة للمطاردة تقوم بها
الكلبة •

وعندما يحل موسم الحظر كان العم « راترو » ، محترما
فترة تناسل الفئران ، يظل فى مفارته حتى مقدم الخريف •

لم يكن العم « راترو » يريد استئصال شافة الفئران .
أحيانا ، كانت الكلبة تستعد للهجوم وعندما يلاحظ العم
« راترو » بعض الأعشاب الجافة على باب الجحر كان يردعها
قائلا :

ـ انها تجهز العش للصغار ، هيا بنا .

وعندئذ تنسحب الكلبة دون مقاومة . فبينها وبين
الرجل والصبي يوجد تفاهم غير منظور . كان الثلاثة يوقتون
أنهم باصطياد الصغار لن يحصلوا على شيء آخر سوى البقاء
دون مورد للطعام . تتكاثر الفئران كل ستة أسابيع وفي كل
بطن تلد الجرذة ما بين خمس أو ست . ولهذا ، فإن كل بطن
تعنى عشر بيزيتات على الأقل ، وهو مبلغ لا يستهان به .
كما كانت الكلبة تتخذ موقفا سلبيا مشابها اذا كان باب
الجحر تحت مستوى ماء النهر . لأنها تدرك أن محاولتها
ستبوء بالفشل .

وفي مثل هذه الحالات ، كان العم « راترو » يعتمد
على نفسه . كان يغمس يده اليمنى في الطين ضابطا تجويف
راحتة على أبعاد الجحر ، ثم يخذ بعد ذلك بيده اليسرى
فتتحرك الجرذة محاولة الهرب . بعد هنيئة يشعر بدغدغة
لزجة تلامس يده فيطبق وبسرعة يده القوية ثم يرفعها
منتصرة الى السطح وهي ممسكة بخرطوم الفريسة . كان
يكفيه جذب ذيلها بقوة لكي يحطم عمودها الفقري .

في «سان ساباس» عضت جرذة المم «راترو» . كانت
قد انقضت حينذاك أربعة أسابيع على انتهاء موسم الزراعة
بالقرية .

اعتاد العم « روفو » ، المجوز ، القول : « بعد انتهاء
عيد آخر قديس ، اجمع الشوك وازرع القمح » . وفي هذا
العام ، وكأنه شغار يجب أن يتبع ، ظهر كل حقل من حقول
القرية وبه عمود علق عليه غراب ميت . حامت أسراب

الغربان مشوشة طوال يومين بالآماكئ القريبة ثم طارت
أخيرا فى اتجاه الشمال .

كان « بيرخيليو مورانتى » ، زوج السيدة « كلو » ،
يضحك فى الحانة قائلا :

— سيشكر لنا هذا الصنيع أهالى « توريشيوريجو » .

ولكن اذا كانت الغربان قد ابتعدت عن حقول القرية .
فان المطر تأخر . ولذا فقد انبرى « الروسالينو » ، وكيل
أعمال « دون أنتيرو » ، قائلا :

— اذا لم تمطر السماء فى « سانتا ليوكاديا » فعلىنا
زراعة الأرض من جديد .

فرد عليه « البرودن » الذى تشحن المصائب قريحته ،
بأن الأذى يحقق فقط بالفقراء ، لأن من يستخدم الماكينات ،
مثلهم ، لن تكلفه اعادة الزراعة الا القليل التافه . فأطلق
السيد « روسالينو » ، الذى كانت رأسه تلامس الأفرع الأولى
لأشجار الصنوبر الثلاث ، ضحكة مدوية ، ثم قال :

— فلتلطموا الخدود اذن لأنه لا يزرع الآن سوى
المتسولين والبلهاء .

فى المساء ، أتى « البرودن » الى باب المغارة مكتئبا :
— « نينى » ، السماء لا تمطر ، ماذا نفعل ؟

— الانتظار — رد الصبى فى اتران . عندئذ طأطأ .
« البرودن » رأسه ، لأن نظرة « النينى » الهادئة كانت تربكه .

عندما عضت النار اصبع العم « راتيرو » ، فى « سان
ساباس » ، كانت تسبح فى السماء الخريفية الصافية شمس
حمراء منتفخة كمنطاد . وفوق القرية يمتزج ضباب فاتر
بدخان القش المحترق فى البيوت .

كان القطامى يرقب فوق برج الكنيسة مطوحا جناحيه
بغصبية ، دون أن يتقدم أو يتأخر .

نظر الصبى الى السماء فى اتجاه القمم العالية ثم قال :
- ستمطر غدا .

- نعم - أردف العم « راتىرو » ، ثم استوى جالسا فى المنعدر ، فتتح الخرج وأخرج نصف رغيف عليه شحم خنزير .
قسم ما معه وأعطى الصبى نصفه . قطع بعد ذلك شحم الخنزير وحمل بسن المطاوعة قطع الشحم الى فيه .
- من نشر بوجع ؟ - سأل الصبى .
نظر « الراتىرو » لأصبعه المتورمة ، وأجاب :
- لا أحس الآن بوجع .

غلب حظيرة المواشى التى يسمد منها « خوسنتيتو » ،
العمدة ، أرضه رنت جلاجل قطيع « الرايينو جراندى » .
كن « المورو » ، الكلب ، قد سبقه ووقف ينظر اليهما وهما
ياكلان محركا ذيله فى استكانة . اقترب من الكلبة فهممت
له تأسفت عن أنيابها . كان « الرايينو جراندى » يضع جلد
شاة على كتفه ، قال بعد أن نظر الى الشمس :
- ألم تعد فى السماء نقطة ماء واحدة ؟
لف سبيجارة دون انتظار لاجابة ، أشعلها ثم جذب
نفسين عييتين وظل ناظرا الى قداحته البدائية فى استياء :
- ألن يستحدثوا قانونا لدفع الضرائب على مثل هذا
الجلد ؟

لم ينظر اليه العم « راتىرو » . فأضاف « الرايينو
جراندى » :

- لو حدث هذا لألقيت به فى النهر ، ولا أبالي .
كان يدخن وهو واقف ، مستندا على عصاه ، بلا حراك ،
وعيناه تنظران الى بعيد ، كتمثال . وجلاجل النعاج ترن
حوله . سأل « الراتىرو » فجأة :
- هل رأيته ؟ مشيرا بابهامه فى اتجاه «توريشيوريجو» .

— لم أره فى عامنا هذا — رد الراعى دون أن يغير منه
وقفته .

— لقد رآه « المالبينو » — قال « الراتيرو » .

— ما تقوله غير صحيح .

— لقد رآه « المالبينو » — أصر « الراتيرو » .

فى الحانة ، كان « المالبينو » قد حذره اليوم السابق :
« حذار من هذا ، يا « راتيرو » ، فهو يأتى ليسلبك لقمة
العيش . أنت تعمل فى هذه المهنة قبل أن يولد » .

ألقى « الرايينو جراندى » ، الراعى ، بعقب السيجارة
فى النهر ثم طلب بعد تفكير :

— أعطنى جرذتين ، هيا ، ببيزيتتين الا ربعا ، حقا ؟

— بل ببيزيتتان — رد « النينى » .

— حسنا ، لكن أعطنى هذا الذكر .

نهض العم « راتيرو » ، تمطى بكسل معملقا فى النهر،
وواضعا يده امام وجهه للاحتماء من ضوء الشمس "

قال الراعى غاضبا :

— أخبرتك أننى لم أره ، يا « راتيرو » . ألا تثق فى
كلامى ؟

— لقد رآه « المالبينو » — تحدث « الراتيرو » من بين
أسنانه .

تحسس « الرايينو جراندى » صلب الجرذتين بلذة قبل
حفظهما . وعندما هم بالانصراف قال :

— أرجو أن يستقيم لك الحال .

عندما غابت الشمس وراء الأفق ، ذهب الرجل والصبي
الى القرية . كان الضباب يتكاثف فوق البيوت ، وتطلق

تحت اقدمهما الأرض المحروثة والصلبة بفعل الجفاف -
والكلبة تسير خلفهما متعبة - وقد عادت حمائم «الخوستيتو»
الى أبراجها ، ولم يبق سوى أربعة صبيان ييثون بالعابهم
الروح فى شوارع القرية الميتة - فى الحانة ، كان الوضع
مختلفا . نظرا لبعض النشاط داخلها - كان المصباح العارى
يوزع ضوءه الأصفر على الموائد - وعلى المائدة الخلفية كان
يلعب « فروتس » ، المحلف ، مباراة الدومينو التى لا تنتهى
مع « بيرخيلين مورانتى » ، زوج السيدة « كلو » ، الذى كان
يترنم بأغنية يختتم كل مقطع منها بضرب المائدة بقطعة
« دومينو » -

قال « البرودن » بمجرد أن رأى « الراتيرو » :

— « مالبينو » ، كأس من النبيذ للعم « راتيرو » -

كان حدثا غير عادى ، لما اشتهر به من بخل - لكن
« البرودن » فى تلك الليلة كانت تبدو عليه أمارات الاثارة -
أخذ « النينى » من عنقه وبدأ يشرح له فى غموض مشروع
الرى الذى تناولته الصحيفة اليومية وتقع قريتهم فى
نطاقه - قال للصبي مندفعاً ، من مكانه على المقعد الخلفى :

— ضع فى اعتبارك ، يا « نينى » ، أن الأمر سيكون
سواء : أمطرت السماء أم لم تمطر - عندما يريد « البرودن »
ماء فما عليه الا رفع محبس المياه - أفهمت ؟ سنترك العيش
كالكلاب ناظرين الى السماء اليوم بطوله -

أطبقت فترة صمت طويلة ، لم يكن يقطعها الا صوت
اصطدام قطع الدومينو بالمائدة ، مصحوبة باللحن المكرر الذى
يغنيه « بيرخيلين مورانتى » - وأخيرا ، نطق العم « روفو » ،
العجوز ، من الناصية المقابلة بصوته الجهورى :

— لو كانت المشاريع تكثر من الغلال ، لما بقى فى هذه
الساعات مكان فارغ بالشون - أطبقت فترة صمت أخرى -

نظر « البرودن » بثبات الى « النيني » ، لكن شفتا الصبي لم
تنفرجا عن كلمة .

نادى مفتاخلا رجل منكمش الكتفين من على المائدة
المجاورة :

ـ هات كأسين . قبل أن يصل الماء هيا نقضى على
النبيد .

كان الجو مظلمما خارج الحانة ، أطل قمر أخضر فاتح
وعليل من خلف ربوة « كلورادو » ثم ارتفع بفتور فوق سماء
معدنية عالية .

- ٥ -

فى « سان دامسو » أرسلت السيدة « كلو » ، صاحبة
دكان الخردوات ، فى طلب « النينى » اقتادته الى حظيرة
الخنازير :

— اختبره ، يا بنى ، أعتقد أنه نما بما فيه الكفاية .
تحسس الصبى الخنزير ثم قال :
— لم يصل بعد الى الحد المطلوب .
كانت السماء تمطر وقتذاك ولم يكن من المستطاع فعل
شئ .

فى « سان نيكاسيو » انقطع المطر ، لكن الصبى نظر الى
السماء وقال :

— اصبرى ، يا سيدة « كلو » ، مازال الجو رطباً
ينبغى الانتظار حتى تصفو السماء . منذ أن وصل « النينى »
لسن الإدراك ، عرف بأن السيدة « كاو » ، صاحبة دكان
الخردوات ، تحتل المرتبة الثالثة بين أغنياء القرية . كان
أمامها فى الترتيب « دون أنتيرو » ، الغنى ، و « دونيا ريسو » ،
الوصية الحادية عشرة . كان « دون أنتيرو » يمتلك ثلاثة
أرباع أرض القرية ، وتملك السيدة « كلو » و « دونيا ريسو » .
ثلاثة أرباع الربع الباقي ، أما الجزء المتبقى نموزع مناصفة
بين « البرودن » والثلاثين فلاحا الموجودين بالقرية . ولم
يمنع هذا « دون أنتيرو » من التباهى فى مسامراته بين
أصدقاء المدينة بأن « ما يفعله من خير لقريته يوازى التوزيع
المادل للأرض » وعلى فرض أنه كان يعتقد هذا ، فإنه لم يكن
يدخر وسعا وقت الدفاع عن ممتلكاته وفى العام الماضى رفع
دعوى ضد « الخوستيتو » ، العمدة ، لأنه لم يغلق برج
الحمام أثناء موسم الزراعة . وعند تدبر الأمر مليا يتضح

أنه لم يكن يمر عام الا ويختلق فيه « دون أنتيرو » مناجرة أو اثنتين بالقرية ، وأنه لم يذن يعمل هذا لسوء طويته ، على حد تعبير « روسالينو » وكيل أعماله ، بل لأن مواسم النساء طويلة ومملة في المدينة ولا بد من شيء يتسلى به سيد ، وعلى أية حال ، فقد كان « دون أنتيرو » يؤجر ، عندما يدخل عيد القرية السنوى ، بقرة معيبة لكي يجرى وراءها الناس ويضربوها على هواهم ، وبهذا الشكل ينفسون عن الاحتقاد والضغائن المتجمعة في الصدور طوال الاثنى عشر شهرا السابقة .

وفي تلك المناسبة ، ومنذ ثلاث سنوات ، خاد « أليسي » أن يعتمد الامور . كان من الممكن ان تقع كارته محفقه لولا تدخل « دون أنتيرو » ، الذى كان يطمح فى أن يشبع من الصبى أجيرا منقطع النظر . وتتلخص الواقعة فى ان « النينى » رق قلبه لخوار البقرة المؤثر فى الهزيع الأخير من الليل ، وعليه فقد تسلل الى حظيرة « دون أنتيرو » وأطلق سراحها . لم تفد لمحتة الانسانية الا فى القليل ، لأن السيوان عندما عاد الى الحظيرة ، بعد الامساك به صدقة خارج القرية ، كانت جبهته تنزف وقرنه مكسورا وظهره مشخنا بالجراح . ومع هذا فقد كان من الممكن أن تتأزم المسألة ، عندما اشار « ماتياس ثليمين » ، المختلس ، فى خسة قائلا : « هذا عمل لا يقوم به الا « النينى » الصعلوك » . ولحسن الحظ فقد كان « دون أنتيرو » يعرف مواهب الصبى وعلمه اللدنى فسوجه الى « الروسالينو » ، وكيل أعماله ، مستفسرا : « أليس هو « النينى » ابن « الراتيرو » ، صاحب المفارة ، هذا الذى يعرف كل شيء ويفعل كل ما يطلب منه ؟ » . « أجل ، يا سيدى » - أجاب « الروسالينو » . « اذن دعه يتشاقى واليوم الذى يبلغ فيه الرابعة عشرة أحضره الى بيتى » .

أثناء فصل الشتاء ، كانت الثلوج تسقط بغزارة ، ولم يكن « دون أنتيرو » يزور القرية الا لماما . لم تكن السيدة

« كلو » ولا « دونيا ريسو » تذهبان لأرضهما لا فى شتاء أو صيف ، لأنها كانت مؤجرة • ولكن ، بينما كانت « دونيا ريسو » تحصل ايجارها نقدا وفى موعده ، سواء أمطرت السماء أم لا ، نزلت الثلوج أو تكاثف البرد ، كانت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تقبض ايجارها قمحا أو شعيرا أو سلتا اذا كانت الأمور تسير على ما يرام ، أما اذا كانت الأمور لا تسير على ما يرام أو لا تسير ، فانها كانت تحصل ايجارها كلمات معسولة مطمئنة •

وبينما كانت الوصية الحادية عشرة لا تسمح بمناداتها الا بلقب « دونيا » ، كانت صاحبة دكان الخردوات تسمح بنطق اسمها مجردا : وبينما كانت الوصية الحادية عشرة نحيفة ، خصوما وفظة ، كانت السيدة « كلو » بدينة ، صريحة وبشوشا : وبينما كانت « دونيا ريسو » تتفادى التعامل مع الناس وتهوى النميمة ، كانت السيدة « كلو » متحدثة بارعة ، تدبر شئون الدكان والمخزن بنفسها وتتفانى فى خدمة العصفورين ، وسكنا لزوجها ، « ألبرخيليو » ، وهو فتى أشقر ، مهذب ومثقف ، أحضرته من المدينة وكان يقول عنه « المالبينو » ، صاحب الحانة ، أنه فتى غص الاهاب لم يخلع ملابس المدرسة الا حديثا •

تدخل « النيني » تدخلا مباشرا فى موضوع العصفورين اللذين أرسلتهما أختها ، « لادى ميريس » ، المتزوجة بموظف فى مصلحة التليفونات • أسكنتهما السيدة « كلو » فى قفص مذهب جميل ، به حوض للأكل مطلى باللون الأزرق ، كانت تضع فيه بذور القنب ولباب الخبز ، وفى المساء كانت تدخل فى القفص حصاة صغيرة مكسوة بالقطن حتى لا يفقد العصفوران الدفء الأموى • وبعد أن شبا عن الطوق ، كانت السيدة « كلو » تمسك بورقة من الخس بيد وتدخلها بين قضبان القفص وباليدين الأخرى حجرا من الكلس ، الورقة لكى لا يحدث للعصفورين امساك والحجر لكى يشحذا

منقاريهما فيه - فى خلوتها معهما ، كانت تتحدث اليهما
 بنبرة صدق كما كانت توبخهما بلطف كلما سنحت الفرصة .
 من شدة العناية بهما وصل العصفوران الى حد اعتبارها اما
 حقيقية لهما ، وفى كل مرة كانت تقترب من القفص من
 الذكر ينفش ريشه ويظهر حوصلته الوردية الفاتحة كما لو
 كان يتهايا لضمها الى صدره - وهى بكلام معسول : « لنرى
 من الأول الذى سيعطينى قبلة ؟ » . ويحدث هرج ومرج بين
 العصفورين . يحاول كل منهما أن يكون الأول الذى يضع
 منقاره الصغير بين شفتيها السميكتين . وتحذرهما السيدة
 « كلو » اذا تشاجرا معا : « لا ، يا صفارى ، أتسمعان ؟
 يا صفارى ، لا » .

فى « سان فيلبكس » ومنذ أربعة أعوام ، أهدي «النينى»
 للسيدة « كلو » عشا فارغا للعصافير ، منبها اياها بأن
 العصافير تتكاثر وهى غير مكشوفة فأضاء وجهها بالسرور كما
 لو كان يخبرها بأنها ستكون جدة . وفعلا ، فعندما استيقظت
 السيدة « كلو » ذات صباح لاحظت أن الأثنى ترقد فوق العش
 ولم تحضر لاعطائها القبلة المعتادة عندما تقترب من القفص .

لم تغير العصفورة من مرقدها طوال فترة الحضانة ، وبعد
 عدة أيام ظهرت فى العش خمسة عصافير وردية فأسرعت
 السيدة « كلو » ، بقلب مفعم ، الى الشارع وأعلنت الخبر لكل
 من قابلها . لكن فرحتها لم تدم كثيرا ، فبعد ساعات قليلة
 مات زوج من العصافير وبدأ الآخرون فى فتح مناقيرهم
 وضمها كما لو كان ينقصهم الهواء . أرسلت فى طلب
 « النينى » ، وبالرغم من مراقبة الصبى المتأنية فى الساعات
 التالية ، واجتهاده فى تقديم ثمرات برية وحبوب من مختلف
 الأنواع للعصافير ، الا أنهم فارقوا الحياة صبيحة اليوم التالى
 والسيدة « كلو » مغتمة ، رحلت الى المدينة ، عند أختها ،
 لتحاول النسيان .

عندما عادت بعد اثني عشر يوما ، لاحظ « النيني » ،
الذي كان الى جوار « لاسابينا » المكلفة برعاية الدكان ، أن
عينى السيدة « كلو » تتألقان كعينى تلميذة فى مدرسة
ثانوية . تحدثت الى « لاسابينا » متعجلة : « فى « سان أمانثيو »
أنت مدعوة لحفل زفافى ، المريس يسمى « بيرخيليو مورانتى » .
وهو فتى أشقر وعيناه زرقاوان كحلية صغيرة » .

عندما قدم « انبرخيليو مورانتى » الى القرية ، شابا
صغيرا غضض الاهداب ، كان الفلاحون ينظرون اليه بازدراء
وأخذ « المالبينو » يستظرف فى الحانة قائلا أن الفتى لم ينلع
ملابس المدرسة الا حديثا . لكن منذ أن تناول « البيرخيليو »
كأسين من الشراب وعزف مقطوعة موسيقية أبدت السم
« روفو » ، العجوز ، عم التقدير والاحترام بين الجميع ،
وهكذا فما من مرة يروونه فيها الا ويقولون :

— هيا « بيرخيليو » ، أيها الفتى ، اعزف لنا قليلا .

فيحقق رغبتهم أو يرد :

• اليوم لا أستطيع — اعذرونى ، صوتى مبجوح

وخلال الاحتفال بالأضحية ، فقدت الثرثرة معناها فى
بيت السيدة « كلو » . كان الناس يحضرون هناك مدفوعين
بالرغبة فى سماع « البيرخيليو » وهو يفتى . حتى « النيني » ،
الذى تولى مهمة الذبح بعد موت جدته ، كان يشمعر
بالتضاؤل .

صفت السماء فى « سان ألبينو » فهبط « النيني » الى
القرية وأخذ خنزير السيدة « كلو » وتمشى به لمدة ساعة
ثم وصف له الماء والنخالة . بعد يومين سقطت على القرية
ثلوج قاسية .

فى مثل هذا الوقت تكون طيور الزرزور قد غرت
ريشها ، ويأتى الشتاء الذى تلمع فيه الأرض من الصقيع .

وتصبح صلبة كالجرانيت كما يتحول ماء النهر الى ثلج ، وكل صباح تنهض القرية متناقلة فى جو من الزجاج ، حيث تقرقع أدنى ضوضاء مثل ضربة سوط .

حينما وصل « الراترو » و « النيني » الى دار السيدة « كلو » ، كانت الجلبة تصدر منها وكان اليوم عيد - لصد حضر من المدينة أبناء الأخت ، وكان هناك ايضا « لاساينا » و « البرودن » وابنهما ، « الماميريتو » ، والسيدة « ليرادا » ، و « الخوستيتو » ، العمدة ، و « الخوسيه لويس » ، المحضر ، و « الروسالينو » ، الوكيل ، و « المالبينو » ، و « المامس » ، الأخرس ، و « الانتوليانو » ، والسيد « رونو » ، العجوز ، وابنته « لا سيميونا » ، عندما دخلا كان « البيرخيليو » يعزف منفلا وكلهم فاغرو الأفواه ، وبعد أن انتهى صمتوا له و « البيرخيليو » لكى يدارى ارتبائه ، وزع على الحاضرين قطعا من الخبز المحمص وعددا من كئوس النبيذ . كانت النار تخرج كثيرا من الشرر وعلى المائدة والأرفف كانت السيدة « كلو » قد وضعت ، بالترتيب ، البصل ، ولباب الخبز ، والأرز والسكر لعمل السجق .

وبجانب الفرن صفت السكاكين حسب أحجامها ، كما كانت توجد جفنة كبيرة ، ثلاث من الأواني الخشبية وغلاية نحاسية لازابة الدهن .

فى الحظيرة ، خلع الرجال ستراتهم الصوفية وشسروا عن سواعدهم برغم الصقيع وتجمد الهواء بمجرد خروجه من الأفواه . كان العجوز يجرجر قدميه بثقال وسط المجموعة وقبأة فرك يدا بأخرى ثم قال : « يوم الثلاثاء لا تزوج ابنا ولا تدبح خنزيرا » . نظرت اليه السيدة « كلو » محتدة بعد أن سمعته : « دعك من النصائح . اذا لم يعجبك هذا فأرحنا من وجودك » . ثم اتجهت الى زوجها ، الذى شمر قميصه مثل الآخرين فأبان عن ذراعين أبيضين أمردين ، وقالت له : « أنت لا ، يا بيرخيليو ، يمكن أن تصاب بالبرد » .

فتح « الانتوليانو » الحظيرة فاطل منها الخنزير وعندئذ قبض على أذنه بيد من حديد وطرحه أرضاً ، بمساعدة « المالبينو » ، « البرودن » و « الخوسيه لويس » . بعد أن رأى الأولاد الخنزير - الذى كان يصرخ صرخات تشكى كل واحدة منها سحابة من البخار حول فمه - مستلقيا على الأرض ، تجاسروا وبدعوا فى جذب ذيله وتسديد الركلات الى بطنه . بعد ذلك ، تعاون ستة من الرجال على تمديد الخنزير فوق المقعد وفحصه « النيني » ثم رسم علامة الصليب فوق قلبه بقطعة من الجص وعندما سدد العم « راتيرو » سكينه بنفس الثبات الذى يغرس به سيخ الحديد فى النهر ، أعطى للصبي ظهره وبدأ فى عد الهمهمات ، واحدة بعد أخرى ، حتى ثلاثة . وسرعان ما صاح « البرودن » :

— لقد مات !

التفت « النيني » حينئذ ، اقترب من الخنزير ، وبأصبع مدربة ، وضع ورقة كرنب فى الثقب المفتوح فى الرقبة لكى يمنع نزيف الدم ، وأخيراً فتح فم الحيوان ووضع حجراً بداخله .

كان الرجال يتحلقون حوله بينما كانت النساء تتهاشم فى الخلف . سمع صوت « لاساينا » الخافت :

— يا له من صبي ! كل مرة أراه فيها أتخيل المسيح بين حواريه .

اجتهد « النيني » فى ألا يتذكر جدته « الومينادا » حتى لا يرتكب أخطاء . غلف بمهارة جثة الحيوان بقش السلست وأشعل فيه النار ، أخذ جذوة مشتعلة وكوى بعناية الفجوات الموجودة تحت الابطلين ، الحوافر والأذنين . ارتفعت رائحة الحريق وعندما خمدت النار قام « المامير تيتو » ، صبي « البرودن » ، وأبناء أخت السيدة « كلو » بتقليم أظافر الحيوان وأكلوا الكعوب .

وجاءت اللحظة الحاسمة ، لا لأن سلخ الخنزير كان مهمة صعبة في حد ذاته ، بل لأن الظرف كان يحتم الرجوع بالذاكرة الى ما كانت تفعله الجدة « الومينادا » . ارتعشت قليلا يد « النيني » التي كانت تحمل السكين عندما صاح من خلفه « المالبينو » :

— حذار ، سكين جدتك في مثل هذا الظرف لم تكن تخرج روئا أبدا !

رسم الصبي ذهنيا خطا متساوي الأبعاد للضرع ثم شق من منتصف زاوية اللغد وحتى الشرج دون تردد . بعد أن جزأ ، بعد ذلك ، نسيج الأمعاء بطعنة سكين ماهرة تعالت حوله صيحات الاعجاب . خرجت رائحة نتنة قوية تصيب الرأس بالدوار من الأمعاء التي أفرغها « النيني » في الأواني الخشبية ، ولكي ينجز عمله أدخل في الفتحة خابورين ليصنع منهما اسفينا . ثم عاونه كل من « الأنثوليانو » و « المالبينو » في تعليق الخنزير من رجلية الخلفيتين .

سال من فم الخنزير خيط رفيع من الدم مكونا بركة صغيرة حمراء فوق أرضية الحظيرة الباردة .

اقتربت السيدة « كلو » من « النيني » الذي كان يغسل يديه في إحدى الأواني ، وقالت له بحرارة :

— تعمل ، يا بني ، بسرعة ومهارة تفوقان جدتك .

جفف « النيني » يديه في سرواله . ثم سأل :

— هل تريدان تقسيمه أرباعا ؟

أخذت بكل يد سطلا ، ثم قالت :

— دع هذا لي .

اتجهت نحو البيت الذي دخل فيه الرجال منذ قليل وصاحت من على الباب ، مميلة رأسها بعض الشيء :

- ٦ -

لكن « التينى » كان يضحك كثيرا بالرغم من انه لم يكن يفعل هذا سفاهة أو عتها كما يفعل الرجال خلال الاحتفال بالأضحية ، أو عندما يسكرون فى حانة « المالبينو » ، أو عند رؤية المطر بعد انتظاره بفارغ الصبر طوال اشهر . ولم يكن يضحك أيضا مثل « ماتياس ثليمين » . المختلس . كل مرة يتجه فيها اليه ، ثانيا جلده المدبوغ كجلد فيل الف ننية وكاشفا عن أسنانه المفترسة . لم يكن التينى يتسعر بأدنى ميل تجاه المختلس . فالصبي كان يكره الموت فى كل صورة ، وخاصة الموت الغادر وغير المسبب ، على خلاف المختلس الذى كان يفخر بأنه فارس لا يشق له غبار فى هذا المجال . حقيقة أن الظروف هى التى دفعت بالمختلس للوصول الى تلك الحال . قبل الحرب الأهلية اجتهد فى اخفاء غرائزه العدوانية التى حاولت الطفو على السطح فى بعض المواقف . لكن الحرب جذعت كثيرا من الميول وجففت الكثير من الأحاسيس وحددت العديد من المصائر ، ومن بينها مصير « ماتياس ثليمين » .

قبل الحرب ، كان « ماتياس ثليمين » يذهب الى مزادات القرى المجاورة ويكسب دون بذل الكثير من الجهد أربعة أو خمسة آلاف ريال (١) . كان يستطيع أن يضع فى رأسه حتى رقم خمسة آلاف ريال وأن يجمع وي طرح منها أتعاب الغير لكى يعرف بالضبط المبلغ الذى سيربحه . وبقدوم

(١) الريال . عملة اسبانية تديم : انتهى العمل بها وبعمل الآن بالبريرة . والبريرة تسمى أربعة ريالات - (المترجم) .

الحرب بدا الناس يتعاملون بالبيزيتة وتصل الارقام في المزايدات الى ثلاثين ألفا وهو شيء لم يتعود عليه ، وما زاد الطين بلة أنه كان لزاما عليه ضرب هذه الأرقام الكبيرة في أربعة كى يحولها الى ريات ، الوحدة النقدية التي يمرقها . ومنذ ذلك الحين أخذ ينكمش ويخاف الى أن حدثته نفسه ذات يوم : « ماتياس ، ثمن الحجل مائة ريال صافية والثعلب أربعمئة والزبب فوق هذا بكثير » . كما أحس في نفسه القدرة على حساب سعر الخرطوشة عند تصنيع البارود في البيت ، عن طريق خلط السكر بالكلورات وتعبئتها برؤوس المسامير .

ومنذ ذلك الحين أصبحت نظيرته مسنونة وجلدته كالمذبوغ ، وما ورد ذكره على لسان أحد في القرية الا ورد المستمع قائلا : « آه ، هذا » . لكن « دونيا ريسو » كانت أكثر حسما عندما وصفته بمتشرد وشرير وضائع مثل سكان المغارات ورجال اقليم « اكستريما دورا » .

اعتاد « ماتياس ثليمين » السهر بالليل والنوم طوال النهار . كان الصباح يطلع عليه عادة وهو في القفار أو الجبل بعد أن يكون قد انتهى من نصب عدة فخاخ للآرانب البرية عند عودتها من الحقول ، وفخا للثعلب وكمية من الالواح الحجرية في طريق الجبلان . كما كان يستفيد أحيانا من عربة « لاسيميونا » الكارو أو عربة « دون أنتيرو » ، الفوردهش ، للاقتراب من أسراب الحبارى أو لصيد زوج من الحمام البرية . لم يكن المختلس يحترم لوائح أو قانونا فقد كان يخرج الى الحقول في الربيع والصيف وبندقيته على كتفه وكأنه لا يوجد حظر ، وإذا حدث وقابله مصادفة « فروتس » ، المحلف ، يبادر بقوله : « أنا ذاهب لصيد الوحوش الكواسر » . ويقتصر رد « فروتس » على : « معلوم » ، ويغمز له بعينه . يعتقد « فروتس » ، المحلف ، أن الخلاء غير صحي لأن الشمس تأكل صحة الرجال كما تأكل ألوان

ملابس الفتيات ، ولهذا السبب ، فقد كان يقضى أوقات فراغه فى حانة « المالبينو » يلعب الدومينو .

كثيرا ما كان دهاء المختلس لا يسعفه ، وعندئذ ، يلجأ للصبي :

– « نينى » ، أيها الصعلوك ، دلنى على مكان الزيزب وسأعطيك خمس بيزيتات ان أصبت .

أو :

– « نينى » ، أيها الصعلوك ، لم تقع عينى منذ أسبوع على الثعلب . هل رأيته ؟

فيهز « النينى » كتفيه دون أن ينبس ببنت شفة . وعندئذ يهزه المختلس بعنف قائلا :

– يا لك من شيطان صغير ! ألم يعلمك أحد كيف تضحك ؟

لكن النينى كان يعرف الضحك بالرغم من أنه تعودده عندما يكون بمفرده ومدفوعا بسبب . عند حلول موسم تلاقح الحيوانات ، كان الصبي يصعد ليلا الى الجبل ، ومع الفجر ، عندما كانت تمشط نسيمات الصباح الأولى عيذان القمح الخضراء ، كان « النينى » يقلد الصوت الخشن للأرانب البرية فتأتى الحيوانات من الحقول ملبية النداء ، بينما يكون المختلس ، على الجانب الآخر من المرتفع ، يسب ويلعن لانتظاره العقيم . عندئذ كان الصبي يضحك بدهاء ثم يعاود الضحك بكل كيانه عندما يصطنع اللقاء ، عند عودته ، بالمختلس الذى كان يسأله عكر المزاج :

– من أين أنت قادم ، أيها الصعلوك ؟

– كنت أجمع بعض النباتات . هل اصطدت شيئا ؟

– لا شيء . أرنبه برية كانت تنادى من الجانب الآخر

فهرع على ناداتها كل من كان بالحقول . تم يلتفت اليه فجأة ، متشككا :

— ألا تعرف تقليد صوت الأرانب البرية ، يا « نينى » ؟

— لا . لماذا ؟

— أبدا .

وفى مواقف أخرى ، كان المختلس يخرج ومعه « لاميتا » ، الكلبة ، فيختبئ « النينى » ، وعندما تضل الكلبة ، لاهثة وراء الأرنب البرى ، يخرج من مكانه ويخوفها بعصا والكلبة ، التى كانت جبانة مثل بقية كلاب الصيد ، تترك غريستها وتعود ادراجها . عندئذ ، كان « النينى » يضحك أيضا بينه وبين نفسه .

على أية حال ، كان « النينى » يعرف كيف يضحك دون الحاجة الى سخرية المختلس . خلال ليالى الربيع القمرية ، كان يروق للصبى الذهاب الى الحقول والاختباء بين نبات الأسفل الموجود على الشاطئ ، لرؤية الثعلب وهو يهبط من المرج للاستحمام فى النهر ، منتهزا فرصة تمام القمر الذى ينمر المنطفة بضوء فوسفورى لبنى . كان الثعلب يتصرف بتلقائية دون أن يشعر بوجوده . كان يرمى بقناعة حشائش الشاطئ القليلة ، وبين الفينة والفينة ، يرفع رأسه الجميل وينصت منتبها لبعض الوقت . كثيرا ما كان ضوء القمر يسقط على عينيه اللوزيتين فيصدر منهما بريق أخضر فاتح ، وفى تلك الأحوال ، كان يبدو الحيوان وكأنه كائن لا ينتسب لهذا العالم .

ذات مرة ، خرج « النينى » من مكانه وصاح بينما كان الثعلب يهرش ، وهو مقمى فى المرج ، جسده بقدمه مطمئنا ، ففزع الحيوان قفزة هائلة مبعثرا بذيله بسنونه السكرية الرائحة . جلجلت ضحكات الصبى بينما كان يجرى وراءه بين نباتات الأسفل وفى الأراضى المزروعة .

فى لىال اخرى كان «النينى» يختبئ وراء نجيرة بلوط ،
فى مكان مكشوف بالجبل ، ويلأحظ الارانب ، التى يغمرها
ضوء القمر ، وهى تركض وتلعب بين الأعشاب رافعة اذيالها
البيضاء . من حين لآخر كانت تظهر بنات عرس وتختفى فى
سرعة البرق . فى موسم التزاوج ، كانت ذكور الارانب
البرية تتقاتل بشراسة أمام عينيه بينما كانت الانثى تقمى
بهدهوء فى مكان مكشوف منتظرة المنتصر . وبعد أن تنتهى
المعركة ويتجه المنتصر نحو الانثى المنتظرة يصدر « النينى »
صوتا مميزا فيلتفت الحيوان ، ويداه مرتفعتان ، فى انتظار
غريم آخر .

فى بعض النليالى كان يصل عدد المجتمعين الى نصف
دسته من الذكور ، وفى تلك الأحوال كانت المعركة تأخذ
طابعا ملحيميا . ذات مرة ، رأى « النينى » ، تحت ضوء القمر
الفضى ، ذكرا ينتزع آذن آخر بقضمة شرسة فصدرت عن
الحيوان الجريح أنات حادة هزت أركان الصمت فى الجبل .
فى « سان اخنيو » اصطاد « ماتياس ثليمين » ثعلبة
لا مثيل لها . فى هذا التاريخ تكون الأضحيات قد انتهت
ومضت أعياد الفصح ، لكن الجو يظل قاسيا وفى الصباح
تبدو الأرض بيضاء وكأن الثلوج تغمرها . علاوة على
تجريف السبخ من تحت المواشى وإزالة الحشائش الضارة من
بين المزروعات ، فلا يوجد لأحد ما يفعله فى الحقول باستثناء
المختلس . وبعد أن هبط هذا من القفار ، صبيحة ذلك
اليوم ، غير طريقه المعتاد ليمر بالقرب من المفارة بهدف
اطلاع الصبى على فريسته :

— « نينى » ! — صاح — « نينى » ! أيها الصعلوك ،
أرأيت ما أخضرت !

كانت ثعلبة جميلة ، جلدها ضارب الى الحمرة . وعلى
لوحتها الأيمن شامة غير مألوفة .

ضغط المختلس على تدى من ائدائها فخرج منه سائل
أبيض لزج . رفع الحيوان بعد ذلك لكى يتأمله الصبى :
— أنثى ونفساء — قال — . ثروة كبيرة ! اذا لم يفتش
« الخوستيتو » جيبه كما ينبغى ، فسأذهب بها الى المدينة ،
سترى .

تركت الهوام الجسد الميت وبحثت عن الدفء فى يد
المختلس . تعقب « النينى » الرجل بعينييه ، رآه يعبر قطرة
الألواح الخشبية ، والثعلبة فى يده ، ثم تابعه وهو يختفى
وراء مخزن التبن العمومى دون أن يكف عن الصياح .

عندما حل المساء ، وبمجرد أن أحس بنوم العم « راترو »
نهض من فراشه وسلك طريق الجبل . كانت الكلبة تتب الى
جواره والصقيع يلعب حواليه تحت فلقة القمر الهزيلة . أخذ
الصبى مكانا خلف شجرة بلوط أمام فتحة الجحر وتكومت
الكلبة مطيعة تحت ساقيه . كان الصقيع يعرض ، بأسنان
حاددة صغيرة ، أطراف أصابعه وأذنيه ، بينما كانت طيور
الرعاة ترقرق بأجنحتها فوقه ، قريبة جدا من رأسه . بعد
قليل أحس بعواء ، كانت أنة حادة مثل أنة أرنب برى ،
ولكنها طويلة محزنة . طوى الصبى طرف لسانه وصفر
عدة مرات ، بمهارة فائقة . بعد ثلاث صفرات برز من
فوهة الجحر ، تحت ضوء القمر السقيم ، ثعلب صغير
لا يتعدى الأسبوعين من العمر ، يمشى بحركات خرقاء وكان
ذيله الطويل يعوق تحركاته .

وبمرور بضعة أيام تعود الثعلب الصغير الحياة بينهم .
فى الليالى الأولى كان يبكى فتزمر له الكلبة فى مزيج من
خصومة أبدية وحماسة أسرية ، لكنهما سرعان ما أصبحا
صديقين حميمين . كانا ينامان معا فى حجر الصبى ، فوق
القش ، وفى الصباح يتشاجران بود فى رقعة الأرض الصغيرة
المليئة بنبات السعتر والمؤدية الى باب المغارة .

وبسرعة طار الخبر لكل انحاء القرية وتوافد الناس
لرؤية الثعلب، الذى كان يسترد غريزته المفتوسة فى محضر
الغرباء وينزوى فى ركن مظلم وينظر اليهم مكشرا عن
أنياه • كان « ماتياس ثليمين » يقول :

— يا له من صنيع ، أيها الصعلوك ! لن يفلت من يدي •

بعد أسبوعين فقط كان الثعلب يأكل من يد « النيني » ،
ويستقبله عند عودته من صيد الفئران لاعقا ساقيه المتسختين
ومحركا ذيله بفرحة غامرة • وفى المساء ، بينما كان العم
« راترو » يطبخ البطاطس مع حسك البكالو ، كان الصبى
والكلبة والثعلب يلهون فى ضوء الموقد ، وفى مثل هذه
الحالات كان « النيني » يضحك بصوت مسموع •

كل صباح ، وبالرغم من أن الثعلب كان يأكل كل مايقدم
له الا أن « النيني » كان يحضر له عققا ليكرم وفادته وعند
رؤيته وهو ينتزع ريش الطائر بضمه الحاد الرطب ، كان
الصبى يبتسم راضيا •

قالت « لا سيميونا » للوصية الحادية عشرة ، معلقة على
ما يجرى فى المغارة :

— أول مرة فى حياتى أرى ثعلبا يتحول الى العيش
كبنى البشر •

فتقطب « دونيا ريسو » حاجبيها :

— تريدن أن تقولى انه لأول مرة تشاهدين رجلا وصبيا
يتحولان الى العيش كالثعالب •

كان « النيني » يخاف أن يلبي الثعلب نداء الطبيعة
عندما يكبر ويتركه ، وان كان الى الآن لا يكاد يفارق المغارة ،
وفى كل مرة يخرج فيها الصبى ، كان يعطيه بعض الارشادات
والثعلب ينظر اليه بعينه اللوزيتين ، وكأنه يفهمه •

ذات صباح ، سمع الصبى ، بينما كان يصطاد فى النهر ،
 طلقة عيار نارى • جرى ، كالمجنون ، ناحية المغارة وقبل أن
 يصل لمح المختلس يهبط المنحدر بخطوات واسعة ، يقهقه
 ويده خلف ظهره :

— خا ، خا ، خا ، « نينى » ، أيها الصعلوك ، أتدرى
 ما أحضرت اليوم لك ؟ بالطبع لا !

كان الصبى ينظر فزعا الى يده التى أخذت فى الظهور
 شيئا فشيئا ، وأخيرا ، أطلقه « ماتياس ثليمين » على جثة
 الثعلب التى لا تزال ساخنة •

لم تطرف للصبى عين ، لكن بعد أن جرى المختلس هابطا
 المنحدر ، انحنى على الحصى وشرع فى قذفه مهتاجا • كان
 المختلس يقفز مترنحا ، كحيوان جريح ، دون أن يكف عن
 الضحك ، ويلوح فى الهواء بجثة الثعلب ، وكأنها نيشان •
 وقبل أن يختفى ، أخيرا ، وراء مخزن التبن العمومى ، رفع
 له الجثة مرة أخرى على ماسورتى البندقية •

- ٧ -

كلما أوغل الشتاء فى التقدم يتناقص محتوى مخزن
التبن العمومى . كان رجال القرية ونساؤها يأتون بحميرهم
ويحملون التبن والقش الى بيوتهم ثم يخلطونه بالحبوب
ويملفون به الماشية ، أو يضمونه تحت البهائم فى الحظائر
ليتحول الى سماد بعد ذلك ، أو يحرقونه فى المطابخ للاحتماء
من البرد .

وهكذا فعندما ينتهى شهر ديسمبر ، كان « النينى »
يرى من المغارة ، التى تشرف على المخزن من عل ، الساحة
المهجورة التى كانت مخصصة فى الماضى لانعمال الخيول
بالحدوات الحديدية .

فى « سان أبيريكو » ، وقبل أن ينقضى يناير انفلت
عيار العاصفة الثلجية . رآها « النينى » . قادمة من بين
قمتى « الشاتو » و « كنتامانياس » ، سوداء مهيبه ، تجرجر
أذيالها فوق التلال . خلال ساعات قليلة غطت السحابة
المنطقة ورشقتها بالثلج .

أصبحت القمم العالية ، التى تناطح السماء الرصاصية ،
مثل كتبان من السكر ، شديدة البياض واللمعان .

فى المساء ، اشتدت الريح فبدا الثلج ، فى ضوء أربعة
المصابيح المحتضرة للقرية ، وكأنه قادم من جهة الأرض ومن
ناحية السماء .

كان « النينى » يلاحظ المشهد المروع فى صمت . خلف
الصبى ، كان العم « راترو » قابعا فى المغارة ، مسترخيا

أمام النار وعند تغذيتها بحطب جديد أو جمع جذواتها كان يحرك شفتيه ويبتسم . نادرا ما كان يخرج ليطوف بالقمم التي الهبتها العاصفة الثلجية بسياطها ، وفي تلك الاحوال ، كان يربط قبعته المتسخة بحبل ، مثلما كان يفعل اثناء هبوب رياح الشمال الشديدة ، ويمرر طرفه تحت ذقنه كما كان يفعل الجد « رومان » قديما .

لدى ينمذ العم « راترو » من اشغال النار داخل المغارة أحدث فتحة في سقفها الترايبى السميكة بماسورة صدئة أحضرها له « روسالينو » ، الوكيل - حذره « الروسالينو » وقتها قائلا : « انتبه ، يا راترو ، فقد تسقط المغارة وتدفن فيها » . لكنه تصرف بحنكة عند خرق السقف الذي لم يحدث به الا صدع صغير اجتهد « الراترو » في معالجته بدعامة بدائية . والآن ، يخرج من الماسورة الصدئة دخان يتلوى بين العاصفة الثلجية ، والعم « راترو » قابعا بالداخل منكمشا من البرودة ، يتأمل السنة اللهب العدوانية المتقلبة . كانت الكلبة تجثم بالقرب من النار وترسل ، بين الفينة والفينة ، بشخير منطفيء . عندما يتقدم الليل ، يطفىء العم « راترو » النار تاركا جذوتها وعلى حرارتها ينام الثلاثة فوق القش ، الصبي في حضن الرجل ، والكلبة في حضن الصبي ، ووقت أن كان الثعلب موجودا كان ينام في حضن الكلبة .

لم يكن « الخوسيه لويس » ، المحضر ، يتورع عن الانذار دون مقدمات بكارثة : « راترو ، يمكن أن يشتعل القش وأنتم نائمون وساعتها ستسلقون كالأرانب » . كان العم راترو يسمع بينما تغلو شفتيه ابتسامة مأكرة ، متشككة ، لأنه يعلم أن النار صديقه ولا يمكن أن تغدر به ، وأن « الخوسيه لويس » يتحدث بلسان العمدة الذي أخذ على نفسه عهدا أمام رئيسه بالقضاء على وصمة المغارات .

.. في مثل تلك الظروف ، كان « التيني » يحترم صمت « الراترو » . فقد كان يعلم أن أية محاولة للجديث معه لن

تعود بطائل ، لا لأنه مشاحس ، بل لمجرد أن نطق أكثر من أربع كلمات أو الربط بين فكرتين في جملة واحدة كان كافيا لانهك عقله . وقد اختار الصبي اسم « فا » للكلبة بالرغم من تفضيله لأسماء أخرى أكثر جاذبية حتى يوفر على « الراتيرو » الجهد . فقط عندما كان « الراتيرو » يفك وثاق جملة يتيمة بقصد آفاقة لسانه من الخدر كان الصبي يجاريه :

— لقد أصبحت الكلبة عجوزا .

— لهذا تعرف .

— لا تتصرف كما ينبغي أثناء الصيد .

— لا تشغل بالك . مازالت قادرة على الإمساك بالفئران .

ويخيم الصمت مرة أخرى ليمتزج الضوضاء الخافتة للعاصفة الثلجية فوق القمة وعواء الريح بقرعقات النار .

في صبيحة اليوم الثالث بعد « سان أپريكو » ، أطل النيني من المغارة فلمح هيكلا بشريا مقوسا يعبر البيدر ، في طريقه الى القنطرة :

— « الأنطوليانو » — قال .

تسلي برؤيته وهو يقاوم الريح التي كانت تصوب حبيبات الثلج الى وجهة وتجبره على لي عنقه في الاتجاه المضاد . انتصب عندما دخل المغارة ، ملأ رئيته بالهواء ونفض الثلج بيديه الكبيرتين . قال « الراتيرو » ، دون أن يترك مكانه بجانب النار :

— الى أين أنت ذاهب مع كل هذا الثلج ؟

— انى قادم — أجاب « الأنطوليانو » ، ثم استوى جالسا بجوار الكلبة ، التي نهضت وبحشت عن ركن مظلم ، حتى لا يضايقها أحد .

— ما وراءك ؟

مد « الأنتوليانو » يده امام النار تم قال :

— « الخوستيتو » ، العمدة ، سيطرذك من المغارة .

— مرة ثانية ؟

— بمجرد أن يصفو الجو سيأتى اليك ، لقد حذرتك -

هز « الراتيرو » كتفيه :

— المغارة ملكى .

كان « الخوستيتو » ، العمدة ، يزور بصفة مستمرة « فيتو سولورثانو » ، المحافظ ، فى المدينة ، ويناديه بكلمة يا ريس . فإرد عليه « فيتو » :

— خوستو، يوم أن تنتهى من موضوع المغارات أخبرنى -

ضع فى اعتبارك أن الذى يحدثك ليس « فيتو سولورثانو » بل المحافظ نفسه .

تعرف « خوستو فادريكى » على « فيتو سولورثانو » أثناء الحرب الأهلية عندما كانا يحاربان جنبا الى جنب وأصبعا صديقين . لكن ، الآن ، ما من مرة يواجه فيها « فيتو » « خوستو » ويطلب منه ضرورة الاسراع فى حل موضوع المغارات الشائكة ، الا وتضيق جبهة الأخير وتتحول الى اللون البنفسجى وتخفق ، خفقات ضعيفة ، مثل قلبه صغير :

— دع الأمر لى، يا ريس .

وبعد العودة الى القرية يسأل العمدة « خوسيه لويس » المحضر ، باهتمام :

— أتعرف ما يعنيه الرئيس بقوله : ضع فى اعتبارك أن

الذى يحدثك ليس « فيتو سولورثانو » ولا رئيسك ، بل المحافظ نفسه ؟

فإرد « الخوسيه لويس » بثبات :

— انه سيكافئك ، هذا واضح للعيان .

ولكن امراته ، لاجولومبا ، كانت تضايقه في البيت :
— خوستو — تقول له — ، ألن نخرج طوال حياتنا من
هذا الجحر اللعين ؟

وعندئذ كانت جبهة « الخوستيتو » تحمر وتتسع بينما
يرد عليها :

— وما الذى يمكن عمله ؟

فتضع « لاجولومبا » يدها على خصرتها وتصيح :
— تخرج هذا البائس من مغارته ! السلطة فى يدك .
لكن « خوستو » كان يمقت العنف بطبيعته . فقد كان
يعرف أنه يرتد على صاحبه طال الزمان أم قصر .
ومع ذلك ، فقد أتاح له « الخوسيه لويس » الفرصة فى
« سان ليسمس » عندما قال له :

— المغارة على وشك السقوط ، وبالتالى فان طردك
للراتيرو سيكون من أجل مصلحته . هدم ثلاث المغارات
الأخرى كان مسألة هينة . فقد ماتت « لا الومينادا » و « رومان »
فى يرم واحد ، وغادر « الالبونديو » القرية دون ان يترك
عنوانا . « لاسجراريو » ، الفجرية و « المامس » ، الأخرس ،
كانا سعيدى الحظ بعد تغيير مغارتيهما ببيتين فى البيدر
القديم . بكل منهما ثلاث غرف ومشمسان نظير ايجار شهري
قدره مائة بيزيطة . لكن الأربعمئة ريال مازال يعتبرها الدم
« راتيرو » ثروة طائلة .

انتهت العاصفة الثلجية فى « سان سيبيرو » ونزل
الضباب . ضباب ساكن ، عتيد ولزج ، يغمر المنطقة بأصداء
غريبة ، وفى الهزيع الأخير من الليل ، يزيد من عتمة الصمت
المعذب للأرض المقفرة . لكنه (١) كان يرى ، أحيانا أخرى ،

(١) يقصد الضباب - (المقترح) .

وهو يمضى بين القمم خشب ، شفافا وثغينا على التوالي ،
ليجعل من دوران الأرض واقعا ملموسا . تحت الضباب ،
كانت العقاقير تطير متباعدة وتنطق بصوت غير منسجم ، خليط
من الغيظ والدهشة . وتبدو القرية ، عند النظر إليها من
المفارة ، مثل ديكور باهت سرعان ما يتلاشى تحت ضباب
الفسق .

فى « سان أندريس » صفا الجو فظهرت الحقول فجأة
وعليها غلال مترعة ، القمح بلون أخضر خفيف ، نصف
شفاف ، بينما كان الشجر يشكل بساطا كثيفا من الخضرة
الداكنة . تحت شمس شتوية شاحبة كانت الطيور تتمطى
مندehشة وتنظر حوالها غير مصدقة ، قبل أن تطير نحو
السماء . ومعها كان يتمطى أيضا كل من « الخوستيتو » ،
العمدة ، « الخوسيه لويس » ، المحضر ، و « الفروتس » ،
المحلف ، والذي كان يتولى مهمة مبلغ الأوامر فى بعض
الأحيان . عندما رآهم « النينى » يعبرون قنطرة الألواح
الخشبية ، مهيبي الطلبة ويمشون بحذر داخل حللمهم المخصصة
للمناسبات ، تذكر المرة التى عبرت فيها مجموعة سوداوية ،
يرأسها رجل فى ملابس الحداد ، القنطرة لحمل والدته الى
مستشفى الأمراض العقلية بالمدينة . كان الرجل ذو الرداء
الحدادى ينطق بتفخيم كبير عبارة « معهد الصحة النفسى »
بدلا من مستشفى الأمراض العقلية ، لكن ، لا بهذه أو
بتلك (٢) استردت أمه ، « لا مارثيلا » عقلها ولا حريتها -

رآهم « النينى » يصعدون المنحدر لاهئين أثناء مداعبته
بحركة آلية لشعر الكلبة المطوية تحت قدميه . كانت قيعه
« فروتس » السوداء تلمع وكأنه يتصبب عرقا . وسرعان
ما وصلوا جميعهم الى رقعة الأرض الصغيرة المليئة بنبات

(٢) يقصد المؤلف (متهمكا) أن تلاعب رئيس المجموعة بالألفاظ (استخدام عبارة
« معهد الصحة النفسى » بدلا من « مستشفى الأمراض العقلية ») لم يقدم ولم يؤخر
بالنسبة لحالة الأم التى لم تسترد بعدها لا عقلها ولا حريتها - (المترجم) .

السعتر والمؤدية لباب المغارة ، وهف «الخوستيتو» و «الخوسيه لويس» فى ثبات ، دون أن يرفعا عيونهما من على الأرض ، أمر « الخوستيتو » « الفروتس » ، بصوت أجش :

— اقرأ المنشور ، هيا •

بسط « الفروتس » ورقة وبدأ يقرأ متعترا قرار الجمعية باخلاء مغارة العم « راتيرو » لأسباب أمنية • عندما انتهى « الفروتس » نظر الى العمدة ، و «الخوستيتو» دون أن يعدل من وقفته ، قال :

— لقد سمعت ، يا راتيرو ، انه القانون •

بصق العم « راتيرو » ثم فرك يدا بأخرى • نظر اليهم ، واحدا بعد آخر ، غير عابىء ، كما لو كان الأمر يتعلق بشيء هزلى •

— لن أرحل من هنا •

— ألن ترحل ؟

— نعم • فالمغارة مغارتى •

أضاعت جبهة « الخوستيتو » ، العمدة ، فجأة :

— لقد أعلنت على الملأ نبأ الاخلاء — صاح — • مغارتك

على وشك الانهيار وأنا العمدة وهذا من اختصاصاتى •

— انهيار ؟ — استفهم « الراتيرو » مستنكرا •

أشار الخوستيتو الى الدعامة والصدع •

— انها المدخنة — أضاف « الراتيرو » •

— أعرف أنها المدخنة • لكن سيسقط فوق رأسك ذات

يوم طن من التراب ويدفئك أنت والصبى •

ابتسم العم « راتيرو » فى بلاهة :

— بل أكثر •

— أكثر ؟

— تراب أكثر فوقنا ، هذا ما أعنى •
عندئذ تدخل « الخوسيه لويس » ، المحضر :
— عم « راتيرو » ! عليك اخلاء المغارة طوعا أو كرها •
نظر اليه العم « راتيرو » بازدياء :
— انت ؟ ! لا يمكنك أن تجبرني على هذا حتى ولو
ياصابعك الخمس !

كان ينتص « الخوسيه لويس » الاصبغ السبابة ليدع
اليمنى • لقد اجتز الحمار ذات مرة اصبعه بعضه واحدة ،
لكن « الخوسيه لويس » لم يستسلم ، بل رد عليه بعضه
انتزع بها شفة الحيوان العليا •

أحيانا ، عندما كان الموضوع يثار فى الحانة ، كان
« الخوسيه لويس » يؤكد أن شفة الحمار ، وهى غير ناضجة ،
مثل طعم عشب الغراب باردا وبلا ملح • على أية حال ، فقد
ظل حمار « الخوسيه لويس » طوال حياته وأسنانه مكشوفة
للهواء كما لو كان يبتسم على الدوام • فقد « الخوستيتو »
صبره :

— اسمع ، يا « راتيرو » — قال — أنا العمدة ولى
اختصاصاتى • لقد أخذت حيطتى وأعلنت على الملأ نبا
الاخلاء • وقد أعذر من أنذر ، ولا أكون العمدة اذا لم اهدم
المغارة خلال أسبوعين • أعلمك بهذا أمام اثنين من الشهود •
فى « سان سابيتو » ، عندما عادت اللجنة الى المغارة ،
كانت تضرب القمم المائية ، ريح متقطعة وتحدث توججات
فى اعواد القمح والشعير مثل موجات البحر • كان
« الثروتس » ، المحلف ، يمشى فى المقدمة ويعمل بيده
أصابع الديناميت بينما الفتيل ملفوف حول خاصرته •
عندما أخذوا فى صعود المنحدر أطلق عليهم « النينى » الكلبة
فاصطدمت بالثروتس الذى تدحرج حتى وصل الى الطريق
بينما كان بسب ويلمن بصوت منخفض • كان العم « راتيرو »

قد استعد وتحدث فى هذا الشأن مع « الأنتوليانو » ، وهكذا فبمجرد ان هده « الخوستيتو » بترك المغارة ، اخذ فى تكرار هذه العبارة وكأنه اسطوانة مشروخة : « أعلمنى كتابة ، أعلمنى كتابة » .

نظر العمدة الى « الخوسيه لويس » الذى كان ملما ببعض القوانين ، فأوماً اليه برأسه وبعدها انسحبوا . فى اليوم التالى ، أرسل « الخوستيتو » للعلم « راترو » بلاغا بمهلة أخرى قدرها خمسة عشر يوما . فى « سان سيرخيو » انتهت المهلة وهبطت اللجنة على المغارة قبل الظهر ، عندما نادوا من على الباب ، أجاب « النينى » من الداخل بأن البيت بيته واذا اقتحموه بالقوة ، فسيبلغ عنهم القاضى . نظر « الخوستيتو » الى « الخوسيه لويس » الذى هز رأسه وقال مهمهما : « تعد على حرمة المنزل ، حقا انها لجناية » .

فى اليوم التالى ، أوشك « الخوستيتو » على البكاء أمام « فيتو سولورثانو » ، الرئيس ، كانت البقعة النفسجية التى فى جبهته تنبض وكأنها قلب :

— لا أستطيع مع هذا الرجل ، يا ريس . طالما ظل حيا ستبقى مغارات بالمحافظة .

حاول « فيتو سولورثانو » ، بصلعته الوردية المبتسرة ويديه المكتنزتين اللتين تعبتان بمحتوى المكتب الحفاظ على هدوئه . فكر عدة ثوان قبل أن يتكلم ، واضعا اصبعين من يده على خاتم الشمع الأحمر . تكلم أخيرا فى تواضع مشوب بعظمة :

— لو بقى لى شىء واحد أعمله غدا وأنا فى منصبى هذا ، فسيكون الانتهاء من مشكلة المغارات . أنت هدمت ثلاثا فى منطقتك ، خوستو ، أعرف هذا ، ولكن الأمر لا يتعلق بهذا الآن . لقد بقيت مغارة وطالما لا أستطيع أن أقول للوزير : « سيدى الوزير ، لم تبق ولا مغارة فى محافظتى » فكاننى

لم أفعل شيئاً • أنت تفهمنى ، حقاً ؟ أوما « الخوستيتو »
برأسه • كان يبدو كتلميذ فى مدرسة يعانى من توبيخ
أستاذه • أضاف « فيتو سولورثانو » :

– رجل يعيش نى مفارة ولا يجد مائة بيزيتة ليدفعها
نى بيت ليس الا متشردا • أليس كذلك؟ أحضره لى، وسأحبسه
فى ملجأ الفقراء دون تحقيق •

مد « الخوستيتو » احدى يديه بخجل :

– مهلا • يا ريس • هذا الرجل لا يتسول • له عمله •
– ماذا يعمل ؟

– يصيد الفئران •

– هل هذا عمل ؟ لأجل ماذا يريد الفئران ؟

– انه يبيعها •

– ومن يشتري جرذاننا فى قريرتك ؟

– الناس جميعا • يأكلونها •

– تأكلون الفئران فى قريرتكم ؟

– انها لذيذة الطعم • اذا قليت وتبلت بالخل تكون
أشهى من السمان •

انفجر « فيتو سولورثانو » فجأة :

– لا يمكن أن أتهاون فى هذا ! انها لجريمة فى حق
الصحة العامة !

حاول « الخوستيتو » تهدئته :

– كل المنطقة تأكلها ، يا ريس • ألا نأكل الأرانب ؟
– مرت لحظة صمت • أضاف بعد ذلك : الفئران نفس
الشيء ، انها مسألة تعود •

ضرب « فيتو سولورثانو » المكتب بقبضته فتناثرت
محتوياته :

— لماذا أريد عمدا ورؤساء محليين اذا كانوا لا يحلون المشاكل بل يخلطونها لي باستمرار ؟ ابحت أنت عن الصيغة الملائمة ، فوستو ! ضع هذا الرجل فى أى مكان ، افعل كل ما فى وسعك ! ولكن فكر أنت ، أنت ، بعقلك القاصر ، وليس عن طريقى أنا !

رجع « الخوستيتو » القهقرى تجاه الباب :

— حسنا ، ياريس • دع الأمر لى •

غير « فيتو سولورثانو » فجأة من نفعة صوته واضاف عندما هم « الخوستيتو » بفتح باب المكتب :

— وعندما تنتهى من هذا الموضوع ، أخبرنى • ضع فى اعتبارك أن الذى يحدثك ليس « فيتو سولورثانو » ولا رئيسك ، بل المحافظ نفسه •

- ٨ -

فى « سان بالدوميرو » اكتشف « النينى » فوق حلمة « توريشيوريجو » السرب الأول لطيور الشتاء وهى تتجه مسرعة صوب الجنوب - تعاقبت الأسراب دون انقطاع خلال ثلاثة أيام بلياليها - كانت تطير عالية ، راسمة حرف V على السماء الزرقاء الهادئة ، وتصيح هائجة فى شىء من الفزع -

قديما ، كانت حلمة « توريشيوريجو » تسمى قمة « المورو » ، لكن « لامارثيلا » ، أم « النينى » ، أطلقت عليها الاسم الأول قبل عدة أشهر من دخولها مستشفى الامراض العقلية - بعد ولادة « النينى » ، لم تتحسن صحة « لامارثيلا » وفى كل مرة يضبطها « الراتيرو » وهى تنظر بعته الى الروايبى كان يسألها : « الى ماذا تنظرين ، يا مارثيلا ؟ » فلا تجيب - فقط كانت تتلثم اذا هزها بعنف : « حلمة توريشيوريجو » ، وتشير الى قمة « المورو » المخروطية ، الكئيبة المتجهمة مثل فوهة بركان - « حلمة ؟ » - كان « الراتيرو » يسأل مستقصيا ، فتضيف هى : « كثيرون نحن على هذه العلمة - لا تدر لبنا يكفى الجميع » -

بعدها بأيام ضبطها « الراتيرو » وهى تنشر رجل مقعد بلا مسند - « ماذا تفعلين ؟ » - سألها - فأجابت : « الكرسي يعرج » - رد : « يعرج ؟ » - فلم تجبه ، وعندما حل المساء قامت بنشر الأرجل الباقية للكرسي -

فى ذلك الوقت كان « النينى » قد أكمل ست سنوات ، وما من مرة يقابله فيها المختلس الا ويسأله : « اشرح لى ، أيها الصعلوك - كيف يمكن أن تكون « لامارثيلا » أمك

وعمتك فى نفس الوقت ؟ - ينفجر ضاحكا وكأن به شحنة
هواء تسربت فجأة -

فى اليوم الذى قرر فيه العم « راتيرو » احداث بقب فى
سقف المعارة بالماسورة التى أهدها له « الروسالينو » ،
الوكيل ، طلب من « لامارتيلا » رملا ليخلطه بالأسمنت ،
فجاءت اليه بعد طول انتظار وهى ممسكة بالمدراة - « خذ »
- قالت - « ماذا ؟ » - سأل « الراتيرو » - « الرمل ، الم
تطلب رملا ؟ » - قالت : « رمل ؟ » - قال : فأضافت :
« أسرع ، لأنه ثقيل » - كان « النينى » ينظر اليها مندهشا
لكنه نطق أخيرا : « أماء ، كيف يمكن جمع الرمل بالمدراة ؟ » -
بعد مضي أسبوع على هذه الواقعة ، فى « سان أوليبا » منذ
أربع سنوات ، حضر الى القرية رجل فى ملابس سوداء
وحملها لمستشفى الأمراض العقلية ، لكن قمة « المورو » لم
تسترد اسمها وظلت الى الأبد حلمة « توريثيوريجو » -

والآن ، تحلق طيور الشتاء فوق الحلمة ، هبط « النينى »
الى القرية ليخبر العجوز :

- لا أراها ولكنى أحس بأصواتها - قال العجوز -
هذا يعنى سقوط الثلوج - قبل مضي أسبوع ستغمر المنطقة
بأسرها -

يبدو العجوز ، فى وضع النهار ، ونصف وجهه مغطى
بقطعة القماش السوداء وكأنه مومياء جافة - قبل أن يضع
قطعة القماش سأل الصبى ذات مساء عما به :

- شئ تافه ، دمل سرطانى - رد العجوز مبتسما -

عندما تساور « النينى » الشكوك حول شئ ما (الرجال
أو الحيوانات أو السحب أو النباتات أو المناخ) فانه يلجأ
للعجوز - كانت لدى العم « روفو » بغض النظر عن خبرته
أو ربما بسببها ، رهافة حادة للاصطباغ بصبغة الظواهر

الانطيمية - فى بعض الاحيان ، كان يتحدث عن «رياح صباه»
از عن «تراب البيدر عندما كان شابا» أو عن «شمس خريف
العمر» - بمعنى أن مراحل العمر تلعب دورا أساسيا فى
مدارك العم «رؤى» ، الأثر الذى أحدثته فيها ، فى مراحل
بعضها ، أشياء مثل السحب ، الشمس ، الرياح أو تراب
الدراس الذهبى - كان المعجوز يعرف الكثير عن كل شيء ،
بارسم من أن فتيان القرية وصبيانها لم يكونوا يقتربون منه
الا بقصد الضحك من حركاته العصبية أو ليكشفوا قطعة
القماش من على وجهه «ليروا جمجمته» والسخرية ، بعد
ذلك ، من مرضه :

— دعهم ، انهم صبيان — اعتاد أن يقول المعجوز للنينى
متدرا بالصبر ، فى مثل تلك الحالات .

لم تكن «لا سيميونا نفسها ، ابنته ، تكن له أدنى
تقدير . منذ أن بدأ العم «روفو» يشيخ ، أخذت
«لا سيميونا» على عاتقها مهام البيت والحقل . كانت تعنى
بالتنسيق ، تزرع ، تقتلع الحشائش الضارة ، تحصد ، تدرس
المحصول وتنقل القش .

ولهذا السبب أصبحت سريعة الغضب ، بخيلة وشكاكة .
كانت «دونياريسو» تؤكد بأن جميع الناس يتحولون الى البخل
وسوء الظن عند ادراكهم لمدى ما يكلفه كسب بيزيتة واحدة
من دنانة . وبالرغم من هذا ، فما كانت تفعله «لا سيميونا»
مع أبيها كان زائدا عن الحد . فى المرات القليلة التى كانت
تتحدث فيها مع جيرانها لم تكن تتورع عن التصريح بأنه
«كلما تنام العمر بالمعجوز زادت شرايته ، شيء لا يطاق» .
فتنظر اليها السيدة «كلو» وتردد : «يا لقسوة قلبك !

لا يمكن مقارنة ما تفعلينه بالاهتمام الذي أوليه لزوجي
« البيرخيلين » (١) .

كل اهتمامات السيدة «كلو» ، صاحبة دكان الخردوات،
تنصب الآن على « ألبيرخيلين » . ترعاه كابن لها ، وتود ،
لو استطاعت وضعه في قنص وتعليقه في سقف الدكان ،
كما فعلت من قبل مع الصافيير .

وعلى خلاف هذا ، لا تعامل « لا سيميونا » والدسا دسا
ينبغي ، بل ان عدم ثقته به تزداد مع الأيام والآن ، في كل
مرة تغيب فيها عن البيت ، (تعلم) الخبز وتقيس الدجاج ،
واحدة واحدة ، لتعرف ما اذا كان العجوز قد أكل كسرة خبز
أو طعم بيضة أثناء غيابها . وعند عودتها تقول :

— يجب أن تكون هنا ثلاث بيضات ، لنرى أين وضعنها .
وعندما تنقص بيضة كان السباب والصياح يتجاوزان
آخر بيت في القرية . واذا كانت الريح مواتية تصعد
الصيحات الى المنارة فيتألم « النيني » ويحدث نفسه : «ها هي
لا سيميونا تعنف العجوز » .

عن أية حال ، لم يذن يستلج أحد ان يقول عن
« لا سيميونا » أكثر من أنها تكفل والدسا عجوزا ، وتنولي
شئون البيت والحقل ، ولا ترض بما يتبقى لديها من طاعة
لدفن أموات القرية . كانت تستخدم في هذا عربة كارو
عتيقة ، يجرها حمار أكل منه الزمان حتى شبع ، لا تكف عن
ضربه بلا هوادة كل مرة تحمل فيها ميتا الى المقابر . وفي
مؤخرة العربة كان تربط « الدوكي » ، الكلب ، بحبل قصير
جدا يكاد يخنقه . والكلب يعوى ، مملا رأسه قليلا لكي
يتفادى ضغط الجبل ، واذا لفت نظرها أحد الى هذا فانها
ترد بحدة :

(١) بيرخيلين « تصغير بيرخيليو » والتصغير ، علاوة على دلالة الصية المعروفة ،
يستخدم كثيرا في الاسبانية للتعبير عن مشاعر الود والحب والعطف التي يكنها المتكلم
تجاه الشيء الصغير ، واستخدام التصغير هنا يندرج تحت المعنى الثاني - (المترجم) .
(٢) عين القرية المقصود بها المصابيح - (المترجم) .

— هذا أفضل • فبهذه الطريقة لن يعدم أحط ميت كلبا
يبكى عليه •

كانت « لا سيميونا » تسب وتلعن كالرجال وفى الأيام
الأخيرة ، عندما تشير الى شراة والدها ، تسخر من مرضه
بالسرطان وتقول : « العجوز يأكل لاثنين بدلا من واحد » •

الى الآن ، يستطيع العجوز الانتقال من مكان لآخر ،
ولكنه فى الساعات المشمسة يلزم المصطبة الموجودة خلف
الدار حيث يضطجع فوقها مغمض العينين • كثيرا ما كان
« النينى » يهبط للاستمتاع بصحبته وهو يفك ألغاز الطبيعة
أو لسماع حكاياته القديمة • وفى الأيام الأخيرة يجد الصبى
لذة فى تأمل قطعة القماش السوداء التى تغطى جانبا من
أنف العم « روفو » ووجنته اليسرى ، وفى كل مرة يجلس
فيها الى جانبه ، كان يشعر برغبة لا تقاوم فى رفع قطعة
القماش • كانت تملكه نفس الرغبة التى تملك صبيان
القرية ، مع مطلع الخريف ، عندما كانوا يلعبون بالدمى
ويصيحون : « الساعة تدق الرابعة ، هيا نظير قطعة القماش
الهاجعة » • ومع ذلك ، كان « النينى » يسيطر على رغبته ،
فقد كان يوقر العجوز ويشكر تلقائيا نصائحه •

قال العجوز للصبى عندما أخبره برؤية الطيور تحوم
حول حلمة « توريثيوريجو » ، ان الثلج على وشك السقوط ،
ربما قبل مضى أسبوع ، وفى « سان بيكتوريانو » ، أى بعد
خمسة أيام فقط ، أخذت قطع الثلج تتهاوى فتحوّلت المنطقة ،
بعد بضع ساعات ، الى كفن لا نهائى • آدمى البياض عيون
القرية (٢) وطوبها اللبن ووضحت تحت الثلوج الأسوار
الشائكة التى تحيط بالحظائر المتهاكمة • تبدو الحياة وكأنها
هربت من العالم تاركة وراءها صمتا مخيفا وكثيفا كصمت
المقابر ، يطوق المنطقة بأسرها • هجعت الوحوش داخل

(٢) عيون القرية المقصود بها المصاييح - (المترجم) •

جحورها والعصافير بعد طيران حائر بين الثلوج عادت إلى الأرض تلتمس الدفء . وهناك ، داخل الفجوات ، ظلت القبرات ساكنة ، تطل برؤوسها ذات العيون المستديرة المندehشة ، لترقب ما حولها جائئة .

أحيانا كان « النيني » يتسلى بالطواف حول تخوم القرية وعندما تراه العقاقق والقبرات وطيور الزرزور تتناقل في الارتفاع عن الأرض ، لكنها بعد طيران راسي قصير ، وكأنه وثبة ، تعود مسرعة إلى أوكارها .

في « سان سيمبليثيو » ، لبي « الصبي » والكلبة النداء الخادع للثلوج فخرجوا إلى الحمول . كانت قدمه تحدث صريحا خافتا ، يحوله صمت المنطقة المهيبة إلى قرقرات صماء معتمة ، كان ينبسط أمام عينيه كوكب متسع ، معدني ، منعزل وأخرس ، وعليه أن يطوفه مدفوعا بالرغبة في الاكتشاف . دار حول قمة « ميرينو » وعندما بدأ في هبوط المنحدر ، لمح أثرا لحجل . كان يمكن تحديد آثار أقدامه الخفيفة بوضوح على الثلوج العذراء وتتبع الصبي تلك الآثار ، والكلبة خلفه ، دون أن تحاول مجرد اقتفاء الأثر . اختفت الآثار فجأة فتوقف الصبي ثم نظر حواليه ، وعندما لمح عشب شجرة البلوط على بعد اثني عشر مترا ، ابتسم ابتسامة لا تكاد ترى . كان يعرف من جده « رومان » أن الحجلان لا تتبخر ولا تطير في الثلوج كما يدعى بعض الصيادين الذين يعتقدون في الخرافات ، ببساطة ، كان الحجل ، لكي يتفادى وشاية آثاره به ، يقفز قفزة هائلة قبل أن يختفي داخل الجحر . ومن ثم فقد استنتج وجود الحجل هناك ، تحت العشب ، وعندما تقدم نحوه والابتسامة بين شفثيه ، مستمتعا بحلاوة المفاجأة ، وثب الحجل بحركات خرقاء والصبي وراءه ، بحركات خرقاء أيضا ، يضحك ويقع ، بينما كانت الكلبة تنبح إلى جواره .

توقف الصبى والكلبه بعد ان اختفى الحجل بين المروج
وعيناه الصفراوان متسعتان من الرعب • وكرد قبل مباغت
شرع « النينى » ، الذى مازال يلهث ، فى التبول فظهرت
دائرة صغيرة سوداء من الأرض تحت الثلج المذاب •

انحنى على مقربة من المكان وصنع فى دقائق معدودة
تمتالا من الثلج ، ثم وضع على فمه ملفعة واستعنت الكلبة :
- « نا » ، انظرى ، ها هو المختلس ، اهجمى عليه •

لكن الكلبة نكصت على عقبيه خائفة بينما كانت تنبح
وعيناه على التمثال ، عندئذ ، شكل الصبى كرات نلجية
وبدا يقذف التمثال الذى تهاوى بعد أربع تصويبات • أطلق
ضغطة حادة وتجه رجع الصوت الكريستالى على التكرار ، ثم ،
السياح مرة بعد أخرى ، كل مرة أعلى من سابقتها • تملكه
عند نيل هذا احساس بالكمال • صعد الراقية دون أن يكف
عن السياح وعندئذ لمح المختلس ، بشحمه ولحمه ، هناك
أسنل ، يبرجر قدميه فى أراضى السيدة « كلو » المحروثة •
أمسك « الأنيسى » عن السياح وشمر بموجة من النضيب تسرى
فى كل جسده • كان القانون يحرم الصيد أثناء سقوط
الثلج ، لأن الحيوانات التى تمشى على الأرض تترك أثارا
تفزع وجودها بالاضافة الى أن الحجلان لا تستليح الحركة
بحرية فى مثل تلك الظروف • ومع ذلك ، فقد كان المختلس
هناك وبندقيته مشرعة • رآه الصبى يتجه نحوه فحاول
تفاديه لكن المختلس قطع الطريق عليه • « ماتياس ثليمين »
يضرب بالقانون والعرف عرض الحائط عند سيره فى الثلج ،
وعند رؤيته من بعيد ، وهو يتسلل بخفة تحت لمعان القمم
العالية ، يبدو وكأنه الساكن الوحيد لهذا العالم • عندما
اقترب من الصبى ، قال له كاشفا عن أسنانه المخيفة المفترسة :
- كنت أنت الذى يصيح هناك أعلى ، أيها الصعلوك ؟

- نعم •

— كنت تضحك بحماس ، ايه ؟ تضحك عندما تكون بمفردك كالمجانين .

حاول الصبى الاسراع لأن صحبته لا تروقه . كانت مخلاة المختلس منتفخة بما يشبه العجلين . سأل « النينى » :

— ألم تشاهد آثارا ؟ أين يختبئ الزبذب فى هذه القرية ؟

— لا أدرى .

— لا تدرى ، لا تدرى ، أراهن على أنك تدرى جيدا .

هز الصبى كتفيه . أضاف المختلس :

— سيطر دكم « الخوستيتو » من المفارة ، ايه ؟ الى أين ستذهبون ، أيها الصعلوك ؟ اذا فقئت عينا الأرنب ، مات . سيحل بك نفس المصير لأنك تنلق فمك بقفل .

هبطت من على الراية الآثار الصغيرة لقدمى « النينى » وبجوارهما حذاء المختلس المليء بالمسامير والآثار الخفيفة للكلية . تبدو الأرض وهى خالية ومنتفخة بعض الشيء بفعل أشكال القمم المستديرة ، وكأنها مسطح يغمره اللبن قبل لحظة الغليان .

رفع العم « راترو » ، الذى كان يجلس القرفصاء أمام النار ، رأسه عند سماعه لوقع أقدام الصبى :

— هل رأيته ؟ — سأل بغيظ مكتوم .

— لا — رد الصبى .

— « مالبينو » رآه .

— ليس صحيحا — أضاف الصبى . لا توجد مهجة حية بين الحقول .

شعذت نظيرة العم « راتيرو » الأبقرة تحت الجفون.
وتسمرت على النار ، لكنه لم يتفوه بشيء . والصبى هو
الآخر فضل الصمت .

منذ أربعة أسابيع لا يفكر العم « راتيرو » الا فى غريمه .
حاول « النينى » مرات عديدة صرفه عن هذا ، واقناعه بأن
النهر للجميع ، لكن اصرارا شرسا قد تملك قلب العم راتيرو .
« الفئران تخصنى ، وهو يسرقها منى » ، كان يقول : ويلهث
من التعب والخيظ . فى « سان ميليتون » طلعت الشمس
وأذابت الثلج ، ومع حلول المساء ، لم يكن قد بقى الا بعض
أجزاء بيضاء هشة تطوق القمم العالية من ناحية الشمال .
وفى نفس هذه الليلة لزم العجوز الفراش ، وبمجرد أن عرف
« النينى » هبط لتمضية بعض الوقت معه . حقنة شرجية
كانت معلقة فوق السرير الخشن ، وبجواره مصباح متواضع ،
وفوق المصباح توجد صورة للمذراء . قال له العجوز دون
أن ينظر اليه ، ودون أن يحرك عضلة واحدة من وجهه :

— هذا المساء ، قبل أن أنام ، أردت سماع صوت الريح
بين نباتات البوط ، مثلما كنت أفعل وأنا شاب . استلقيت
بجوار النهر وانتظرت ، لكن الصوت جاء مختلفا .

كل شيء يمضى فى هذه الحياة لا يتكرر أبدا ، يابنى .

شرع الصبى يتحدث عن الثلج والمختلس وعن الحجل بين
أعشاب البلوط وأخيرا ، خيم الصمت ، وحدقته على قطعة
القماش السوداء التى تغطى نصف وجه العجوز . لكن العم
« روفو » ، الذى كان يلهث من التعب ، لم يعلق على كلمات
الصبى .

فى مساء اليوم التالى عاد « النينى » الى جواره ، ولما أظلم
الجو ، نهض وأضاء المصباح الموجود على رأس السرير .

تكررت زيارات « النينى » للمريض لمدة أسبوع لم
يتبادلا فيه الا بضع كلمات ، لكن « النينى » كان ينهض.

بمجرد رؤيته لاحتضار النهار ويضئ المصباح دون أن يطلب
منه هذا • فى الليلة السابقة ، وبعد أن أضاء المصباح ، نزع
العجوز قطعة القماش السوداء باصبعين مرتجفتين ، وقال :
ـ تماال هنا •

خفق قلب الصبى خفقات غير منتظمة • بدا الجزء الذى
تغطيه قطعة القماش وكأنه عجينة دموية محفورة فى اللحم
ذاته • وفى الجزء العلوى من الانف ، بجانب الصدع ، ظهرت
عظمة صفراء •

ضحك العجوز وقال عندما لاحظ وجه الصبى الممتقع :
ـ ألم تشاهد أبدا جمجمة رجل حى ؟
ـ لا •

عاود العجوز الضحك ثم قال :

ـ عندما نموت يأكلنا الدود • لكن الأمر سواء ، يابنى •
فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ولم تطق الديدان الصبر
والانتظار •

- ٩ -

فى « سان سيجوندو » ، ومنذ أربعة أعوام ، ياتى الى القرية رجال من اقليم « اكستريمادورا » - كانوا يشخلون عند مجيئهم فوق حميرهم المسرجة قافلة غير منتظمة ويفنون ، وكانهم بدلا من قطع مسافة خمسمائة كيلو متر فى عشرة أيام وفى طرز متربة ، قد انتهوا من أخذ حمام ساخن بعد الاستيقاظ من نوم عميق - كانوا يسكنون اصطبلات « دون أنتيرو » ، نظير خمسة ريالات للفرد فى اليوم الواحد - وبما أن عددهم يصل الى اثنى عشر فردا ويمضون بالقرية ما يقرب من ستة الأشهر ، فقد كان يدخل جيب « دون أنتيرو » سنويا حوالى أحد عشر ألف ريال -

أحسست «دونياريسو» ، الوصية الحادية عشرة ، بقدمهم فغلقت النافذة بشدة :

- انهم هنا من جديد ، ليشملنا الله برعايته - قالت لـ « لابتو » ، الخادمة -

خلال العامين اذولين ، شارك « النينى » هؤلاء الرجال فى نظهر الجبل من أعشاب الصنوبر - فعلوا هذا من قبل فى « توريثيوريجو » ، وهم الآن عمال تابعون للحكومة حيث تقع على عاتقهم المهمة الشاقة لتشجير الصحارى والجبال - قضية التشجير كانت الشغل الشاغل لرجال الحكومة الجدد - ففى أثناء الحرب ، التى لم يكن قد مضى على اندلاعها خير أربع وعشرين ساعة ، شكلت مجموعات من المتطوعين بغرض تحويل صحراء قشتالة القاحلة الى غابة وارفة - كان المؤيدون لهذه العملية لا يملون من التأكيد على أن « الأشجار تحسنى

الطقس ، وتجلب الأمطار وتحجز الأتربة عن الأرض.
المزروعة • فلايد من زراعة الأشجار • يجب أحداث ثورة •
ولينهض الريف ويتقدم ! » • وشمر رجال كل القرى عن
شواعدهم ، حاملين الفؤوس ، من أجل المنحدرات القاحلة •
وعندما جاءت شمس أغسطس أحرقت البراعم الطرية وظلت
القمم عارية كالجماجم •

قال « جوادالوبى » ، خولى رجال « اكستريمادورا » -
والذى كان بالرغم من اسمه (١) فتى لوحته الشمس ، مفتول.
العضلات وذا ايماءات سريعة وفظة كفجرى - لفتيان القرية
فى حانة « مالبينو » انهم جاءوا وفى نيتهم تحويل اقليم
قشتالة الى جنة فيحاء • ضحك « البرودن » وقتها متشككا
فقال له « جوادالوبى » : « ألا تمتد هذا ؟ » • فأجابه
« البرودن » مكتئبا : « الله وحده هو الذى يصنع المعجزات » •

بدأ رجال « اكستريمادورا » العمل فى رابية «دونالتيو»
وخلال أشهر معدودة رشقوها بأشجار الصنوبر الصغيرة ،
فأصبحت مثل وجه آدمى هاجمه الجدرى • لكنهم بمجرد أن
فرغوا من عملهم صبت شمس لا ترحم نيرانها على الرابية ،
فأخذت البراعم الصنوبرية فى الذبول وبعد أسبوعين جف
سبمون بالمائة من الأشجار المزروعة وأصبحت تقرقع تحت
الأقدام مثل العطب الجاف • قاومت الأشجار الباقية أسابيع
أخرى ، لكنها ماتت متفحمة وعادت الرابية الى ما كانت عليه
قبل مجيء رجال « اكستريمادورا » ، عبوسة متجهمة •

كان البص الكريستالى يومض على حافة المنحدر ،
وعندما شاهد « جوادالوبى » ، النولى ، غمزات المرتفع سب
ولعن :

— مازال يسخر منا هذا المخنث •

(١) فى اسبانيا يعتاد تسمية النساء بهذا الاسم (جوادالوبى) لكنه يطلق
على الرجال فى القليل النادر وقد ذكرنا هذا حتى يقف القارئ على قصد الكاتب • من
حملته الاعتراضية الاستدراكية - (المترجم) •

كانوا يتحدثون بغضب عن المرتفعات ، لكن عزيمتهم لم تفتقر ، بالرغم من النتائج العقيمة - أحيانا كان يظهر بالقرية المهندس ، وهو شاب بشوش وان كان يعلو وجهه شحوب أوراق الكتب الكثيرة التي درسها ، ويجتمع بالاثني عشر رجلا في حانة « المالبينو » ويخطب فيهم وكأنه جنرال يتوجه الى جنوده قبيل المعركة :

— أيها الرجال — كان يقول — ، أتعرفون أنه منذ أربعة قرون كان باستطاعة قرد دخول أسبانيا من على جبل طارق والوصول الى جبال البرانس ، وهو يقفز من غصن الى غصن دون أن تلمس رجله الأرض - بشجاعتكم سيتحول البلد الى غابة مترامية الأطراف -

تبادل « البرودن » و « المالبينو » نظرات لها معنى - يعد انتهاء زيارة المهندس ، الذي كان يشاركهم الشراب خسرده منهم ، يزداد تفاني رجال « اكستريمادورا » ، ويعمقون اكثر حفر شجيرات الصنوبر لكي تتجمع فيها الأمطار ويحمونها من رياح الشمال ، ولكن المطر كان يأبى على النزول ، وعندما يصل شهر يونيو ، تسلق شجيرات الصنوبر داخل حفرها مثلما يطهى الدجاج بنفس عصارته -

اعتاد « النيني » زيارة رجال « اكستريمادورا » لأنهم علاوة على مهارتهم الفائقة في اجتثاث أعشاب الصنوبر أو زراعة الشجيرات الصغيرة في ملح البصر ، يذكرونه بأيام « توريشيوريجو » وهو مع جده « ابونديو » ، عندما كانوا يقصون أثناء الليل ، تحت سقف المخزن المليء بالثقوب ، حكايات تثير الرعب والفرع - من وقت لآخر ، كان يأتي الى القرية أحد (المعارف) :

— « نيني » ، أيها الغلام ، ما هي أخبار جدك ؟

— ذهب -

— الى أين ؟

— لا أعرف —

— يا له من عجوز شقى ! لم يكن يتركنا ننام طوال الليل باغتساله المستمر . أما زلت تذكر؟ لكن أهل القرية لم يكونوا يحبون رجال « اكستريمادورا » لأن عملهم بلا ثمرة ، ولأنهم يمنعون النساء من الاقتراب من المنحدرات ولذا ، فقد كانوا ينسبون إليهم كل أنواع الرذائل . وخلال فترة تواجدهم كان أهل القرية يتمتعون بحصانة مطلقة . فعند حدوث ما يشين يبادر الناس قائلين :

— لابد وأن يكون الفاعل من رجال « اكستريمادورا » .

أما الوصية الحادية عشرة فقد كانت تذهب لأبعد من هذا بكثير ، فلو ظهرت ورقة مالية فئة الخمس والعشرين بيزيته فى صندوق الكنيسة ، أو لو كان عندها علم بفعل من أفعال الخير ، كانت تقول :

— بالطبع ، ليس هذا من شيمة رجال « اكستريمادورا » .

لكن « النينى » كان يعرف انهم أناس طيبون فهم يتعبون طوال النهار ويكتفون بالقليل لسد رمقهم . وأجورهم كاملة تذهب الى « اكستريمادورا » حيث تنتظرهم نساؤهم وأولادهم بفارغ الصبر طيلة ستة أشهر كاملة .

ولم يغير كل هذا من رأى الوصية الحادية عشرة ، فهم بالنسبة لها ، وتحت أى ظرف من الظروف ، أناس غير مرغوب فيهم . إذا سكتوا اعتبرتهم خطرين ، وإذا غنوا عديمى الحياء . وإذا مرت من أمام المخزن وسمعتهم يفسون بحماس كانت تنادى على « جوادالوبى » ، الخولى :

— « جوادالوبى » ، تأمرنا الوصية الحادية عشرة بعدم أحداث ضوضاء .

فيرد عليها « جوادالوبى » :

— وإذا لم ينفوا ، فماذا يفعلون ؟

• يصلون •

عندئذ يعقف « جوادالوبى » يديه السمرالوين فوق صدره ويهز رأسه من أعلى الى أسفل ، وكأنه يريد أن يبرهن على سكوته حتى لا تتفاقم الأمور •

فى « سان براوليو » ، التقت « دونياريسو » بالراتيرو فى الميدان :

• تسرنى رؤيتك • قالت له • هل تعرف أن الصبى يمشى كل الوقت بصحبة رجال « اكستريمادورا » الضالين ويشرب من أوعيتهم ويستمتع لكلامهم الفارغ وحكاياتهم القذرة ؟

• دعيه ، يا « دونياريسو » • أجاب « الراتيرو » بابتسامته المبهمة •

• أهذا ما قدرت عليه ؟

• نعم •

• أليس من الأفضل له الذهاب الى المدرسة بدلا من تعلم مالا ينبغى ؟

• انه يعرف •

• تعتقد أنه يعرف ؟

• الكل يقول هذا •

• الكل ؟ واذا كانوا هم لا يعرفون شيئا ، فكيف يحكمون على الآخرين ؟

وضع « الراتيرو » اصبعها تحت القبعة وهرش رأسه بخشونة •

تحول صوت « دونياريسو » ، فجأة ، الى نغمة استرضاء :

• اسمع ، يا « راتيرو » • أضافت • • لدى « النينى »

مواهب طبيعية ، أعتقد في هذا ، لكنه يحتاج الى توجيه :
إذا سلك الطريق الصحيح فيمكن أن يعرف ما لا يعرفه أحد .
نظرت الوصية الحادية عشرة الى الساعة في معصمها
وصدرت عنها ايماءة قلقة :

— ليس لدى وقت الآن ، يجب ان اتحدث معك ذات يوم
على مهل . الفكرة السيئة التي خونها « دونياريسو » عن
« النيني » لم تكن بالشئ الجديد ، لكن قبل وصول رجال
« اكستريمادورا » هذا العام ، اقتصرت الوصية الحادية
عشرة على الظن السيئ به أو توجيه بعض اللوم اليه . لكن
هذا لم يمنعها من الاستفادة بخدماته وقت الحاجة ، مثلما
حدث في « سان روبرتو » وفي « سان خوان » منذ عامين
مضيا ، بالنسبة لموضوع الأرانب :

— « نيني » — سألته حينئذ — ألا تلد الأرانب كل شهر ؟
— بلى .

— ما الذي جرى اذن لأرنيتي هذه التي يصحبها الذكر
من ستة أشهر وكان شيئاً لم يكن ؟

لم يجب « النيني » ، فتح المشية واختبر الأرنبين بدقة ،
وبعد برهة ، أغلق عليهما المشية من جديد ثم نهض وقال
بصوت وقور :

— انهما ذكران ، يا « دونياريسو » .

بدأت الوصية الحادية عشرة وكأنما نزل عليها سطل من
الماء البارد ، وعندما استمادت هدوءها دفعته بكلتا يديها
خارج الحظيرة .

في حياة « دون أليو جاجو » ، زوجها ، كانت
« دونياريسو » مستبدة وتركب رأسها دائماً . كان « دون أليو »
مريضاً بالضغط ولم يكن يقوى على المشي ، وبما أنه يرهب
الخيول ، فلقد اشترت له بعض الخيول الضامرة التي تستغنى

عنها المؤسسات المتخصصة في تجهيز الموتى ودفنهم . كانت الخيول التي تجر مثل تلك المركبات مطيعة ولا تأتي بما يعكر الصو . وبالرغم من هذا ، فقد ابقى « دون التيو » على سروجهم المذهبة وعلى الريش الاسود الذي يزين رؤوسهم لانه ربما يؤدي التخلي عن هذه اللوازم الى استغراب الخيول وهيجانها . كان الفلاحون يرسمون الصليب على صدورهم عندما يلتقون به وهو على هذا الوضع ، لأنهم يعتقدون ان الحيوان المسرج بهذا الشكل لا يمكن أن يجر سوى المصائب . اعتاد « دون ألتيو » الذهاب عند مغيب الشمس الى قمة « ثيرال » ، وهناك يبدو وهو جالس بلا حراك فوق حصانه المزين بالريش ووجهه للضوء الباهت وكأنه شبح أسطوري . ومنذ ذلك الحين تحولت قمة « ثيرال » الى قمة « دونالتيو » ، لكن « دون ألتيو » ، بالرغم من مرضه بالضغط ، فقد دفن أربعة خيول قبل أن يموت ، وعندما حدث هذا اتشحت « دونياريسو » بالسواد ، حتى انها رفضت المشاركة في عيد الفصح وواظب على قداس الأحد مع خلال نافذة الاعتراف لمدة عامين .

كان قسيس «توريشيوريجو» ، « دون ثيرو » ، بعد أن يفرغ من قداسه فيها يذهب في نفس اليوم لاداء قداس اخر في قرية «النيني» . وبما أنه كان في ريعان الشباب وخجولا فلم يستطع مقاومة رغبة «دونياريسو» : «اذا كنت تريد ان هذه الطريقة تريح ضميرك ، فاستمرى » ، كان يقول لها . يأتي « دون ثيرو » الى القرية ممتطيا جراح « دون أنتيرو » الزراعي ، في تمام الحادية عشرة أيام الآحاد ، فيصلي صلاة خفيفة ويحاول التبسط في شرح الانجيل . أما «الماميريتيو» ، صبي البرودن الذي يعمل مساعدا للقس ، فلم يكن يقرر الأجراس الا بعد أن يشاهد من موقعه على البرج سحابة التراب التي تثيرها على الطريق غربة « دون أنتيرو » ، « الفوردهش » .

كان « المامير تيتو » يصر على التأكيد ، ومنذ نمومة
أظفاره ، بأن الملاك جبريل يتراءى له قبل نومه • عندما بلغ
السادسة لازمت وجهه أمارات الدهول فكانت « لاساينا » ،
أمه ، ترجع هذا الى التهيؤات • لكن بعد سنتين سقط الصبى
من على آلة الدرس فخرجت من أنفه حبة صنوبر لها جذور
ومعها دم كثير وصديد ، ومن ساعتها عادت النضارة الى وجهة
من جديد وعندئذ صاحبت فيه « لاساينا » ، بخيبة أمل ، اذا
ادعيت ثانية رؤية جبريل فسألطملك على وجهك •

فى « سان خوناس » ، أرسلت « دونياريسو » فى طلب
« النينى » :

– ادخل ، أيها الصغير – قالت له – • دع الكلبة فى
الخارج •

نظر اليها الصبى فى هدوء وقال برباطه جأش :
– اذا لم تدخل معى ، لن أدخل ، ها قد عرفت •
– حسنا • سنتحدث حينئذ فى العظيمة •

لكنهما بقيا فى الدهليز ، جالسين على دكة عالية جدا من
خشب الجوز ، لدرجة أن قدمى الصبى ظلتا معلقتين فى الهواء
بعيدتين عن الأرض • استخدمت معه الوصية الحادية عشرة
كلاما عذبا مهديا هذه الليلة :

– أخبرنى ، يا « نينى » ، لماذا تمشى وحدك دائما ؟
– لا أمشى وحدى ، يا « دونياريسو » •
– مع من ، اذن ؟
– مع الكلبة •
– يا الله ! أتعبر الكلبة أحدا ؟

نظر اليها « النينى » مندهشنا ولم يجب • استمرت
« دونياريسو » :

— والمدرسة ؟ لماذا لا تذهب الى المدرسة ؟

— لماذا ؟

— لكى تتعلم .

— وهل تعلم المدرسة ؟

— يا له من سؤال ! فى المدرسة يتعلم الصغار ليصبحوا
فى الغد رجالا ذوى شأن .

ابتسمت « دونياريسو » عندما لاحظت حيرة الصبى
وأضافت :

— اسمعنى جيدا . سيقول لك جهلاء القرية ورجال
« اكستريمادورا » الضالون انك تعرف الكثير . لكن لا تلتفت
لكلامهم . اذا كانوا لا يعرفون شيئا ، فكيف يقومونك ؟

نظر كل منهما للآخر فى صمت و « دونياريسو » لكى
لا يفلت الزمام من يدها ، أضافت أخيرا :

— هل تعرف مثلا معنى طول الأناة ؟

نظر اليها الصبى متحيرا ، كانت تعلو وجهه نفس
الدهشة التى علتة منذ يومين عندما طلب منه « الروسالينو »
وهو على متن العربة « الفوردش » أن يضرب بيده على
« الكارباتور » لأن محرك السيارة يقطع . وبما أن الصبى
لم يحرك ساكنا ، فقد سأله « الروسالينو » : « ألا تعرف مكان
« الكارباتور » ؟ » فهز الصبى كتفيه وقال : « عن هذا
لا أعرف شيئا ، انه من المخترعات » .

تأملته « دونياريسو » فى شيء من الكبرياء وعلى شذقيها
مشروع ابتسامة :

— قل — ألحت — . هل تعرف معنى طول الأناة ؟

— لا — رد الصبى بجفاء .

تفتحت ابتسامة « دونياريسو » كزهرة الخشخاش :

— اذا ذهبت الى المدرسة فستعرف اكثر من هذا وستصبح
في القريب العاجل رجلا مهما .

اطبقت لحظة صمت . كانت « دونياريسو » تعد لهجوم
جديد . لقد بدأت تزعزعها سلبية الصبي وغياب رد فعله .
قالت فجأة :

— أتعرف عربية « دون أنتيرو » الكبيرة ؟

— نعم . يقول « الرايينوجراندى » انها من النوع
الذكر (٢) .

— يالله ، يا له من هذيان ! . أيمكن أن تكون السيارة
ذكرا أو أنثى ؟ أهذا ما يقوله الراعى ؟

— نعم .

— جاهل آخر . لو كان « الرايينو جراندى » ذهب الى
المدرسة لما تفوه بمثل هذه الترهات — غيرت من نعمة صوتها
كى تواصل الحديث :

— وأنت ، ألا يعجبك أن تكون عندك سيارة مثل التى
يملكها « دون أنتيرو » عندما تصبح كبيرا ؟

— لا .

تنحنحت « دونياريسو » :

— حسنا — تابعت كلامها — ، لكن يعجبك معرفة كيف
تزرع صنوبرا أكثر من « جوادالوبى » .

— نعم .

— أو معرفة كم لدى النسر من أصابع أو أين يعيش
العاسوق صائد السحالى ؟

— أعرف هذا ، يا « دونياريسو » .

(٢) على خلاف ما هو معروف فى اللغة العربية فإن كلمة : سيارة أو عربية
(el coche) فى الاسبانية تندرج تحت جنس الذكر — (المترجم) .

— حسنا — قالت الوصية الحادية عشرة بصوت مضطرب — ،
(عايز تفرسنى) • أهذا ما تريد ؟

لم يجب الصبى • كانت الكلبة تتأمله بخنوع من موقعها
بالقرب من افريز الباب المذهب •

نهضت « دونياريسو » ووضعت يدها على كتف الصبى :
— اسمع — قالت له بحنان — ، لديك مواهب فطرية لكن
العقل تجب زراعتة • انا لم تقدم الطعام يوميا لعصفور
فانه يموت ، أليس هذا بصحيح ؟ والأمر كذلك بالنسبة
للعقل •

— تنحنحت ببلاهة ثم أضافت :

— أنت تعرف مهندس رجال « اكستريمادورا » ؟

— « دون دومينجو » ؟

— نعم « دون دومينجو » •

— أعرفه •

— يمكن أن تصبح مثله •

— لكنى لا أريد أن أكون مثل « دون دومينجو » •

— حسنا ، ما أردت الا أن أضرب المثل به • ما أريد
قوله هو أنك يمكن أن تصبح من السادة لو قدمت القليل من
جانبك •

— ومن قال لك اننى أريد أن أكون من السادة ،
يا « دونياريسو » ؟

وجهت « دونياريسو » نظرها الى السقف ، ثم قالت
كاتمة غيظها :

— من الأفضل أن أتحدث الى والدك ثانية • أنت في
غاية العناد • لكن ضع ما تقوله «دونياريسو» حلقة في أذنك :
لا يمكن لأحد في هذا العالم أن يضع يدا على أخرى ويظل
متأملا شروق الشمس وغروبها : تقول الوصية العادية عشرة :
العمل حق •

- ١٠ -

كان « الرايينو جراندى » ينهض قبل طلوع الفجر وينفخ في البوق وسط ميدان القرية فيلبى السكان اشارته ويفتحون أبواب الحظائر ، وهم شبه نائمين ، فتتقاطر النعاج والماعز بمفردها وتلتف حول الراعى محركة جلاجلها بسرور . فى مثل هذه الساعة ، يكون « الرايينو تشيكو » عائدا من النهر بعد سقى البهائم ويتقابل الأخوان فى الميدان فيحبنى كل منهما الآخر برفع يده فى لمحة صداقة ، كالغرباء :

- صباح الخير .

- لينعم الله علينا بالخير .

بعد ذلك ، ينزوى « الرايينو تشيكو » داخل الاصطبل ، ينظف المداود ويعدا الأعلاف ، بينما يسلك « الرايينو جراندى » بقلعيه طريق الربوة لتفاجئه خيوط الصباح الأولى . عادة ، وهو فى مسارب القمم العالية .

خلال فصلى الخريف والشتاء ، يكون العم « راتىرو » و « النينى » هما أول الكائنات البشرية التى يراها « الرايينو جراندى » تحت فى السهل ، بين الرىبى العبوسة ، بالقرب من الخط الفضى للنهر . كان يميزهما بوضوح ، بالرغم من صغر حجميهما ، ومن حركاتهما كان يدرك متى تفر الجردة ومتى يمساكان بها . وبينما هو جالس فوق صخرة ، لتناول غذائه ، يظل يرقبهما بلا اكتراث أو حماس .

تحت ، فى السهل ، ابتعد « الراتىرو » عن فوهة الجحر عكر المزاج وهو يقول :

— ليس به شيء •

يمضى النهر ، فى مجراه الضحل ، بصموبة بين نباتات
السعد والبوط ، وعلى جانبيه تحت شمس مشاكسة ، تلمع
الأرض المعشى بالبياض ، فى تناقض واضح مع مظهر
الكمال الخادع للفلال المنتصبة •

استحث الصبى الكلبة :

— عليك بها ، يا « فا » !

الصقت الكلبة خرطومها بسطح الأرض ، تشممت
المسارب على الشاطئ وعند عبورها النهر ، بربطت فى الماء
بصوت عال • توقفت فجأة ، ذيلها المقصوص منتصب ،
رأسها مائلة الى ناحية ، عينها ثابتتان ، وجسمها متخشب
بلا حراك :

— حذار ! — قال « الراتىرو » — شاهرا سيخه الحديدى •

أسرعت الكلبة بلا تبصر فهشمت كرفس الماء ونبات
السعد الذى يعترض طريقها • جرت لعدة ثوان فى خط
مستقيم ، ثم توقفت فجأة ، عادت أدراجها وهى تشمشم فى
كل اتجاه ، وأخيرا رفعت رأسها حزينة وهى تلهث من
التعب •

— لم تفلح فى الامساك بها — قال « النينى » •

— لقد شاخت ، لم تعد تنفع للصيد — رد عليه
« الراتىرو » •

نظر اليه « النينى » بارتياح ثم قال بعد وقفة قصيرة :

— انها حامل • ستعود الى ما كانت عليه بعد الولادة •

لم يرد الرجل • قفزت الكلبة النهر ، أقعت ، ثم نبشت
الأرض بيديها فى عصبية حتى غطت البقعة الصغيرة الرطبة •
كل مرة تتبول فيها بين الحقول تحاول ألا تترك أثرا • فى

المفارة كانت تكفى اشارة من الصبى لكى يخرج الحيوان ويريح نفسه . فى شبابها كانت ترفع رجلها على النواصى لتفعل هذا ، مثل الذكور ، لكن بعد أول بطن لها ، أصبحت رزينة وأدركت معنى الأنوثة . من قبل ، قص «الأنتوليانو» ذيلها بضربة ازميل واحدة ، لكن ذيل « لافا » ظل بهيجا ومعبرا ، مثل هؤلاء الرجال الذين يبتسمون رغم كثرة المصائب . من ذيل الكلبة كان « النينى » يعرف أين توجد الجرذان ، اذا كانت حزينة أو مسرورة ، أين يعيش الهدد والكروان أو أين يكمن الخطر .

— انها حامل من كلب المعجوز — أوضح الصبى ، بعد وقفة قصيرة ، دون أن يسأله الرجل .
— من « الدوكى » ؟

— نعم . فى المساء تفك « لاسيميونا » وثاقه .
حرك « الراتىرو » رأسه غاضبا . كانت ذقنه التى لم تحلق كثيفة الشعر ، وقبعته المتسخة تصل الى أذنيه .
تعكرت عيناه عندما قال :
— الآن لا توجد جرذان .

أوشك الربيع على القدوم والمخلاة يتناقص محتواها كل مرة عن سابقتها بالرغم من مضاعفة الجهد . لم يحدث هذا فى أى عام مضى . كانت الجرذان تكثر فى النهر — ما بين خمسة أو ستة فى الجحر الواحد — ونادرا ما كانت تقل. حصيلة اليوم الواحد عن ثلاث دست . أما الآن ، فلا يكاد يسفر مجهود اليوم بطوله عن ثلث هذه الحصيلة . ولذا كان « الراتىرو » يقول من بين لثتيه الخاليتين من الأسنان : « انه يسرقها منى » .

فى الحانة ، لا يكف « المالبينو » عن وسوسته الشريرة كل ليلة : « الجرذان جرذاتك ، يا « راتىرو » ضع هذا فى رأسك . هذا الوغد لم ينتدبه أحد » . « معك كل الحق » .

كان « الراتيرو » يرد عليه وتتصلب عضلات رقبته وذراعيه كما لو كانت ستنفجر . ومع ذلك يضيف « المالينيو »
« يريد أن يسلبك لقمة العيش ، لا تدع هذا التنبل يظاً
أرضك » .

وبعدها لا يكف « الراتيرو » ، حتى مساء اليوم التالي،
عنه اجترار كلمات « المالينيو » بالرغم من اجتهاد « النيني »
في اقناعه بأن الجرذان مثل الغلال ، تكثر يوما وتشح آخر .
وأن السبب هذا العام يرجع الى كثرة بنات عرس .

أحيانا كان الصبى يتصور أن الجرذان قد أصابها
الوباء الذى يفتك بالآرانب ، لكنه بالرغم من بحثه الدائب
فلم يعثر على جرذة واحدة مريضة . وعلى خلاف هذا ، فقد
كان يعثر بسهولة على آرانب فى الصحراء أو فى مسارب
الجبيل ، رؤوسها شقراء ضاربة للسواد ، جفونها منتفخة ،
وأفواهها مليئة بالبثور . فالآرنب الذى تصيبه العدوى
يصبح مخلوقا أعزل سرعان ما يموت جوعا : فهو عندما يفقد
البصر وحاسة الشم لا يعود قادرا على البحث عن غذاء .

كشف « النيني » عشا ونادى على « الراتيرو » :

— انظر .

بين القش كان يتحرك جسدان صغيران ورديان وعيوهما
مازالتا مقفلة :

— ها قد رأيت — أضاف الصبى — . الذنب ليس ذنب
أحد .

عادة ما تحتوى جحور الفئران على عدد يتراوح بين
١٠ أو ثمان . قال « الراتيرو » بعد امعان المتأمل فيهما :

— لقد ولدا هذه الليلة .

غطى الصبى الجحر بعناية حتى لا يؤذيها ، وألح
عائلا :

— انها سنة كبيسة . الذنب ليس ذنب أحد .

فى سبيحة اليوم التالى ، التقى « النينى » ، بينما كان
يبحث عن نعلب النهر ، بفتى « توريثيوريجو » الذى يصيد
الجرذان . كان شابا وسيما ، ذا عينين متالقتين وتعبيرات
جريئة ، ويلبس سترة مخملية بنية اللون وحذاء ملينيا
بالمسامير مثل حذاء المختلس . كان كلبه يتشمم بلا قناعة بين
كرفس الماء . ابتسم لـ « النينى » أثناء جلوسه القرفصاء
وغرزه للسبخ الحديدي فى الأرض :

— ماذا حدث ، أين الجرذان هذا العام ؟

— لا أدري — رد الصبى .

— فى العام الماضى كانت الجرذان (على قفا من يشيل) .
— هذا العام ، لا . بنات عرس تهاجمهم ، وأبناء مقرض .
— أبناء مقرض أيضا ؟

— احكم أنت . لا توجد أرانب فى الأماكن العالية .
قضى عليهم الوباء . ولا بد أن يقتات أبناء مقرض بشيء .

صمت « النينى » بعد ذلك متأملا الفتى . نظرت الكلبة
إليه أيضا وهممت بغضب لم تفلح فى إخفائه . وقعت عينا
« النينى » على الكيس المترهل المتدلى من حزام الفتى :

— ألم تصد شيئا ؟

ابتسم الآخر ، كانت ابتسامته بيضاء على خلاف وجهه
الذى لوحته الشمس :

— بل قل هل رأيتها .

وضع الصبى مرفقيه على ركبتيه وأمسك وجهه براحتيه .
ثم سأل أخيرا :

— لماذا تفعل هذا ؟

— أفعل ماذا ؟

— تصيد الجرذان .

— بقصد التسلية ، ثم لأنى أحبها .

— هل تبئيمها ؟

أطلق الفتى ضحكة مجلجلة :

— أصيدها فقط لكى أكلها .

حينئذ أشار عليه « النينى » بالصيد فى أراضى
« توريثيوريجو » • فسأله الفتى :

— هل الصيد محظور هنا ؟

لم يجب الصبى • عندئذ جلس الفتى فى المنحدر
أخرج لفافة تبغ ، أشعلها ثم استلقى تحت وهج الشمس
كانت عيناه تغمزان ، لا أحد يعرف هل بسبب دخان السيجارة
أم لشدة ضوء الشمس ، وفجأة ، اعتدل وقال :

— يبدو أن المطر لا يريد النزول •

منذ « سان خوان كليماكو » و « البرودن » لا يمل من
تكرار هذه العبارة فى الحانة : « اذا لم تمطر فى « سان
كيتشيانو » فعلى الدنيا العفاء » • أما « الروسالينو »
و « البيرخيليو » و « الخوسيه لويس » و « الخوستيتو »
و « الجوادالوبى » ومعهم كل رجال القرية ، فلم يكونوا
يتفوهون بشيء ، لكنهم عند الاستيقاظ صباحا يرفعون
عيونهم نحو السماء وعند رؤية الزرقة اللانهائية
يسخطون ويلعنون من بين أسنانهم • وبرغم هذا ، فقد
كانوا يعجلون بالذهاب الى الحقول مع أول ضوء للشمس
لعزق الأرض ، وعندما ينتهون ، يجلسون فى الحانة صامتين ،
وأحيانا يحاولون نسيان المأساة فيقولون : « هيا ، يا بيرخيليو »
اعزف لنا قليلا ، نستمع — على الأقل — للموسيقا •

كان رجال القرية فى محاولة منهم للتسلح ضد المصائب ،
يقيمون الأعياد والاحتفالات طوال العام • لكن المطر أو
الغمام أو الآفات أو الصقيع الأسود كانت تتكفل بقلب كل
شيء رأسا على عقب • بدت القرية هذا العام وكأنها تحولت
الى ماتم فى أعياد « لاس مارتاس » • ومع ذلك ، فقد انقسم

الشباب ، كالعادة ، الى جوفتين تطالب كل واحدة منهما بانضمام « بيرخيليو مورانتى » اليها ، لكن الحماس ما لبث ان توارى حينما ظهرت السيدة « كلو » وأخبرتهم أن الليلة رطبة وأن « بيرخيليو » يشكو من البرد ومن الأفضل له ان يبقى بالبيت . لم تفلح الجوفتان فى الفناء بدون « بيرخيليو » . وضحكت الفتيات من الشرفات على محاولتهما النشاز . بعد ذلك ، فى الحانة ، لم تكن الجرذان كافية لتلبية الطلبات عليها وصدقت ، مرة أخرى ، نبوءة العجوز : « عندما يكثر النبيذ ، تقل المؤن » . توجه « الخوسيه لويس » الى العم « راتيرو » قائلاً له فى غلظة : « لم تعد لك فائدة ، لتحجز لك مع الآن مكانا فى الملجأ » . فرد « الراتيرو » : « لا توجد جرذان لأنه يسرقها منى » . بمجرد أن أعاد « النينى » من مهمته للبحث عن ثعلب النهر ، ألقى عليه الراتيرو هذا السؤال :

— هل رأيته ؟

لم يجب الصبى . فرفع العم « راتيرو » عينيه من على القدر وكرر السؤال :

— هل رأيته ؟

تأخر الصبى برهة فى الرد :

— انه لا يتقن الصيد — قال أخيراً — ولا الكلب الذى يصعبه .

أمسكه « الراتيرو » من شعره وأجبره على رفع رأسه :

— أين رأيته ، تكلم ؟

تقلص فم الصبى فى تعبير عن الألم الذى يحسه :

— فى « لاس ريبويلتس » ، لكنه لا يفهم فى الصيد . لم يصد جرذة واحدة طول النهار .

تركه العم « راتيرو » لكن أصابع يده ظلت متعاصرة ثم

ضمها أخيرا لأصابع اليد الأخرى ، وكأنه يقبض على رقبة شخص ما ، ثم قال :

— لو أمسكت به ، بقتلته •

وظل يلهث لبعض الوقت من المجهود الذى بذله •

فى « سان اندريس اييرنون » فقدت الكلبة احدى عينيها • حدث هذا فى نفس اليوم الذى قتل فيه « الراينو جراندى » ، الراعى ، أفعى طولها متر ونصف المتر كانت ترضع نعجة « البرودن » بعد تخديرها • ادى جزع « الراتيرو » ورغبته المستمرة فى البحث بين نبات الاسل ، البسوص والسروال لأن تفقد « لافا » عينا • كان لا يمل من تدرار : « هيا ، ابحتى » • والكلبة مطيعة كانت تقتفى الآثار بين كرفس الماء واللبلاب • عندما خرجت من بين الأحراج وعينها مصابة كانت تهمهم همهمات خافتة • قال « الراتيرو » : « لم تعد تصلح ، أصبحت عجوزا » • أخذها الصبى بين ذراعيه وسهر بجوارها طوال الليل ليضع لها الضمادات • فى صباح اليوم التالى ، غسل بعصير المشمش عينا ، لكن محاولاته باءت بالفشل ، وبقيت الكلبة عوراء وعلى وجهها ارتسم تعبير غريب يجمع بين الصلابة والاكفهرار •

فى « سان خوان » ، وضعت الكلبة ستة كلاب بجلسود رقطاع وكلبا بلون القرفة • هبط « النينى » الى حيث يقيم امجوز ليزف اليه البشرى :

— لقد أصبحنا أقارب ، أليس كذلك ؟ — قال له امجوز :

— أقارب ، ياعم « روفو » ؟

— لنر • أليست الكلاب المولودة من « الدوكى » وكلبتك ؟

— بلى •

— اذن نحن أقارب •

لم يعتمد الصبى الوحدة - وهو الآن يفتقد وجود الكلبة
الى جواره - كل مرة يغادر فيها المغارة كانت الكلبة تنبئه
بمعيها وتتحير بين صحبتته وبين البقاء الى جوار صغارها -
ذات مساء ، عندما عاد مع الخارج ، وجدها تعوى بحرقه -
كان تحتها ، مختفيا بين ضرعها ، الكلب الذى بلون القرفة -
بأدره « الراترو » وعلى شفثيه ابتسامة خبيثة :

— باين عليه شاطر ومفتح -

نظر اليه الصبى دون أن يفتح فمه - أضاف العم
« راترو » :

— عيناه تتوقدان ذكاء -

تحير الصبى ثم سأل :

— والآخرون ؟

— الآخرون ؟

— نعم ، أين وضعتهم ؟

ارتسمت على فم العم « راترو » تعويجة ما بين بلهاء
وماكر :

— أين ؟ هناك -

كانت الكلبة تعوى الى جوار « النينى » الذى حمل الكلب
الصغير بين يديه وخرج من المغارة - كانت « لافا » تتقدمه
وتشمشم فى المنحدر ، ومن على تخوم حقول القمح وصلت
الى المروج ، رفعت رأسها للريح ثم توجهت ، دون تردد ، الى
النهر فى خط مستقيم -

وهناك جثمت على الأرض مطاطنة الرأس فى استسلام -
عثر « النينى » على ست الحشث بين نباتات البوط ، وهناك
فى نفس المكان حفر حفرة عميقة وأمال عليها التراب -
بعد أن انتهى وضع صليبا خشبيا على كومة التراب بينما
كانت الكلبة مكومة الى جواره وتنظر اليه بمعيها الوحيدة
شاكرة -

غالباً ما تهاجر طيور اللقلق فى مواعيد غير منتظمة .
ومع هذا لا يميز « النينى » عن التنبؤ بموعد عودتها كل
عام . فى المنطقة يسود اعتقاد قديم مفاده أن طيور اللقلق
بشير بقدوم الربيع ، بالرغم من أن « سان بلاس » ، وهو
التاريخ الذى تحضر فيه عادة ، يكاد يقع فى منتصف فصل
الشتاء القامى . اعتاد المعجوز ترديد : « فى قشتالة ، كما
هو معروف ، الشتاء تسمة أشهر والجحيم (١) ثلاثة » .
ونادراً ما كان يشذ عن تلك القاعدة .

كان « النينى » يعرف أن طيور اللقلق التى تمشى
فى البرج هى بعينها الطيور التى هاجرت من قبل ، لانه قد
زودها ذات مرة بأطواق معدنية وفى العام التالى أتت فى
موعدھا وكانت الأطواق تلمع فى ضوء الشمس على قمة برج
الكنيسة كما لو كانت من ذهب . اعتاد « النينى » ، بعد
ذلك ، الصعود الى برج الأجراس كل ربيع ، بمناسبة عيد
الفصح ، ومن أعلى البرج ، تحت عصيات العشر . كان ينأمل
منبھراً منظر الأرض . فى مثل هذا التاريخ ، تنهض القرية
من العدم ، وتكتسب أرضھا مظهرًا خادعاً للخصوبة . كانت
الفلل تشكل بساطاً أخضر يذوب فى اللانهاية التى تحدها
سلسلة الروابي بأعرافھا التى يخفف من كابتھا اللون الأخضر
الكامى لنبات السعتر ، والأزرق الفاتح للخزامى والبنفسجى
الداكن لنبات المريمية . ومع ذلك ، لا تزال القمم العالية

(١) الجحيم : المقصود به أصل السيف ، ولقد استخدمت هذه الكلمة بدلا منه (فى
القول المأثور) للدلالة على قسوته وشدّة حرارته بالنسبة لشهور الشتاء الباردة
(المترجم)

مطوقة بالنلج الذى تنعكس عليه قزحيات الجص الكريستالى
المتقلب للمنحدر والسلوك الخانع لقطيع « الرايينو جراندى »
وهو يرعى أطراف النباتات والحشائش القصيرة بين الفجوات
والحصى .

تحت برج الاجراس تتمدد القرية المطوفة بالنهر
وطريق المحافظة ومخزن التبغ العمومى وحظائر « دون
أنثيرو » . يتراقص على صفحة النهر خيال أشجار الصنوبر
الثلاث المنخفضة الرؤوس . وعلى الجانب الآخر من النهر ،
كان « النينى » يلحج مغارته ، صغيرة على البعد ، وكأنها
جحر جندب (٢) ، وبالقرب منها أنقاض مغارة أجده
ومغارة « سجارىو » ، الفجرية ، ومغارة « المامس » ،
الأخرس . وهناك خلفها يرتفع جبل أشجار البلوط العمومى
الذى تطير فوقه الصقور والطيور الجارحة بحثا عن الطعام .

يبدو المشهد وكأنه بعث عجيب ، ومع وصول « سان
أجوستين » ، يورف النهر بنباتات متشابكة ، وتكتسى تخومه
يشقائق النعمان والأقحوانات ، وتتجمع روائح البنفسج على
شكل عناقيد فوق الخنادق الرطبة وتطعن الجنادب صمت
المنطقة بهياج عنيد .

ومع ذلك ، فقد ظل المناخ عبوسا هذا العام فى
« سانتا ماريا كليوفى » برغم أن مفكرة حساب الأيام تشير
الى بقاء أسبوعين فقط على بداية الربيع الرسمية .

كانت السحب العالية ، القاتمة بعض الشيء ، تشق
عباب السماء بسرعة ، لكن رياح الشمال لم تهدأ وتبخرت
الأمال فى نزول المطر . يجوار النهر ، فى قطع الأرض
الصغيرة التى تصل إليها المياه ، زرع رجال القرية السلق
والخرشوف والبازلاء القصيرة . حصدا آخرون غلال الأراضى

(٢) الجندب . نوع من الجراد - (المترجم) .

العالية كعلف أخضر للحيوانات وبدروا القمح قصير الدورة -
 تحملت الأفراس وبلبن الماعز والنعناع صنع الجبن لسوق
 « توريشيو ريجو » - كما يعرض الأهالي خلايا النحل الجديدة
 للنسمات لكي يتفادوا تجمع النحل السابق لأوانه - لم يجد
 « النيني » الوقت الكافي لتلبية طلبات أهل القرية :

- « نيني » ، أريد إقامة خلايا نحل جديدة - ان لم
 أحصد قمحا أجمع - على الأقل - عسلا -

- « نيني » ، أصحيح أنني لو قمت بهدم خلايا الملكات
 سيهرب النحل ؟ وبحق الشياطين كيف أهتدى لمعرفة خلايا
 الملكات ؟

ويلبى « النيني » طلبات هؤلاء وأولئك بدمائه
 المعروفة -

انقشمت السحب في « سان لمبيرتو » ، وعلت السماء
 وفوق حقول الغلال بدأت تتشكل خلقات بيضاء - دق
 « البرودن » ناقوس الخطر ذات مساء في العانة :

- لقد وصلت الطفيليات ! لن تفلح معها أية وسيلة -

أجابه الصمت - منذ أسبوعين لا يسمع في القرية سوى
 نعيب اللقلاق أعلى البرج ، والثغاء الحزين للخراف الوليدة
 خلف أسوار المظائر - كان الرجال والنساء يمشون في شوارع
 القرية المتسخة يجرجرون أقدامهم في التراب ، النظرات
 غائمة ، وكأنهم ينتظرون مصيبة - كانوا يعرفون جيدا معنى
 الطفيليات لكي لا يهدأ لهم بال - ففي عام الجوع أتت على
 كل المزروعات ، وبعده بعامين لم تحترم سنبلة واحدة ،
 عندما يسمع رجال القرية هذا الاسم يعقفون أصابعهم أليا
 على شكل صليب كما لو كانوا يرون « دون ثيرو » وهو يصلي
 باللاتينية من فوق منبر الكنيسة على ميت - تهدد الطفيليات
 وتتوعد في شهر أبريل من كل عام * ومن مقولات العم
 « روفو » : « لو لم يكن أبريل ما مر عام سيء » - ولذلك ،
 فان رجال القرية يبغضون من أعماقهم هذا الشهر الجامع

المتقلب . فى «سان فيديل سيجمارينجا» ، ونظرا لطول فترة الجفاف ، اقترحت «دونياريسو» اخراج تمثال القديس للتوصل بنزول المطر ، لكن «دون ثيرو» ، قسيس «توريثيو ريجو» ، بشبابه وتواضعه الزائدين ، وخجله المتردد، لم يكن فى نظر رجال القرية أهلا لهذه المهمة الخطيرة . فيحكى عن «دون ثيرو» انه فى نفس اليوم الذى قتل فيه «اليايو» ، حداد «توريثيو ريجو» ، أمه ضربا بالعصا وبعد أن دفنها تحت كومة من الروث ذهب اليه ليعترف ، فما كان من «دون ثيرو» الا أن عفا عنه وقال له متلطفا : «صل يابنى ، ثلاث مرات بكثير من الخشوع ، ولا تفعل هذا ثانية» ١١ .

ومن هنا كان الحنين لـ «دون ثوسيمو» ، القس الكبير، يزداد بمضى الوقت . كان «دون ثوسيمو» ، القس القديم ، يرتفع عن الأرض مترين ونصف المتر ويزن ١٢٥ كيلوجراما، كان رجلا بشوشا لا يتوقف أبدا عن النماء . كانت أم «النينى» ، «لا مارثيلا» ، تخوفه به : «إذا لم تصمت ، سأحملك الى القس الكبير ، لتراه وهو يشجر» . وعندئذ كان «النينى» يسكت لأنه يخاف هذا الرجل الضخم ، المتشع بالسواد ، ذا الصوت الرعدى . وفى صلوات الاستسقام كان القس الكبير يبدو وكأنه لا يتوصل بل يأمر : «الهنا ، أمدنا بالمطر النافع واجعل التيارات السماوية تجرى على سطح الأرض العطشى» وكأنه يتوجه لنظير له فى حديث ودى . كانت القمم العالية تبدو وكأنها ترتجف متأثرة بصوته الرعدى .

وعلى خلاف هذا ، كان «دون ثيرو» يجثو على ركبتيه فى التراب ، أمام الصليب الحجري ، ويقول مطأطأ الرأس ورافعا ذراعية النحيلتين : «الهى ، نسألك رفع مقتك وغضبك عنا بحق هذه القرايين التى نقدمها لك ، وأغشنا بالمطر العميم» . وكان صوته يخرج ضعيفا مثل ذراعيه

ويحتاج سكان القرية شعور بعدم الثقة في أن يجد مثل هذا الكلب الباهت استجابة من السماء .

ومثل ما تقدم كان يحدث في الخطب المنبرية - ففي كل مرة يصعد فيها « دون ثوسيمو » منبر الكنيسة يحدثهم عن عواقب الزنا وعن نار جهنم . كان يلقي الخطبة بصوتات من الأعماق ، وبعد انتهاء الموعظة الأخيرة يخرج الرجال والنساء من الكنيسة وهم يتصببون عرقا ، وكأنهم قد شاركوا الكافرين عذاب الجحيم لعدة أيام .

وعلى خلاف هذا ، كان « دون ثيرو » يتحدث ، بصوت عذب وبحنان بالغ ، عن الرب الرحيم والقريب ، وعن العدالة الاجتماعية وعدالة توزيع الثروات ، لكن رجال القرية ونساءها لم يكونوا يفهمون شيئا من ذلك وإذا كانوا يتقبلون هذا النوع من الخطب ، فقد كان فقط لأن « دون أنتيرو » وابنه الأكبر ، « المامل » ، عند خروجهما من الكنيسة ، في فصل الصيف ، يملكهما الغضب من « دون ثيرو » الذي يتحدث في السياسة ويدس أنفه فيما لا يعنيه .

وبرغم هذا الفارق ، فقد كانت القرية تذهب عن بكرة أبيها لصلوات الاستسقام خلف « دون ثيرو » . قبل أن يشق الفجر طريقه ، وعندما يرسل ديك « الأنتوليانو » الأبيض بصياحه المتقطع من خلف أسوار الحظيرة ، يتكون صفان بدائيان أسودان ويقتفیان بختنوع خطوط المسارب التي لم تتضح بعد . وخطوة خطوة يرددون تسبيحات صلاة الفجر وعندما يصلون الى إحدى المعجزات التي تشتمل عليها التسبيحات يصمتون ، فيتناهى الى مسامعهم حينئذ الصوت العذب لجلاجل نعاج « الرايينو جراندى » من على سفح الجبل . وعندها ينشد سكان القرية بصوت نشاز ، لكنه موجه : « المفرة ، يا ربنا » . وهكذا حتى يصلوا الى صليب الرابية الحجرى وأمامه يجثو « دون ثيرو » متواضعا ويقول : « الهى ، نسالك رفع مقتك وغضبك عنا بحق هذه القرايين »

التي نقدمها لك ، واغتنا بالمطر العميم » - وهكذا ، يوم
بعد آخر -

انتهت صلوات الاستسقاء في « سان ثيليتينو » - طلعت
السماء صاغية ، حل يوم في زرقة اشد من سابقتها - وبالرغم
من هذا ، فقد لاحظ « النيني » ، عند غروب الشمس ، ان
دخان المغارة بعد خروجه من المدخنة يهبط ويزحف على
منحدر القمة مثل الأفعى - ودون أن يفكر مرتين استدار
وهبط المنحدر عدوا ، وذراعاه مرفوعتان وكأنه يحاول
الطيران - وهو على القنطرة بالقرب من النهر لمح « البرودن »
مقوسا على الأرض :

- برودن ! - صاح هائجا بينما كان يشير باصبعه تجاه
المدخنة - : دخان على الأرض ، ماء في السماء ، ستمطر غدا -
رفع « البرودن » وجهه المبلل بالمرق ونظر اليه مشوشا
وكانه ينظر لشبح ، غرس الفأس في الأرض بسرعة ، ودون
أن يرد بكلمة جرى كالمجنون في شوارع القرية ملوحا بيديه
في الهواء وصائحا كالمعتوه :

- ستمطر ! هذا ما قاله « النيني » ! ستمطر !

ترك الرجال ما بأيديهم وابتسموا من الأعماق وأطلت
النساء من النوافذ الضيقة وهن يهملن : « من (يقك) لباب
السماء » ، وأصابت العدوى الأطفال والكلاب فجروا خلف
« البرودن » وهم يصيحون : « ستمطر ! ستمطر غدا ! هذا
ما قاله « النيني » » -

في تلك الليلة جرى النبين في الحانة كالنهر - كان
السرور يعتلي الرجال حتى « المامس » ، الأخرس ، أصر على
التعبير عن نشوته بوضع أصابعه فوق فمه في حركات
منفصلة - لكن لفظ أهل القرية لم يسمح لهم بترجمة حركاته
مما اضطر « المامس » الى الاكثار من الايماءات حتى قال له
« الأنتوليانو » : « يا أخرس ، لا ترفع صوتك هكذا ، فلست

أصم « . وضحك الجميع ، ثم شرع « البيرخيلين » فى غناء « اهنة خوان سيمون » فسكت الكل ، لكن « البرودن » وكز بكوعه « الخوسيه لويس » وتمتم : « ايه ، أنت ، انه يعنى الليلة مثل الملائكة » .

فى اليوم التالى ، ظهرت سحابة كبيرة زرقاء رصاصية فوق ربوة « دونالتيو » ثم انزلت تدريجيا فى الاتجاه الجنوبي الشرقى .

أمعن « النينى » النظر اليهما بمجرد أن نهض من فراشه . اتجه نحو « الراترو » وقال له :

— ها هو المطر -

ومع المطر نشطت الريح من عقالها ، وفى المساء ، كانت الريح تعوى بكأية وهى تضرب القمم العالية . فتح هدير الرياح فى عقل الصبى بابا للتخيلات . تخيل أموات المقابر ، يتقدمهم الجد « رومان » والجددة « الومينادا » ، والحجلان والثعالب والطيور التى قتلها « ماتياس ثليمين » ، المختلس ، وهم يتوافدون زمرا على القرية للمطالبة بتصفية الحساب .

لكن الريح اقتصرت ، هذه المرة ، على توزيع السحابة الكبيرة على المنطقة ثم خمدت . أما الرجال ، الجالسون على عتبات بيوتهم ، فقد تركوا أنفسهم عرضة للمطر بينما كانوا يفركون أيديهم الخشنة ببعضها ويقولون ناظريث الى السماء بعيون مطبقة :

— ها هو المطر . لم يخلف موعده هذا العام .

صبيحة اليوم الرابع أيقظ الصمت « النينى » . أطل الصبى من فم المفارة فوجد السحابة قد انقشعت وشماع

الشمس الخجول ينثر خصلاته الطويلة البيضاء لرسم قوس
قزح مضيئاً بين قمتي «دوناليو» و «كلورادو» - وصلت الى
الصبي الرائحة الرخوة للأرض السكرى وسرعان ما أحس
بفتاء العندليب ، هناك تحت ، بين أشجار الصفصاف
وعندئذ أدرك أن الربيع قد أتى .

- ١٢ -

مند « سان جريجوريو » تحول صوت الجنادب فوق المنطقة الى هدير حقيقى . كان صراخا كثيفا وعنيدا يصعب هوق الأرض المزروعة ، وعلى مجرى النهر الضامر ، وادوات الطين والقش البائسة والقمم الكثيبة التى تزين الاق . نوعا من الذبذبة العصبية التى تضيق ، ساعة الشفق ، مى موجات متنامية كمد البحر لكى تخف حدتها فى الساعات الوسطى من الليل أو النهار . على أية حال ، كان صوت الجنادب له جرم وكثافة يتسربان الى كل الفجوات ويشكر خلفية صاخبة لسائر الأنشطة ، لكن رجال القرية ونساءها لم يكونوا يلتفتون اليه ، فقد كان شيئا ، مثل الهوام ، يتسمع بايقاعه الحيوى الخاص دون أن يحسوا به . فقط كانت « لاكلومبا » ، امرأة « الخوستيتو » ، تتجه أحيانا الى زوجها ، ويداها مفتوحتان ومتقلصتان فوق صدرها وهى تولول :

— هذه الجنادب ، « خوستو » . هذه الجنادب تطبق على أنفاسى .

فيما عدا ذلك ، كان ظهور الجنادب يعنى بالنسبة للقرية بداية فترة ترقب طويلة . فالمزروعات بعد تنقية الحشائش الضارة منها ، تلمع بالخضرة من على البعد وكأنها أمل قريب المنال ولا يكاد الرجال يرفعون أعينهم عن السماء . مصدر الماء والجفاف ، الصقيع والطفيليات ، وعليها وحدها يتوقف امتلاء السنايل وامكانية الحصاد .

مع ظهور الجنادب اعتادت « لاكلومبا » أن تطلب « النينى » ، لكى يعزل الدجاجة ويمهد بالكتاكيت الى الديك المخصى . لم

تدفع له عادة قيمة خدماته لأنها تعتقد ان النقود تفسده الصبيان ، ومن ثم كانت تكتفى بتقديم قطعة شيكولاته وكسرة خبز له ، وبعدها تتحدث معه من مسافة ، بجانب حافة البئر ، وعندما يمشى الصبي يجتاحها احساس بالاضطراب ، مثل حكة غير محددة تنتشر في كل جسدها - كان يحدث لها نفس الشيء عندما يقترب منها أحد أفراد القرية - ولهذا السبب انتهى بها المطاف لعدم مخالطة أحد - في الحقيقة ، كانت « لاكلوميا » تجن لطفولتها في احدى ضواحي المدينة ولم تتأقلم مع هدوء القرية ولا مع ترائها وقذارتها أو الحياة البدائية فيها - كانت « لاكلوميا » تشترب ، كحد أدنى للعيش ، وجود الماء الجارى وشوارع مسفلتة وسينما ومرفص لقضاء أوقات الفراغ - كانت لا تمل من (الزن) على « الخوستيتو » ، زوجها :

- « خوستو » ، عندما أنهض من السرير ، تملكني الرغبة فى التقيؤ من فرط الاحساس بخواء العالم حولي -
فرد « الخوستيتو » مغتما :

- والى أين نذهب ونحن على هذا الحال ؟

فتبيض عينا « لاكلوميا » :

- الى الجحيم ! لأى مكان ! ألم يذهب « الكينثيانو » ؟

- يا له من نموذج ! « الكينثيانو » ذهب حمالا الى « بلباو » ليموت جوعا هناك -

- الموت جوعا فى « بلباو » أيسر من الموت كمدا فى هذه الصحراء -

تعتبر « لاكلوميا » القرية صحراء ، ولم يكن يغير من وجهة نظرها تلك وصول الهداهد ولا القبرات وطيور الخطاف - ولم يكن يغيرها كذلك وصول المجلان ، واليعاسيب ، والعقاقع الزرقاء ، أو الحمام المطوقة وهى تطير فى أسراب.

منتظمة على ارتفاع ألفى متر • ولم تكن تغيرها الاصوات
المحمومة لصقور الليل ، ولا السيمفونية الرتيبة للجناب
عقوق المزروعات أو نفاق البوم الجاف •

لم تكن « لاكلومبا » تتجانس مع « النيني » فهي
تعتبره نتاجا لتلك الارض البائسة وتنظر اليه باخنقار
وازدراء كل مرة تقابله • ومن هنا فلم تكن تلجأ اليه الا في
حالات الضرورة القصوى مثل قطف عسل خلايا النحل ، او
خصى الخنزير ، أو عزل الدجاجة وحجز الديك المخصى مع
« الكتاكيت » وفي مقابل هذا تحمل « الخوستيتو » مسئولية
وحدتها وخذلانها :

— و « لونخينوس » ، تكلم ؟ ألم يترك القرية ؟ هل كان
يوجد من هو أبأس منه في المنطقة كلها ؟

— هذا شيء مختلف • لقد ذهب مع أخته الى « ليون » •
الى مكان مضمون وجاهز •

— الكل لديه أسبابه ودوافعه ما عدانا نحن •

ومع هذا ، ففي كل مرة يحدثه فيها « فيتوسولورثانو » ،
الرئيس ، عن موضوع المغارات الا ويلوح للعمدة بصيص
من أمل :

— لو يساعدنى الرئيس ... — كان يقول — • لكن قبل
هذا يجب الانتهاء من مشكلة المغارات •

وعندئذ تهيج « لاكلومبا » :

— ساكل أنا من الأحلام •

— أنت ، أنت ... أنت تصلحين كل شيء بالكلام

عازا تفعلين لو كنت مكانى ؟

— أضع أصابع الديناميت وأشعلها • وسترى رشاقة

« الراتيرو » وهو يجرى •

— واذا لم يجز ؟

— كلب ومات •

كان « الخوستيتو » قد التقى منذ يومين فى الميدان
بالسيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، فنادته على
جانب :

— « خوستو » • أصحيح أنكم تريدون طرد « الراترو »
من مفارته ؟

— هذا ما نريده • ستسقط فوقه ذات يوم وعندئذ
يحدث مالا تحمد عقباه •

— أصلحها له ، هذا أسهل بكثير •

احمرت ناصية « الخوستيتو » :

— فى الحقيقة ، ليست هذه هى القضية ، يا سيدة
« كلو » • الأمر يتعلق ، صراحة ، بالسياح ، تعرفين ؟ فلو
جاء السياح هنا وشاهدوها ، فسيظنون أننا نعيش فى
مفارات ، أليس كذلك ؟

— السياح ، السياح • • • دعهم يقولوا ما يشاءون !
ألا يمضون هنا وهناك كاشفين عن سيقانهم دون أن يقول
لهم أحد شيئا ؟

واذا كان ما مضى لا يكفى ، قذات يوم أحاط « الخوسيه
لويس » « الخوستيتو » علما باستحالة اخلاء مفارة « الراترو »
عنوة • لقد اكتشف الخوسيه لويس ، بعد حديث طويل مع
قاضى « توريشيوريجو » ، أن « الراترو » ، دون أن يدفع
مليما واحدا ، يعتبر المالك الحقيقى للمفارة •

— المالك ؟ — سأل « الخوستيتو » متحيرا — • هل دفع
لأحد فيها نصف بيزيطة ؟

رد « الخوسيه لويس » بثقة العالم ببواطن الأمور :

– نقود ! القانون لا يأخذ في الاعتبار المال وحده • بل عامل الوقت أيضا •

– الوقت ؟

– نعم • لو وضعت يدك ذات يوم على شيء ما ، تصبح مالكا له بمجرد مرور الوقت •

هذا كل ما في الأمر •

قطب « الخوستيتو » جبينه وخفقت ناصيته و كانها شيء يتحرك :

– حتى لو كنت سارقا لهذا الشيء ؟

– حتى لو كنت سارقا له •

– لقد وقعنا ، اذن ، في حيص بيص • رد « الخوستيتو » حزينا •

منذ مسألة المفارقة ، بدأت « لاكلومبا » تنظر الى « النيني » بغضب وكأنه عدوها اللدود • و رغم هذا ، يبدو أن الصبي كان يجهل شعورها نحوه ، ومن ثم فلم يدر بخلده أبدا أن يأتي يوم يتخذ فيه قرارا خطيرا مثل سكب صفيحة بنزين في بئر « الخوستيتو » ، لكن الرياح تأتي بمالا تشتهي السفن •

في « سان بيرناردينو » ، أرسلت « لاكلومبا » في طلب « النيني » ، كما هي العادة كل عام ، لعزل الدجاجة • حضر الصبي دون ابطام ، نتف صدر الديك المخصى ثم وضعه في الصندوق فوق الكتاكيت القلقة لتهدئتها • كانت الدجاجة ترمقه ببلاهة وهو يفعل هذا من وراء قضبان القفص • وكان الأمر لا يعنيه • وهكذا فبمجرد أن انتهى الصبي ، وبدلا من أن تقدم له « لاكلومبا » الخبز والشيكولاته ، كالعادة ،

ظلت تنظر اليه بنفس بلاده الدجاجة . كانت « لأكولومبا » تقول أحيانا أن وجه « النيني » بارد مثل وجوه الموتى حتى فى أشد أيام القيظ . و « المالبينو » من جانبه كان يوضح بأن هذا يحدث لكل من يفكرون كثيرا ، لأن الملح عندما يعمل تغلى الرأس ويبرد الوجه ، فالسمرات الحرارية موزعة بالقسطاس على جميع أعضاء الجسم وإذا تجمعت فى عضو لزم خلو عضو آخر منها . وإذا حدث وكان « الرايينو جراندى » حاضرا ، فانه يعضد وجهه نظر صاحب الحانة ويتذكر الوجه البارد لـ « دون أوستاسيو دى لا بيدرا » عندما كان يتحسس الفقرتين الزائدتين لأبيه . لكن « النيني » الآن وأمام نظرة « لأكولومبا » المتبلدة لم يسعفه لسانه الا عن :

— حسنا ، كل شيء جاهز .

عندئذ بدا وكأنها استيقظت من غفوتها ، وضعت يدها على كتف الصبى وقالت :

— « نيني » ، لماذا لا تتركون المغارة ؟

— لا — رد الصبى بجفاء .

— لا تريدون تركها أو لا يمكن معرفة السبب ؟

— الأمران معا .

— الأمران معا ، الأمران معا ! — جذبته من طوقه وعلت نفمة صوتها الحانق تدريجيا — : ذات يوم سيقرض الروماتيزم عظامك ، لأنك تعيش تحت الأرض ووقتها لن تستطيع فتح فمك ولا تحريك قدمك .

لم يهتز « النيني » ، ورد بثقة :

— الأرانب تعيش أيضا تحت الأرض ولا يأكل الروماتيزم عظامها .

فقدت « لأكولومبا » أعصابها . رفعت يدها وهوت بها على وجه الصبى لتترك عليه أثر لطمتين مهيبتين . وبعدهما

رفعت يديها الى خديها ، وكأنها المهانة ، وشرعت فى بكاء متشنج • فى نفس تلك الليلة مرق « النينى » صفيحة بنزين من جراج « دون أنتيرو » وأفرغها فى بئر « الخوستيتو » • فى الصباح ، شربت « لاكلومبا » ، كالعادة ، كوبا من الماء على الريق ، ثم تمطقت :

— هذا الماء له طعم — قالت •

— (يا فتاح يا عليم) — رد « الخوستيتو » :

— أقول لك ان الماء له طعم — أصرت « لاكلومبا » •

كانت أصابع « الخوستيتو » ترتعش بوضوح عندما قرب أنفه من الاناء :

— تعرفين أن معك حقا ؟ هذا الماء تفوح منه رائحة البنزين •

أشعل عود ثقاب فاضرمت النار فى السائل وعندها بدأ « الخوستيتو » فى ضرب صدره بقبضتيه والضحك ملء شذقيه • بدا عليه الجنون عندما أخذ الدراجة وقال لامراته بحركات منفعة :

— الزمى الصمت ، أسمعين ؟ يوجد بترول هنا •
سأبلغ الرئيس • هذا أكثر أهمية من موضوع المفارقات •
لكن قبل أن يأتى الرئيس ، ولا كلمة ، أسمعت ؟

فى المساء حضر الرئيس فى عربته الصغيرة •

لم تكن الشمس قد اختفت بعد ولا يزال صوت الكروان الحاد يسمع من على سفح قمة « ميرينو » وصياح الجنادب المحموم بالقرب من سطح الأرض •

جرب « الخوستيتو » بيدى مرتعشتين ، وعندما شاهد الرئيس اشتعال الماء فى الاناء أحس بموجة باردة تجتاحه ، وتحدث أثرا عكسيا فى صلعته التى كانت تتصبب عرقا •

— حسنا ، حسنا * — قال أخيرا في حركة عصبية متواطئة — * يجب احضار فنى للمعاينة يمكن ان يكون هذا اكتشافا عظيما * حتى أنا لا يمكننى التكهّن بالنتائج * سأعود غدا * مزيد من الحيلة حتى أعود *

بعد أن هبط الليل ، تجمهر سكان القرية أمام بيت « الخوستيتو » * تحدث « روسالينو » ، الوكيل ، قائلاً بأن لديهم علماً بزيارة المحافظ التنكرية لأن « الأنطوليانو » و « الرايينو تشيكو » قد شاهدوا السيارة وبأن شيئاً مهماً لابد وأن يكون قد حدث بالقرية * ومن ثم فيجب على « الخوستيتو » ، بصفته عمدتهم ، كشف النقاب عن الحقيقة *

بعد هذه الخطبة العصماء هبط من الروابي الصخب المحموم للجنادب وكأنه رائحة خانقة غمرت كل شيء ، تردد « الخوستيتو » ثم قال أخيراً :

— لا شيء ، لم يحدث شيء *

لكن السيدة « ليرادا » ، أم « لاساينا » ، زوجة « البرودن » ، زعقت بصوتها الجهورى :

— هيا ، « خوستو » ، لا تجعلنا نستعطفك *

وقالت « دومينيك » ، امرأة « الأنطوليانو » :

— هذا عيب كبير ، « خوستو » *

فالتفت إليها « خوستو » :

— ما العيب فى هذا ، يا « دومينيك » ؟

فقالت :

— أن تجعلنا نستعطفك *

عندئذ رفع « الخوستيتو » يده فى ايماءة مصالحة ثم قال : « حسنا » * وفى رصانة مفتعلة وصل الى البئر ، ملأ

سطلا صغيرا وأشعل فيه النار • تصاعدت ألسنة اللهب
الحلزونية نحو السماء المظلمة فأخرج « الخوستيتو » من
أعماق صدره صوتا مهيبا يليق بمنصب العمودية :

— أعزائي ! تعوم المنطقة من ربوة « دونالدثيو » الى حلمة
« توريثيو ريجو » على بحر من البترول • هذا ما اكده
الرئيس • • غدا سنصبح أغنياء • لا أطلب منكم الآن سوى :
الهدوء والتعقل •

وضعت صيحات الحماس ختاماً لكلماته • تعانق الرجال
بحرارة وتبعثهم النساء ، طارت القبعات المتسخة في الهواء
وتجرد « البرودن » من سترته الداكنة المتأكلة وظل يتب فوقها
كالمجنون • من حين لآخر كان يبتعد عن السترة ويقول :
« ضعى قدمك عليها ، يا « دومينيك » • الثروة تحتها وعلينا
الحافها » • وتوجه « المامس » ، الأخرس ، واللعاب يسيل من
فيه ، نحو العمدة وكأنه ذاهب لالقاء خطبة لكنه لم يزد عن :
« خى » مصحوبة بزبد أصفر يتطاير من شذقيه • ثم عاد
وكرر : « خى » • وعندئذ صاحت « لاساينا » كمن فقدت
رشدها : « لقد تكلم الأخرس ! لقد تكلم الأخرس ! » •

وعقبت السيدة « ليرادا » ، السوداء المتفضنة مثل حبة
زبيب : « انها لمعجزة • لقد تكلم الأخرس » • وصاح
« ألبرخيليو » ، الجالس فوق كتفى « المالبينو » : « الصوارينخ ،
يا « فروتس ! » • وفي لمح البصر ، عاد « الفروتس » ،
المحلف ، من مبنى البلدية وأخذت الصوارينخ تهتك أستار
السماء بذيول مضيئة لتتمخض في الأعلى عن انفجار قصير
مكتوم • تقدمت السيدة « كلو » ناحية « لاساينا » متعثرة ،
وهى تشق لنفسها طريقا بين الجموع ، لكنها عند رؤية
« ألبرخيليو » على كتفى « المالبينو » صاحت فيه : « انزل •
ستسقط على الأرض » •

سألت بعد ذلك « لاساينا » : « أصبح تكلم الأخرس؟ » •
ردت « لاساينا » : « قال (عفارم) ، سمعه الجميع » •

وعندئذ أشارت السيدة « ريو » ، التى كانت تقف خلفها ،
بعلامة الصليب على صدرها • لم يكن بعيدا عن هذه الجبلية
سوى « الجوادالوبى » ورجاله الذين انتحوا ركنا قصيا
مطأطنى الرؤوس • وأخيرا ، شق الخولى لنفسه طريقا ،
يدفعات من يده ، حتى وقف فى مواجهة « الخوستيتو » •
سأله بصوت مغتم :

— ونحن يا « خوستو » ؟ ما الذى سنجنه من وراء هذا ؟

تهلل وجه العمدة :

— سيكون لكم نصيب ، بالطبع • البترول هنا يكفى
الجميع • ستحضرون نساءكم وأولادكم وتعيشون معنا •
فى تلك الليلة لم ينم أحد فى القرية ، وفى الصباح ، بمجرد
أن حضر السيد المحافظ ومعه رجلان ملفزان متجهمان فى
السيارة الكبيرة ، طوقته الجموع الهائجة التى يغالبها النعاس •
لكن « الخوستيتو » عندما أشعل عود الثقاب وقربه من السائل
فانطفا العود ، سرت حوله هممة بفقدان الأمل وخيبة
الرجاء • أصبح وجه « الخوستيتو » شاحبا ، لكنه أعاد الكرة
ثلاث مرات متتالية دون نتيجة ، الى أن دعاه المحافظ ، أخيرا ،
الى دخول البيت بصحبة الخبيرين ، وعندما خرجوا أحاطت
بهم الجموع مترقبة ، فتسلق المحافظ ، الذى كان يتوارى
خلفه « الخوستيتو » ، حافة البئر وقال بصوت مغتم :

— أيها الفلاحون : لقد كنتم هدفا لدعاية سخيفة •
لا يوجد بترول هنا • لكن لا يجب أن يفرا هذا من عزيمتكم ،
فالبتترول عندكم فى أرضكم المحروثة الخصبة وفى أسنة
محاريثكم • استمروا فى العمل ، وبمجهودكم سترقى حياتكم
وستساهمون فى عظمة وطنكم • فلينهض الريف ويتقدم !

لم يصفق أحد • عندما هبط المحافظ من على حافة البئر
أخرج منديلا أبيض ومسح به صلعته اللامعة ، ربت على كتف
« الخوستيتو » وهمهم : « آسف » • ثم رفع صوته وقال :

« حقا ، اننى لفى غاية الأسف » • اتجه بمد ذلك الى الرجلين
المهيئين للمغزى وأشار الى السيارة : « تفضلا » • فتح لهم
السائق ، بجلته الرسمية ، الباب واختفت العربة الكبيرة فى
الطريق وخلفها سحابة من التراب •

- ١٣ -

عندما تجاوز العم « راتيرو » نهاية الظل اطبق جفنيه من شعاع الشمس الوليدة • يبدو وهو داخل المغارة ، وفي مقابلة الضوء ، أكثر قصرا وضخامة من حجمه الحقيقي ، كما أن وقوفه بلا حراك وعليه قبعته التي تصل الى الاذنين جعله أشبه بتمثال • كانت ذراعاؤه متهدلتين على طول جسمه ، حيث تصل يداؤه وأصابعه المتساوية ، وكأنها سويت بمقصلة ، الى ركبتيه • بعد بضع ثوان ، فتح الرجل عينيه وألقى بنظرة على حقول الغلال المضربة بشقائق النعمان • يتحول صوت الجنادب في مثل هذه الساعة الى ايقاع قوى وكأنه طاقة كهربائية تسرى في الأسلاك لأول مرة • ارتفعت عيننا « الراتيرو » شيئا فشيئا حتى وقعتا على القمم العالية التي تشبه قواعد السفن المعرضة لضوء الشمس ، ثم انزلتتا ، أخيرا ، على السفوح الجرداء وتوقفتا على قنطرة الألواح الخشبية التي تربط المغارة بالقرية :

- حانت ساعة الهبوط - قال بههمة لا تكاد تسمع -

تقدم « النيني » اليه ، يتبعه الكلبان ، ووقف الى جواره • مازال على عينيه أثر النوم ، لكنه داعب بابهام قدمه اليمنى في حركة آلية شعر الكلبة العوراء التي كانت تقبع الى جواره راضية ، بينما كان «لوى» ، الكلب الصغير، يجرى كالمثلث حوله •

- بهذه الطريقة سنقضى على الصفار في الأعشاش وسيزداد الأمر سوءا - نبه الصبي • نفض الرجل على التوالى فتحتى أنفه من المخاط ثم مرر عليهما ظهر يده ، وقال :

ـ لابد وأن نقتات بشيء ـ

منذ أن بدأت الجردان تتناقص ازداد صمت العم
« راتيرو » ـ كانت قبعته المتسخة التي تصل الى اذنيه تعدد
شكل جمجمته وكثيرا ما تساءل الصبي عما ينتمر بداخلها ـ
في مثل هذا التاريخ منذ أعوام كان « الراتيرو » يدخر بما
فيه الكفاية لانقاذ فصل الصيف ، لكن الموسم الأخير كان
سيئا والآن ، اقترب موعد الخطر ، والجوع ينتصب أمامهما
كشبح أسود ـ

ـ فى « سان بيتو » يتم التصريح بصيد سرطان الماء ـ
ربما يكون هذا العام كثير الخيرات ـ الح الصبي ـ

أرسل « الراتيرو » زفرة عميقة ولم يقل شيئا ـ ارتفعت
حدقتاه من جديد وتسمرت على القمم الرمادية التي تغطى
الأفق ـ أضاف « النيني » :

ـ فى الصيف نصعد الى الجبل لقطع لحاء أشجار البلوط،
التي يشتريها « المارثيلينو » ، الدباغ ، بثن لا بأس به ـ
من الأفضل الانتظار ـ

لم يرد « الراتيرو » ـ صفر تصفيرة خافتة فلبى الكلب
الصغير النداء ـ حينئذ جلس « الراتيرو » القرفصاء وقال
مبتسما : « انه يرى جيدا » ، ثم شرع فى مداعبته فهمهم
الكلب بغضب مصطنع وأخذ يلثم يديه الخشنتين ـ

كانت أيام الفراغ طويلة ، وتعود « الراتيرو » أن يشغلها
بتنظيف المنارة أو بتدريب الكلب الصغير بالقرب من النهر
أو بتبادل أطراف الحديث ، عند مغيب الشمس ، على
مصطبة « الأنتوليانو » أو فى حانة « المالبينو » ـ فى بعض
الليالى ، وقبل أن ينصرفوا الى بيوتهم ، كانوا يذهبون الى
الاصطبل لرؤية « الرايينو تشيكو » وهو يحلب البهائم ـ
كانوا يقولون له : « لا تتحدث اليوم اليها » ، وبعد أن ينتهى

يذكرون أنفسهم قائلين : « اليوم لم تدر الكثير من اللين » .
 وفى اليوم التالى ينبهونه : « تحدث مع البقرة عند حلابتها ،
 ياتشيكو » . وعندئذ يشرع « الرايينو تشيكو » فى مونولوج
 عذب فتزيد الكمية سطلا عن البارحة فيتغامزون مؤكدين على
 صدق نظريته : « رأيتم هذا ؟ شىء لا يصدقه العقل » . فى
 بعض الأحيان ، كان الحديث ينصب على فتى «توريثيو ريجو»
 الذى يصيد الجرذان ، أثناء تدخينهم بكسل فى الاصطبل أو
 على مصطبة « الأنطوليانو » ، فيقول الأخير : « نفذه ،
 يا « راتيرو » . ما فائدة يدك اذن ؟ » . عندئذ يرتجف العم
 « راتيرو » قليلا ويتمتم : « دع عينى تقع عليه » . فيضيف
 « الروسالينو » : « لو كان ابنى أمى ما تركته » . واذا كانت
 المسامرة على الحانة ، يتجه « المالبينو » الى « الراتيرو »
 قائلا له :

— « راتيرو » ، لو دخل فقير دار غنى فهو لص ، أليس
 كذلك ؟

— بلى ، لص — يرد « الراتيرو » موافقا .

— لكن لو دخل غنى دار فقير ، فماذا يكون ؟

— ماذا يكون ؟ — ردد « الراتيرو » فى بلاهة .

— يكون جرذة !

أنكر « الراتيرو » بايماءة من رأسه .

— لا — رد أخيرا — الجرذان ليست سيئة .

وعندئذ أوضح « المالبينو » :

— أردت أن أقول : ان المال ليس وحده الذى يسرق .

فتعكر عينا « الراتيرو » كل مرة أكثر من سابقتها
 ويقول :

— كلامك فى محله .

اختتم عيد نهاية موسم الصيد في « سانتا ايلينا »
و « سان كاستو » ختاماً بأثسا وحزينا • أخرج : «الراتيرو »
من الخرج جرذة بعد أخرى حتى وصل المجموع الى خمس :

— لا يوجد أكثر من هذا •

أطلق « البرودن » ضحكة كريهة :

— لهذه الرحلة لم تكن تحتاج الى خرج •

أدار « الراتيرو » نظراته الغائمة حوله ثم عاد ليردد :

— الآن لا توجد فئران • انه يسرقها مني •

تقدم « المالينو » نحوه وقال غاضبا :

— فلتحمد الله على ما أنت فيه ، لأنه بعد عام لن تبقى
لك واحدة حتى تقوم بعدها •

تقلصت عضلات ساعدي « الراتيرو » عندما شبك
أصابعه وقال بصوت مبجوح :

— لو أمسكت به ، لقتلته •

في مثل تلك الحالات ، كان « النيني » يحاول تهدئته :

— اذا لم يكن فيه جرذان، فسنجد سرطان الماء ، لا تشغل
بالك •

فلا يرد « الراتيرو » ، ومع هبوط الليل يصعد الى
المغارة ويشعل القنديل ثم يجلس صامتا بالقرب من الباب •
كانت الجنادب تصرخ بأعلى صوتها تحت ، فوق المزروعات ،
ويدور الذباب والفراشات المسائية في دوائر مركزية حول
السنة الضوء ، من حين لآخر ، كانت تمر فوق رأسيهما
ومضة مثل صرير الخشب الجاف ، فيرفع الصبي عينيه
ويتجشأ الكلبان :

— انه الوطواط — يشرح « النيني » •

لكن « الراتيرو » لم يكن يسمعه - وفى اليوم التالى ،
يجهد الصبى نفسه ، مثل كل صباح ، لايجاد مخرج - يترك
المفارة عند الفجر ويمضى النهار فى صيد العصيات (١) ،
وجمع البايونج (٢) ، أو قطف الزهور الصفراء التى تأكلها
الأرانب -

فى بعض الأيام كان يصل الى قمم الجبال الاكثر وعورة
بالمناطق لجمع اللوز البرى - لكن هذا كله لم يكن يدر الا
القليل - العصيات ، بالرغم من لحمها اللين ، لم تكن تكفى
طعامها الا بالكاد ، أما البايونج فقد كان يشتريه صيدلى
« توريثيوريجو » ، « دون كريستينو » ، الكيلو بثلاث
بيزيتات - أما الزهور الصفراء فقد كانت تشتريها السيدة
« كلو » أو « البرودن » أو « الأنتوليانو » الحزمة بربع بيزيتة
حتى لا يرجعوه مكسور الخاطر - حاول « النينى » ، مرة ،
زيادة عدد زبائنه ، لكن أهل القرية أظهروا شحهم -

— الحزمة بربع بيزيتة ؟ لكن ، يابنى ، هذه الزهرات
تفص بها المنحدرات !

ذات مساء ، فى اليوم السابق لـ « سان ريسيتوتو » ،
قابل « النينى » من جديد فتى « توريثيوريجو » بالقرب من
النهر - حاول « النينى » تفاديه لكن الفتى اقترب منه
مبتسما بينما كان يداعب راحة يده بظهر السيخ الحديدى -
كانت « لافا » تتشم ذيل كلب الفتى بين البوص - سأل
الفتى :

— ما اسمك ، أيها الفلام ؟

— « نينى » -

— « نينى » فقط ؟

— نعم ، وأنت ؟

— « لويس » -

(١) العصيات : نوع من الزواحف - (المترجم)
(٢) البايونج : نوع من الاعشاب الطبية - (المترجم)

— « لويس » ؟ ياله من اسم غريب !
— هل « لويس » اسم غريب ؟
— فى قرىتى لا يسمى أحد بهذا الاسم •
ضحك الفتى فلمعت أسنانه البيضاء فى وجهه الأسمر :
— ألا تكون أسماء من هم بقريتك هى الغريبة ؟
هز « النينى » كتفيه ثم جلس فى المنحدر • اقترب الفتى
من النهر حيث يقتفى كلبه الآثار بين الشجيرات وقال بلهجة
روتينية :

— هيا ، هيا •

عاد بعد ذلك الى الصبى وجلس الى جواره ، أخرج علبة
التبغ وورق البفرة ثم أعد سيجارة • عندما أشعلها بشرارات
من قداحته نظر اليه فبدت عيناه ، تحت ضوء الشمس ،
ثملتين مثل عيون القطط • قال له « النينى » :

— يجب أن تطلع الآن عن الصيد •

— لماذا ؟

— لأنك بتحطيم أعشاش الصغار ستستأصل شأفة
الفئران •

رفع الفتى السيخ الحديدى واحتفظ بتوازنه عدة ثوان
فوق أصبعه السبابة دون أن يمسك به • ثم سحب يده بسرعة
وأمسكه فى الهواء كمن يمسك بذبابة • ضحك :

— حتى لو كان الأمر كما تقول ، فمن يهمه أمرها ؟

كانت الشمس تتوارى خلف القمم العالية بينما يتعالى
صراخ الجنادب حولهما • وعلى فترات متقطعة يسمع بين
نباتات الأسل صوت الحجلان التى تتلاقح •

— ألا تحب الصيد ؟

— انه مجرد وسيلة لقضاء أوقات الفراغ • لكن يعجبني
أكثر الخروج الى الحقل بصحبة فتاة • ومع غروب الشمس

يعود « النيني » من جولته ليجتمع بالعم « راترو » على مصطبة « الأنتوليانو » ، أو في اصطبلات « دون أنترو » أو في حانة « المالبينو » .

وفي أي من تلك الأماكن ، لا يتغير سلوك « الراترو » : أخرس ، النظرة آقية ، ساعده مستريحان على فخذه ، بلا حراك ، وكأنهما يترقبان . في حالة انعقاد المسامرة في الاصطبل ، كان « الراترو » يراقب ، وهو مضطجع في مذود ، « الرايينكو تشيكو » وعندما ينتهي الأخير من الحلاية يحرك رأسه في ايماءة تأكيد مبهمة ثم يتمتم :

« شيء لا يصدقه العقل » . وعندئذ يكره بكوعه من يكون الى جواره سواء كان « البرودن » أو « البرخيليو » أو « الرايينو جراندي » أو « الأنتوليانو » ثم يسأله : « ما رأيك ، يا « راترو » ؟ » . فيعود لتكرار : « شيء لا يصدقه العقل » .

في « سانتا بترونيلا » استدعت الوصية الحادية عشرة العم « راترو » من جديد :

— هل فكرت فيما عرضته عليك ؟ — سألته بمجرد رؤيته .

— « النيني » يخصني — رد « الراترو » متجهما .

— اسمع — أضافت الوصية الحادية عشرة — . لا أريد حرمانك من « النيني » بل أريد أن أجعل منه رجلا . تقصد « دونياريسو » فقط تأمين مستقبل الصبي ، لكي يصبح في الغد سيدا يمتلك المال الوفير ليشتري سيارة يحملك فيها الى كل أنحاء القرية . ألا تحب أن تتركب سيارة تطوف بك كل ركن في القرية ؟

— لا — رد العم « راترو » بجفاء .

— حسنا . لكن يعجبك ترك المغارة ذات يوم وبناء بيت لك به شرفة وبار خاص على ربوة « دونائيو » ، أليس كذلك ؟

— لا — رد « الراتيرو » — « المغارة تخصنى »

رفعت « دونياريسو » يديها الى رأسها وأمسكت بها كما لو كانت تخاف عليها من الطيران •

— حسنا • يبدو أن الشيء الوحيد الذى يمجيك هو حرق دمي • لكن قبل هذا يجب أن تعرف أنه بقليل من الاهتمام يمكن أن يتعلم « النينى » الكثير ، أشياء كثيرة مثل التى يعرفها مهندس • أفهمت ؟

هرش « الراتيرو » ما تحت القبة بخشونة وسأل :

— وهل يعرف المهندسون ؟

— يا له من سؤال ! أية معضلة تعرضها على مهندس يحلها لك فى دقائق معدودات •

أمسك « الراتيرو » عن الهرش ورفع رأسه فجأة :

— وأشجار الصنوبر ؟

— أشجار الصنوبر ؟ اسمع ، يا « راتيرو » ؛ لا يستطيع أى انسان مهما أوتى من ذكاء أن يخالف ارادة الرب • وقد قضى الرب بأن تظل قمم قشتالة وروابيها جرداء ، ولن تغنى مجهودات كل الرجال عن هذا القضاء شيئا • أفهمت ؟

لم يعترض « الراتيرو » ، فتشجعت « دونياريسو » وألانت صوتها كى تواصل الحديث :

— غلامك ذكى ، لكنه مثل حقل بلا زراعة • يمكن أن يذهب الى مدرسة « توريشيو ريجو » وبعد ذلك نتعاون فى اكمال تعليمه • ما عليك الا أن ترد على بنعم أو بلا • اذا قلت نعم ، سأخذ الصبى •••

— « النينى » يخصنى — قاطعها « الراتيرو » غاضبا •

— حسنا • احتفظ به لنفسك • أرجو ألا تندم غدا على فعلتك هذه •

مع الغروب ، عندما اضيئت الأنوار الأولى في القرية وعادت طيور الخطاف، التي كانت تصيح هائجة ، الى اوكارها على افريز برج الأجراس ، وصلت « دونياريسو » الى مبنى البلدية :

— هؤلاء الناس — قالت للعمدة وهي عكرة المزاج — يمكن أن يقتلوا للدفاع عن لقمة العيش ، واذا قدمت لهم فرصة على طبق من ذهب يقتلونك كمدا لعدم قبولهم لها ، أتفهم ما أعنى ، يا « خوستو » ؟

ضرب « الخوستيتو » ، العمدة ، جبهته ثلاث مرات باصبعه ثم قال :

— ينقص « الراتيرو » ما يوجد هنا (٣) . اذا كان لم ينهق فلأنهم لم يعلموه النهيق .

تدخل « الخوسيه لويس » :

— ولماذا لا نعقد له اختبارا ؟

— اختبار ؟ — سألت « دونياريسو » .

— نعم . هذه الأشياء التي يستفسر عنها - واذا جاء الطبيب ورأى أنه مجنون أو متخلف عقليا يودعه المستشفى (ويا دار ما دخلك شر) .

أضاء وجه « الخوستيتو » ثم سأل :

— مثل « الأجاييتو » ؟

— بالضبط .

منذ شهرين ، صدم « الأجاييتو » بدراجته عند عودته من « توريشيوريجو » طفلا صغيرا وللفتوى بمدى مسئوليته عن الحادث أخضعه الأطباء في العاصمة لاختبار ، وتوصلوا بعده الى أن درجة ذكائه لا تتعدى ما لصبي في الثامنة من

(٣) العقل هو المقصود بتلك العبارة - (المترجم) .

العمر • لقد تسلى « الأجابيتو » كثيرا بالاختبار ومن يومها أصبح طليق اللسان وفي الحانة ، كان يكرر الاسنله التي وجهت اليه وكأنها تعويذة • « أعمل لك اختبارا » ، كان يقول • وفي مرات أخرى كان يشيد بتصرفه ونباهته : « سألتني الطبيب : اذا كانت العربية الأخيرة في حوادث القطارات هي التي يحدث بها أكبر عدد من الاصابات ، فماذا تفعل لتفادى هذا ؟ » • فأجبت : « اذا كانت المسألة لا تزيد عن هذا ، يا دكتور ، فالحل في منتهى البساطة : لا نضع هذه العربية في مؤخرة القطار • يظن أهل العاصمة أن سكان القرى أغبياء أو سذج » •

— لو يصرح الرئيس بهذا، فسيكون الاختبار هو الحل —
قال « الخوستيتو » •

أنزلت « دونياريسو » عينيها :

— اذا لجأنا لهذا الاجراء فسيكون أولا وأخيرا لصالحه •
ادراك « الراتيرو » كادراك طفل ولق تفيده معاملتنا له
كرجل •

فى عيد الفصح ، كاد أن يقع بالقرية حادث مروع .
قبل أن يبدأ الاحتفال بقليل اصطدمت مدقة جرس الكنيسة
بقفا « الأنتوليانو » فانزلق « الماميريتو » ، صبى « البرودن » ،
مع على البرج والحبل ملفوف حول وسطه . لحسن الحظ ،
استعاد « الأنتوليانو » توازنه فى الوقت المناسب ، داس على
الحبل فبقى « الماميريتو » متارجحاً فى الهواء ، بحلته
الساوية التى تكورت تحت ابطيه ، بينما تهشم جناحاه
الأبيضان المصنوعان من البلاستيك بفعل السقطة القوية .

كان « النينى » يرقب الحادث مع الميدان فزعا ، لأنه من
عامين فقط كان يقوم بدور « الماميريتو » ، لكن « ماتياس
ثليمين » ، المختلس ، أطلق ضحكة خلف ظهره وقال :

« يبدو الصعلوك وكأنه حبارى صغيرة مقصوفة
الأجنحة » . لكن الأمور لم تصل لأبعد من ذلك وأمرت
« دونياريسو » « الأنتوليانو » برفع الصبى ثانية ، لأن
الاحتفال لا يمكن أن يبدأ فى غياب رجال « اكستريمادورا » .

قبلت « دونياريسو » ، الوصية الحادية عشرة ، شروط
« الجوادالوبى » على مضض ، لكن خيبة الأمل التى تملكته
رجال القرية بسبب موضوع البترول لم تكن قد تلاشت
بالكامل وعلى حد قول « الروسالينو » : « ليس لأحد منا مزاج
هذا العام للقيام بدور المهرج » .

استطاعت « دونياريسو » بعد الكثير من المساعى تجنيد
ستة رجال فقط للمشاركة فى دور الحواريين ، أما

« الجواد الوبي » ، الخولى ، فقد أظهر تشدده فى هذا الموضوع :

— اما أن يشترك الجميع أو لا يشترك أحد ،
يا « دونياريسو » ، ها قد عرفت -

وقبل اشارة البدء فى احتفالات عيد الفصح ، سمحت
« دونياريسو » لرجال « اكستريمادورا » الاثنى عشر بلبس
حلل الحواريين المرقعة -

فوق الميدان المغطى بالغبار تحلق شمس مترعة ولزجة ،
وبعيد جدا ، هناك حيث لا يصل حفيف الزحام ، كانت تطير
متكاسلة ثلاثة صقور سوداء - لم يكن « النينى » يعرف المكان
الذى تسكن فيه ومع هذا فقد كان وجود جثة قط أو أرنب
كافيا جدا لاغارة تلك الطيور عليها من فوق الروابى - تحت
الصقور الثلاثة ، كانت تحلق طيور الخطاف فى موجات
متشعبة بالقرب من فتحات البرج ، وتحدث تحركاتها صريرا
يصم الأذان -

ظهر أخيرا ، من خلف الكنيسة ، رجال «اكستريمادورا»
راهم « النينى » وهم يقتربون بخطى وثيدة ، وتطل من تحت
حللهم المتعددة الألوان سراويل من القطيفة الخشنة وأحذية
يعلوها التراب - كان شعر (الباروكات) ، التى وضعت
بغير عناية ، ينساب على أكتافهم ، وبرغم هذا ، لم تغل
المجموعة من جمال الطلعة التى تزيد منها خلفية البيوت
الطينية وأسوار الحظائر التى تشبه جفان الكرم - أفسح
لهم أهل القرية الشارع فاصطف فيه رجال « اكستريمادورا »
صامتين برؤوس منحنية ، وعندما وصلوا الى سلم الكنيسة ،
انتشروا بين الجموع وبدءوا فى فتح الأبواب ، والقفز من
على الأسوار ، ورفع الأحجار ، فى بحث محموم ، حتى أعطت
« دونياريسو » ، التى كانت ترتدى الحلة الزرقاء وطرجة
العذراء البيضاء ، الاشارة لـ « الأنتوليانو » فأخذ

« المامير تيتو » يهبط ببطء من اعلى البرج ، وهو ينأرجح بين الجموع ، بجناحيه المهشمين •

عند رؤية الملاك ، سجدت العذراء والحواريون وباقي الأهالي تملؤهم الرهبة ، وساد صمت كثيف الى ان ارتفع صوت « المامير تيتو » فوق صراخ طيور الخطاف المحموم :

— لا تبحثوا عنه • لقد بعث المسيح من جديد •

ظل « المامير تيتو » ينأرجح فوق الميدان للحظات ، وبينما كانت الجموع ترسم على صدورها الصليب سحب «الانتويادو» الجبل شيئا فشيئا • وبمجرد اختفاء الملاك في فجوة البرج نهضت « دونيا ريسو » متناقلة وقالت :

— نحمدك أيها المسيح ونباركك •

فصاحت جموع الأتقياء :

— يا من افتديت العالم بصليبك المقدس •

دخلوا الكنيسة بعد ذلك وسجدوا ، بينما أطلق « الفروتس » ، من المكان العلوى المخصص لانشاد الكورال ، حمامة من برج حمام « الخوستيتو » • طارت الحمامة ، مشوشة ، لعدة دقائق فوق الجموع ثم هبطت مذهولة فوق كتف « لاسيميونا » الأيمن • التفتت حينئذ الوصية الحادية عشرة من على درجات المذبح الى الجموع ونادت على « لاسيميونا » بصوت كصليل الأجراس :

— لقد اختارك الروح المقدس ، يا ابنتى •

حركت « لاسيميونا » كتفها خلصة ، محاولة (هـش) الحمامة ، لكنها استسلمت بعد أن باءت محاولتها بالفشل وبدأت تبلع ريقها محدثة ضوضاء غريبة ، كما لو كانت ستختنق ، وأخيرا اقتادتها «دونياريسو» الى المنصة ، وعندئذ اصطف أهالي القرية أمامها وأخذ بعضهم فى تقبيل يدها ، وانحنى آخرون بينما أوما من هم أكثر خجلا بأيديهم على

وجوههم التى لوحتها الشمس بما يشبه الصليب . بعد أن انتهت مراسم التكريم، تحرك الموكب، الذى تسير فى مقدمته العذراء ثم الملك ثم « لاسيميونا » وبعدها الحواريون ، وطاف شوارع القرية ، بخطوات موقعة على نغمات القيثارة والطبلة ، بينما كان الليل يهبط بوداعة على القمم العالية . عند شروع الركب فى التحرك ، جرى « النينى » الى العجوز الذى تحول الى كومة من العظام .

— عم « روفو » — نادى لاهثا — ، الحمامة هبطت الليلة على كتف « لاسيميونا » .

تنهد العجوز ، رفع اصبعه بصعوبة ناحية السقف وقال :
— الصقور تحوم فى الأعلى . أحسست بهم هذا الصباح .
— لقد رأيتهم — رد الصبنى — . كانوا ثلاثة يحومون حول برج الكنيسة ، يبحثون عن كلبة المختلس الميتة .
أنكر العجوز بحركة من رأسه . وأخيرا قال ، بصعوبة بالغة ، مشيرا الى كتفه اليسرى :
— انهم قادمون للهبوط هنا .

وبالفعل ، مات العجوز مساء اليوم التالى ، فى « سان فرانثيسكو كراكثيولا » . حملت « لاسيميونا » الجثة الى الدهليز ، ووضعتها فوق جوال من الخيش ، ثم نزع القماشة السوداء من على الوجه فلمعت عظامه تحت ضوء الشموع . تجمع أهالى القرية حولها صامتين فى ملابس الحداد وبمجرد أن دخل « النينى » قالت له « لاسيميونا » :

— هنا هو العجوز . أخيرا استراح كلانا .

لكن العم « روفو » ، بعينه الوحيدة وفمه المفتوحين ، لم يكن يبدو مستريحا ، ولم تكن تبدو « لاسيميونا » مستريحة أيضا ، فقد كانت تبلع ريقها دون توقف ، بضوضاء مكتومة ، مثل اليوم السابق عندما هبطت الحمامة فوق كتفها .

ومع وصول أى قادم جديد كانت تكرر نفس العبارة وعندما بدأت الذبابة الكبيرة تطير فوق المجتمعين ، بعد مكوثها عشر دقائق كاملة فوق وجه العجوز ، حاول كل منهم إبعادها عنه بحركات متفعلة ما عدا «النينى» و «لاسيميون» -

عادت الذبابة الى الجثة الهامدة ، لكنها كل مرة تسنانف فيها الطيران، يلوح الرجال والنساء الهواء خفية لكى لا تحط عليهم ، وبهذه الطريقة كان يحدث صفير خافت مثل صفير ريش المروحة - بعد نصف ساعة أحضر «الأنتوليانو» تابوتا من خشب الصنوبر مازالت تفوح منه رائحة الراتينج، طلبت «لاسيميون» من الحضور مد يد العون ، ونظرا لتباطؤ الجميع ، تعاونت هى و «النينى» و «الأنتوليانو» فى غلقه ، وبما أن «الأنتوليانو» كان قد أخذ المقاسات مضبوطة لكى يوفر من الخشب ، بقيت رأس العم « روفو » محشورة بين كتفيه وكان عنقه قد دقت أو كان ساكنه يريد التعبير عن عدم اهتمامه بكل ما ينتسب لهذا العالم -

قبل الغروب وصل « دون ثيرو » ، القسيس ، وبصحبته « الماميريتو » ، قام برش الجثة بقطرات من الماء المقدس ثم انحنى الى جوار قدمى الميت وقال مكروبا :

- نضرع اليك ، يا ربنا ، ونتوسل بأن تنزل السكينة وتنعم بالجنة على روح عبدك « روفو » التى أمرتها بمغادرة دنيانا - بحق سيدنا المسيح - -

- آمين - قال « الماميريتو » -

وفى تلك اللحظة طارت الذبابة من على الجثة لتحط على طرف أنف « دون ثيرو » ، لكن « دون ثيرو » ، الذى كانت عيناه على الأرض ويداه معقوفتان بوداعة فوق عبايته ، بدا وكأنه فى حالة وجد ومن ثم فلم ينتبه لوجود الذبابة - عندئذ وكزه رفيقه وتمتم : « السرطان سيقرض أنفك » ، لكن « دون ثيرو » استمر فى صلواته رابط الجأش ، الى أن عطس -

بشدة ، دون مقدمات ، ففرغت الذبابة وحطت من جديد على
الجثة •

بعد انتهاء الصلوات ، تقدمت السيدة « كلو » وهى
تحمل كتابا متأكلا فقالت « لاسيميونا » :
— انه كتاب العجوز •

كان مكتوبا على صفحته الأولى : « عظمات من معجزات
السيد المسيح ومريم البتول • بقلم خواكين أنطونيو دى
ايجيليتا ، الحاصل على ليسانس العلوم الشرعية والأسقف
الأعظم لكنيسة سان اجناثيو دى ليولا • الجزء الثالث •
مدير • حقوق النشر محفوظة » •

رفعت « لاسيميونا » رأسها وكررت :
— انه كتاب العجوز •

— نعم — ردت السيدة « كلو » •

ثم فتحت الكتاب من منتصفه فظهرت ورقة مطوية تحتوى
على ورقة مالية فئة الخمس بيزتيا على الورقة المطوية توجد
كتابة ركيكة تقول : مدخرات لشراء طاقم أسنان • بين
الصفحتين التاليتين توجد ورقة مالية أخرى من نفس الفئة ،
وبين الصفحتين التاليتين أيضا ، وهكذا حتى الورقة الخامسة
والعشرين • بللت السيدة « كلو » طرف اصبعها الابهام
بريقها ، ثم عدت النقود بحنكة ، ورقة ورقة ، ثم سلمتها
لابنة العجوز وهى تقول :

— خذى يا ابنتى ، انها لك • طاقم الأسنان لم يعد
ينفقه •

فى اليوم التالى ، عندما حمل الفتيان النعش ، لم يكن
للقرية من حديث سوى السر الذى أعلنته السيدة « كلو » ، لكن
الدهشة بحياسة العجوز لكتاب فاقت حادث العثور على
الأوراق المالية •

كان « المالبينو » يقول بكثير من الارتياب : « وبعد هذا .
تتساءل عما اذا كان المعجوز يعرف او لا يعرف . ومن هذا
الذى لا يعرف وتحت يده كتاب ؟ » .

فى الطريق الى الكنيسة توقف الفتيان ثلاث مرات
بالنعش ، وفى كل مرة كان « دون ثيرو » يصلى الصلوات
المناسبة ، بينما كانت « لاسيميونا » تنتظر بفارغ الصبر على
العربة الكارو ، ومعها « النينى » و « الدوكى » ، الكلب ،
الذى كان مربوطا الى مؤخرة العربة بحبل مثل حبل المشنقة ،
ويعوى بحرقه . بعد أن وصلوا الى الكنيسة ، وبمجرد أن
وضع الرجال التابوت على العربة ، استحثت « لاسيميونا »
الحمار فجرى بأقصى سرعة أمام دهشة الجميع .

كان شعر « لاسيميونا » أشعث ، ونظرتها لامعة وفكاهها
متشجنين ، لم تحرك شفتيها الا عند الوصول الى الربوة .
اتجهت الى « النينى » قائلة :

— وأنت ماذا تصنع هنا ، تكلم ؟

ألقي عليها « النينى » نظرة رصينة :

— ما جئت الا لوداع المعجوز .

وفى المقابر ، تعاون الاثنان فى جر التابوت الى الحفرة
وبدأت الفتاة فى اهالة التراب عليه بهمة ونشاط . كانت
عينها تزدادان امتلاء بالدموع كلما صدرت عن التابوت رنة
فارقة من جراح اهالة التراب عليه ، الى أن واجهها « النينى » :

— « سيميونا » ، ماذا دهاك ؟

مسحت جبهتها بظهر يدها . ثم ردت غاضبة :

— ألا ترى سحابة التراب التى أثيرها بالمجرفة ؟

عندما وصلا الى سور المقابر ، بدأ « لوى » فى شم ذيل « الدوكى » بينما كان يطبق سكون لا يوصف على القمم العالية - أشارت « لاسيميونا » الى « اللوى » بالمجرقة :

— لا يعرف أنه أبوه ، أرأيت !

فى طريق العودة حافظ الحمار على ايقاع نشط سرعان ما أصبح أكثر حيوية عند هبوط الربوة - لكن « لاسيميونا » سارت بالعربة فى طريق قمة « دونالثيو » ودخلت القرية من ناحية الكنيسة بدلا من الناحية المعتادة : طريق مخازن « دون أنتيرو » - سألها « النينى » :

— ألى تذهبي الى البيت ؟

— لا - ردت عليه -

أوقفت العربة أمام بيت الوصية الحادية عشرة ، ترجلت وقرعت الباب بشدة مرتين عندما فتحت « دونيا ريسو » كان وجهها أشبه بوجه مريض يشكو ألم المعدة :

— يا امرأة - قالت - ، تأمرنا الوصية الحادية عشرة بعدم احداث ضجيج -

انتظر « النينى » أن ترد « لاسيميونا » ردا جافا ، لكن الفتاة أثارت دهشته عندما جثت على ركبتيهما وقالت فيما يشبه الهمس :

— معذرة ، « دونيا ريسو » ، يمكن أن تأتى معى للكنيسة ، لو سمحت - أريد أن أهب نفسى لله -

رسمت الوصية الحادية عشرة على صدرها الصليب ثم ابتعدت عن الباب وقالت :

— حمدا لله - ادخلى ، يا ابنتى - لقد دعاك الله لحماه -

- ١٥ -

فى « نويسترا سنيورا دى لالوث » ظهرت بعض الحشائش الضاربة فى المريج فأسرع « النينى » ليبلغ « الرايينوجراندى » حتى يبعد الأغنام عنها ، فقد كان يعرف من العجوز أن النعجة التى تأكل من هذه الحشائش هالكة لا محالة .

فى نفس ذلك اليوم أخبر « البرودن » الصبى بأن المناجد (١) تكثر فى بستانه وتعوق نمو السلق والبطاطس . عند الغروب هبط « النينى » الى شاطئ النهر وقام خلال ساعة بشق أنفاق صغيرة فى الأرض . تعلم « النينى » من جده « رومان » أن الأنفاق الصغيرة عندما يدخلها الهواء تصاب المناجد بالبرد فتترك أوكارها عند الفجر . كان « النينى » يعمل بتؤدة ، وكأنه يتسلى ، متتبعا أكوام التراب الطرية التى تتناثر حوله ، والكلبة ، التى شاخت فجأة ، ترقبه لاهثة من موقعها تحت ظل البوص ، بينما « اللوى » ، الكلب الصغير ، يركض على الحصباء مطاردا السحالى .

فى اليوم التالى ، وقبل أن تطلع الشمس ، هبط « النينى » ثانية الى البستان . كان الضباب يسدل ستارة كثيفة على القمم العالية فبدت أكثر بعدا ، وعلى النباتات تكاثفت قطرات الندى . بجوار المنحدر طارت سمانة بصخب ، بينما كان يخفت تدريجيا ، كلما اقترب الصبى ، صوت الجنادب والضفادع المرتفع الذى يعلن عن قدوم يوم جديد . وفى البستان ، أقمى « النينى » فى ركن بجوار النهر ، ولم تكذ

(١) المناجد نزع من الحردان اعمى ، يطلق عليه ملاحو مصر كلمة فحار -
(المترجم) .

تمضى عشر دقائق حتى سسمع حفيفا مكتوما ، مثل حفيف الأرانب ، لفت انتباهه لخروج أحد المناجد - كان يتحرك حركات خرقاء ويتوقف كثيرا ، لكنه اتجه بعد تردد لأحد الانفاق الصغيرة التى شقها الصبى وبدأ فى سحب التراب بضمه ليغطى به الفتحة - عندما شاهده « اللوى » انحنى على يديه ونبح بغضب ، محاولا الهجوم ، لكن الصبى ابعده أمسك الحيوان بعناية ثم وضعه فى السلة - فى أقل من ساعة صاد ثلاثة غيره وبمجرد أن سطع ضوء الشمس الاحمر فوق الروابي وانتشرت الظلال الأولى نهض « النينى » ، تمطى ونادى على الكلبين : « هيا » -

تحت قدم ربوة « كلورادو » كان « الخوسيه لويس » يسمد الأرض المحروثة وبعده بقليل ، على الضفة الأخرى للنهر ، كان « الأنطوليانو » يحزم بعناية السريس والخسلجى يعرضهما للضوء - ومن جهة القرية يتناهى الى الأذان صليل أجراس القطيع والأصوات الملوثة والكسولة لرجال « اكستريما دورا » فى فناء « دون أنتيرو » -

على بعد عشرين مترا ، بالقرب من البوص ، طار صقر دون سابق انذار - كان حدثا غير عادى أن يبیت صقر بين نبات الأسفل وسرعان ما اكتشف « النينى » فوق الغوسج العش المكون من أربعة أفرع متشابكة مغطاة بفراء أرنب برى - نظر اليه صقران صغيران ، أحدهما أكبر من الآخر ، بعينين مستديرتين مرتابتين ، رافعين منقاريهما المخيفين فيما يشبه التهديد - ابتسم الصبى ، اقتلع فرعاً من نبات الأسفل وتسلى باستفزازهما لبعض الوقت ، حتى أضجرهما - فى الأعلى ، تحت قبة السماء الزرقاء ، كانت الأم تحوم فوق رأسه فى دوائر واسعة -

لم يبح « النينى » بسر اكتشافه لأحد ، وكل مساء يهبط لمراقبة نمو الصقرين وتصرفات الأم التى كانت تغود الى العش ، من حين لآخر ، ويبن مخالبتها الحادة جرزة أو

حجل - بعد كل غارة ترعب الأم من فوق نبات العوسج ما حولها في تحد وعظمة ، قبل ان تقوم بسلخ المريسى وتسليمها للصغيرين - كان الصبى يختفى بين النباتات ويراقب تحركاتها ، يتأمل شراة الصغيرين اناء التهامهما الفريسة ، وسرور الأم المشوب بالخيلاء قبل أن تقلع الى الفضاء من جديد - وظل الأمر على هذا المنوال حتى اختفى الصغيران بالريش ، وذات مساء اكتشف « النينى » اختفاء الصقر الصغير والتفاف خيط من جذع العوسج حول قدم الكبير - وأثناء فكه لوثاقه على عجل خطر بباله « ماتياس ثليمين » ، الا أن تفكيره لم يطل لأن الأم هبطت رأسيا عليه من ارتفاع ثلاثمائة متر فنبحت الكلبة و « اللوى » ناظرين الى أعلى دون أن يتوقفا عن التقهقر - لمست الأم العش عند هبوطها ثم أمسكت بالوليد بين مخالبها ، وعادت من جديد فى اتجاه الجبل -

بعد يومين ، فى « سان بايلو » ، هبت ريح الشمال فطبت الجو - كانت البرودة تزداد عند الفجر وتخفت حدة صياح السمان والجنادب أثناء الليل - فى اليوم التالى ، هدأت الريح ، ومع الغروب صفت السماء وفوق القرية انتثر جو ساكن شفاف - بعد أن أرخى الليل سدوله ، أطل القمر ، قمر أبيض وبعيد ، وأخذ يرتفع شيئا فشيئا فوق القمم العالية - عندما وصل « الراتيرو » و « النينى » الى الحانة ، كان كلب « المالبينو » ينبح على القمر فى الحظيرة نباحا ذا صدى كريستالى - تغير وجه « المالبينو » - قال :

— ما الذى جرى للكلب هذه الليلة ؟

بعد قليل ، ودون موعد سابق ، توافد رجال القرية على الحانة - دخلوا فرادى ، واحدا تلو آخر ، وعلى رأس كل منهم القبعة السوداء التى تصل الى الأذنين وقبل الجلوس على المقاعد كانوا ينتظرون حولهم بخوف وعدم ثقة - من وقت لآخر ، كانت تسمع ، فقط ، كلمة غاضبة أو صوت ارتطام الكئوس

بالموائد • امتلأ الجو بالدخان وعندما ظهر « البرودن » من فتحة الباب ، التفت اليه عشرون وجها مديوغة الجلد • كان يبدو شاحبا ومشوشا • سأل :

— الأفلاك تلمع بشدة ، أليس هذا نذيرا بسقوط الجليد الأسود (٢) ؟

أجابه الصمت ونباح الكلب المتأجج والمنتظم داخل الحظيرة • نظر « البرودن » حوله قبل أن يجلس وعندئذ سمع سباب « الروسالينو » خلف ظهره ، عندما التفت اليه ، قال « الروسالينو » :

— لو كنت الرب لأجريت المناخ تبعا لهواك حتى لا أسمع صوتك •

ساد صمت كثيف ومساوى بعد صوت « الروسالينو » المتجههم • تحرك « الخوسيه لويس » ، المحضر ، بهياج قبل أن يقول :

— « مالبينو » ، ألا تستطيع اسكات هذا الكلب ؟

خرج صاحب الحانة وبالدخل سمعت ركلة بالقدم والعواء الموجه للحيوان وهو يهرب • عندما عاد « المالبينو » بدا وكأن حدة التوتر قد تعاظمت بالمكان • تساءل « الجوادالوبي » الخولى بصوت خشن :

— هل رأى أحد منكم جليدا يسقط ذات مرة فى « سان ميدرادو » ؟

اتجهت اليه الأربعون عينا و « الجوادالوبي » ، لكى يبدد اضطرابه ، أفرغ الكأس فى حلقه دفعة واحدة • وصل اليه « المالبينو » حاملا الابريق وملأ له الكأس دون أن يطلب منه ، ثم قال والابريق فى يده ، مواجهها بثبات مالا يمكن تفاديه :

(٢) أهالى القرية يخلعون هذه الصفة (الأسود) على الجليد لانه يحطم دائما محاصيلهم الزراعية ويقضى على آمالهم فى الحصاد - (المترجم) •

— منذ عشرين عاما ، في « سانتا أوليبا » ، أتذكرون ؟
كانت الفلال منتصبية وجافة وفي أقل من أربع ساعات ضاع
كل شيء •

وسرعان ما تفجر الصمت :

— لم يصل ما جمعه كل واحد من حقله الى عشر كيلات —
أضاف « الأنتوليانو » •

صاح « خوستيتو » ، العمدة ، من على مائدة في إحدى
الزوايا :

— شيء كهذا يحدث مرة واحدة • لن نراه ثانية •

كان « الأنتوليانو » يحرك ذراعيه الكبيرتين على المائدة
المجاورة شارحا أبعاد المصيبة لزوج السيدة « كلو » ،
« البيرخيليو » :

— كانت السنابل متفحمة ، أسمعت ؟ كما لو أن النار
قد أتت عليها •

كان صاحب الحانة يمر بين الموائد ليملا الكنوس
الفارغة ، والألسنة ، المتراخية في البداية ، استعادت
نشاطها ، كأنهم يريدون الآن اتقاء الخطر بالأحاديث المتقدمة •
بعد أن سادت المحادثات سمع من جديد العواء المؤلم للكلب
في الفناء •

قال « النيني » :

— الكلب ينبح وكان بالبلدة ميتا •

لم يجبه أحد وطاق عواء الكلب ، الذي كانت نفمته
تتغير كل مرة ، بالموائد مثل صدمة كهربائية • خرج
« المالبينو » الى الفناء • اختلط سبابه باليكام المتدمر للكلب
وبصفق المختلس للباب عند الدخول • قال ، لاهثا وكأنه قد
انتهى من قطع مسافة طويلة :

— الجليد يتساقط بغزارة • تجمدت سيقان النباتات
وكاننا فى يناير • لم تبق فى البساتين نبتة مستوية على
عودها • لماذا كل هذا العقاب ؟

ارتفع من جميع الزوايا حفيف لعنات مكبوتة • دوى
فوقها صوت « البرودن » الهائج :

— يا مصيبتى ، يا خرابى • هل هذه حياة ؟ أعمل واكد
أحد عشر شهرا مثل كلب ، ثم ، فى ليلة واحدة • • — التفت
الى « النينى » وأضاف قائلا :

— « نينى » ، أيها الغلام ، ألا يوجد مخرج ؟
— هذا يتوقف — رد الصبى فى صرامة •

— يتوقف ، يتوقف • • • يتوقف على ماذا ؟
— على الرياح •

ساد صمت كثيف وصلب • ومثل أعين الغربان التى
تتربص بالمزروعات فى شهر أكتوبر ، تجمعت الآن أعين
الرجال على الصبى • سأل « البرودن » مستقصيا :

— الرياح ؟

— اذا هبت الرياح عند الفجر يسقط الجليد وتسلم
السنابل • أما خضروات البساتين فقد فات أوانها — رد
الصبى •

وقف « البرودن » وتجول بين الموائد • كان يمشى
كالسكران ويضحك كالمعتوه قبل أن يصيح :

— أسمعتم ؟ لسه فيه أمل ، فلم لا تستجيب الرياح لنا ؟
أليس غريبا نزول الجليد فى « سان ميدرادو » ، وبالرغم من
هذا فهو يتساقط ؟ لماذا لا تهب الرياح اذن ؟ أمسك فجأة عن
الضحك وراقب حوله انتظارا لتأييد أحد ، طاعت عيناه بكل
الوجوه ، واحدا بعد آخر ، لكنه لم ير الا سحابة من الشك ،

استسلاما مخيفا قابعا هناك داخل الحدقات • عاود الجلوس حينئذ ثم أخفى وجهه بكلتا يديه • خلفه كان «الانتوليانو» يقول للعم « راتيرو » بصوت مسموع : « لا توجد جرذان ، المحصول يضيع من بين أيدينا ، أيمكن معرفة ما يربطنا بهذه القرية اللعينة ؟ » •

تلمثم « الرايينو تشيكو » : « الأر ... الأرض _ قال _ • الأرض مثل المرأة » • صاح « الروسالينو » من الطرف الآخر : « بالضبط ، ليس لها أمان ! » • كان المامس ، الأخرس ، يعوج قسمات وجهه بجوار المختلس ، تعويجات مخيفة مثل كل مرة يكون فيها عصبيا • صاح فيه « ماتياس ثليمين » : « صه ، أيها الأخرس ، لا تصب رأسى بالدوار » • عندئذ قال « الفروتس » : « ولو غنى « البيرخيليو » ؟ » • وكما لو كانت هذه اشارة جعلتهم يصيحون جميعا ، « هيا ، يا « بيرخيليو » ، نريد سماع صوتك » •

أخذ « الأجاييتو » يقرع المائدة براحتيه قرعات موقعة • رفع « الخوستيتو » ، الذى كان يعب طوال ساعتين من الأبريق دون توقف ، صوته فوق أصوات الآخرين : « هيا ، يا « بيرخيليو » أيا كان ما تغنيه سينال الرضا والقبول » • تنحنح « البيرخيليو » مرتين وشرع فى الغناء • صفق « الأجاييتو » و « الرايينو جراندى » وسرعان ما انضم اليهما « الفروتس » ، « الجوادالوبى » ، « الانتوليانو » و « الخوسيه لويس » • بعد دقائق ، كانت الحانة تغلى وامتزج التصفيق بالأصوات النشاز المحمومة وهى تردد الأغاني القديمة الموجعة • وامتلات الحانة بالدخان ولم يتوقف « المالبينو » عن الطواف بين الموائد ليملاً الكتوس والأباريق • فى الخارج ، كان القمر يتبع صامتا خط سيره المعتاد فوق القمم وأسطح المنازل بينما يتكوم الجليد فوق الخضروات وأطراف السنابل •

زال الاحساس بالوقت وعندما اقتحمت « لاسابينا » ، امرأة « البرودن » ، الحانة نظر الرجال الى بعضهم فى دهشة

وكانهم يتساءلون عن سر تجمعهم هناك - فرك « البرودن » عينيه والتقت نظرتة بالنظرة الفارغة لامراته ، وعندئذ صاحت « لاساينا » :

- أيمكن معرفة ما حدث لكى تقيموا هذا الحفل الرفض حتى الخامسة صباحا ؟ ألم يخطر ببالكم سوى الصباح مثل الأطفال بينما يقضى الجليد على المحصول ؟ - تقدمت خطوتين وواجهت « البرودن » - : وأنت ، يا « أثيسكلو » ، ألا زلت تذكر الجليد الذى سقط فى « سانتا أوليبا » ؟ لتعلم اذن أن جليد هذه الليلة أسوأ منه بكثير - السنايل لا تتحمل البرودة وتنطوى كما لو كانت من رصاص -

خيم فجأة صمت شبحى - تبدو الحانة الآن وكأنها ردهة لغرفة محتضر ، حيث لا يقوى احد على مواجهة الأحداث ، والتأكد مما اذا كان الموت قد أصدر قراره أخيرا - تحت ، من اصطبلات « دون أنتيرو » ، سمع خوار باك لاحدى البقرات ، وكأن الخوار كان الاشارة المنتظرة ، فأسرع « المالبينو » الى النافذة الضيقة وفتح ضلفتيها بشدة - تسيل ضوء مبهم ، شتوى بارد بين الزجاج المتسخ - لكن أحدا لم يتحرك - فقط عندما ارتفع الشخير المتقطع لديك « الأنتوليانو » الأبيض فوق الصمت ، وقف « الروسالينو » وقال : « هيا بنا » -

كانت « لاساينا » تمسك بذراع « البرودن » وتقول له : « انه الخراب » ، يا « أثيسكلو » أفهمت ؟ - فى الخارج ، بين القمم العالية ، كانت النجوم الأخيرة تنمحي وينتشر بدلا منها ضوء أبيض مبتسر فوق المنطقة - تحت الأقدام تفرقع الأرض مثل قشر عين الجمل ، وتغنى الجنادب على استحياء ومن فوق ربوة « دونالثيو » يتناهى الى الأسماك نداء حجل ذكر -

كان الرجال يسبرون على الطريق منكسى الرؤوس وأمسك « البرودن » « النينى » من عنقه ولم يكف عن سؤاله

مع كل خطوة : « ستهب رياح الشمال؟ أعتقد امكانية ذلك؟ »
 لكن « النيني » كان صائما عن الكلام . فقد كان ينظر الى
 المقابر فوق الربرة والى الصليب الصغير وسطها ويتخيل أن
 تلك المجموعة الخامدة من الرجال ، التى تتوغل داخل حقول
 الغلال الشاسعة . تنتظر ظهور شبح . كانت السنابل تنحنى
 بما تحمله فوق رأسها وأخذ بعضها فى الاسمرار . قال
 « البرودن » مكتئبا ، وكان هم الليل بطوله قد انهار فوق
 راسه فجأة :

« لن يصل العلاج فى الوقت المناسب » .

فى البساتين ، تحت ، سحق الجليد الخضروات ونرك
 اوراقها ذابلة . توقفت المجموعة بين المزروعات فى اتجاه
 حلقة « توريشيو ريجو » وتبت الرجال حذقاتهم على تخوم
 القمم العالية التى أخذت فى الظهور شيئا فشيئا - خلف ربة
 « دونالدثيو » كان الضوء أكثر حيوية . ومن وقت لآخر ينحنى
 أحدهم على « النيني » ويسأله مهما : « فات الآوان ، حقا ،
 أيها الغلام ؟ » . فيجيب « النيني » : « قبل أن تطلع الشمس
 مازال الأمل موجودا . الشمس هى التى تحرق السنابل » .
 ويولد الأمل فى الصدور من جديد . لكن النهار كان يهجم
 دون هودة ، أضاء الروابي وأبان عن بؤس بيوت الطوب
 اللبن وظلت السماء مرتفعة والجو ساكنا وعيون الرجال ،
 المفتوحة جيدا ، ظلت مثبتة ، بنهم متعكر ، على تخوم القمم
 العالية .

حدث كل شيء فجأة . هبت أولا نسمة رقيقة داعبت
 السنابل ، ثم زعقت الرياح وأخذت تهبط بفضاظة من على
 القمم العالية ، فطوحت سيقان النباتات وأحدثت تموجات
 فى حقول الغلال مثل موجات البحر . وبعد قليل ، تحولت
 الريح الى هدير متقطع ألهب الحقول بسياطه وبدأت السنابل
 تتأرجح ، متخففة من الجليد، وتتنصب رويدا رويدا على ضوء
 الشروق الذهبى . ابتسم الرجال ، ووجوههم ناحية الريح،

ابتسامات باهتة ، مثل المنومين مغناطيسيا ، دون أن يجروا أحدهم على تحريك عضلة واحدة من وجهه خوفا من معاكسة الظروف المواتية - كان « الروسالينو » ، الوكيل ، أول من استعاد صوته وعند التفاته اليهم قال :

— الرياح ! ألا تسمعون ؟ انها الرياح !

أخذت الرياح كلماته وحملتها الى القرية ، وعندئذ ، وكأنه صدى ، شرع برج الأجراس في الكنيسة يصدر دقات مبتهجة ، وعلى صوته ، بدا أن المجموعة قد استيقظت ودوت هتافات غير متجانسة و « المامس » ، الأخرس ، كان يريل وينتقل من مكان لآخر مبتسما ويصيح : « خي ، خي » * رفع « الأنتوليانو » و « البيرخيليو » « النيني » فوق رأسيهما وصاحا :

— هذا ما قاله « النيني » ! هذا ما قاله !

ركع « البرودن » ، و « لإسابينا » خلف ظهره تنهه ، بين أعواد القمح وفرك وجهه مرات متتالية بالسنابل ، التي تنثر حبها بين أصابعه ، دون أن يكف عن الضحك كالمجنون *

- ١٦ -

بجوار النهر ، اتى الجليد الاسود على ما بالبساتين الصغيرة من خضروات • وبالرغم من هذا ، نزل رجال القرية يملؤهم الاصرار الى البساتين الصغيرة وبكروا بزرعة الحميض ، الفجل ، السريس ، البازلاء ، الكراث والجزر • عكف «روسالينو» ، الوكيل ، على تقليم شجيرات البرباريس ، بينما انهمك « النيني » فى ابعاد اليعاسيب عن خلايا النحل وتصنيف الآرانب استعدادا لموسم التناسل • استقرت درجة الحرارة بفضل نعومة الشمس وتحت شعاعها نضجت الفلال وجفت خلال أيام قليلة • عندئذ دب النشاط فى القرية • لم يكف الرجال والنساء ، طوال النهار ، عن تنظيف البيادر واعداد آلات الحصاد ، وفى المساء قاموا بتطهير الصوامع استعدادا لاستقبال المحصول • فوق السماء ، الكثيفة الزرقاء ، طارت اللقائق سابقة للموعد الذى كان يتنبأ به المرحوم « روفو » : « فى « سان خوان » ، تطير اللقائق » •

كل صباح ، كان رجال القرية يركزون نظراتهم على الاتجاه الشمالى الغربى الذى ظل صافيا وهادئا خلال عشرة الأيام الاولى من الشهر • لم يكف « البرودن » عن ترديد : « ما يهمنى الآن هو عدم سقوط المطر » •

اعتاد المرحوم « روفو » تكرار حكمته القاطعة : « فى يونيو المطر ، يجلب الخطر » • ولذلك كان الرجال ينتظرون الشمس كل صباح بنفس الحمية التى ينتظرون بها المطر فى «نويسترا سنيورا دى سانشو اباركا» أو فى «سان تاوريو» • ومع هذا ففى « سان باسيليو » ساد تفاؤل مبكر بين السكان •

لقد أضفى عليهم حدث انقاذ الغلال من الجليد الأسود حب
الثروة . « أنقذ المحصول بمعجزة » - كانوا يرددون . لكن
السيدة « ليبرادا » ، الأكبر سنا والأكثر حيطة ، كانت تعذر :
« لندع الكلام حتى امتلاء الصوامع بالغلال » .

أما العم « راتيرو » فلم يكن يعلق أملا على المناخ ، ويزداد
صمته صلابة واكفهازارا . لا يحرك شفثيه تقريبا طوال
النهار ، وعندما ينام فوق القش ليلا يقول للصبي في نبات :
- علينا أن نذهب غدا للصيد -

فيوقفه الصبي :

- انتظر . في « سان بيتو » يصرح بصيد سرطان الماء .
- سرطان الماء ؟

- ربما يأتي هذا العام بخير عميم . من يدري ؟

منذ أسبوع ، في « سانتا اروسيا » ، كادت الأزمة أن
تنفجر عندما قدم « خوستيتو » ، العمدة ، الذي كان يزين
رقبته برباط عنق المناسبات الكبيرة ذى اللونين الأخضر
والأحمر ، عرضا للعم « راتيرو » في حانة « المالبينو » :

- « راتيرو » ، ما قولك لو عرضت عليك العمل يومية
تصل الى ثلاثين بيزيتة بخلاف الأكل والشرب ؟

مرر « الراتيرو » طرف لسانه على شفثيه المتشققتين ،
ثم هرش ما تحت القبعة بخشونة ، وكأنه يستعد لحديث
طويل ، لكنه لم يزد عن :

- هذا يتوقف .

- يتوقف على

- على طبيعة الـ

— انظر ، يكفي أن تصعد المنحدرات مع رجال
« اكستريمادورا » لزراعة الأشجار — أشار الى « النيني » —
بالطبع يمكن أن تأخذ الغلام ليأكل معك .
فكر « الراتيرو » لعدة لحظات :

— حسنا — قال أخيرا .

تحسس « خوستو فادريكي » ذقنه التي حلقت حديثا
بحركة ميكانيكية . لقد فعل نفس الشيء منذ يومين في المدينة
عندما قال له المحامي : « إذا كان هذا الشخص لم يتغير عما
كان عليه من قبل ، فلا يوجد سند قانوني لاجراء اختبار له
وحرمانه من رعاية الصبي » . نظر « الخوستيتو » طويلا الى
« الراتيرو » وقال بعدم اكتراث متكلف :

— أشرت عليك فقط ترك المغارة .

رفع « الراتيرو » عينيه :

— المغارة تخصني .

وضع « خوستو فادريكي » مرفقه على المائدة وأضاف
متذرعاً بالصبر :

— تعقل يا « راتيرو » . البيت في البيدر القديم ايجاره
مائة بيزيطة وستكسب تسعمائة في الشهر بالاضافة الى الأكل
والشرب . ما رأيك ؟

— المغارة تخصني — كرر « الراتيرو » .

مد « خوستو فادريكي » ساعديه على المائدة واجتهد في
تطرية صوته :

— حسنا ، سأشتريها منك . كم تريد فيها ؟

— لا شيء .

— لا شيء ؟ ولا ألف بيزيطة ؟

— لا .

— لها ثمن ، بالتأكيد تساوى شيئاً .

— شيئاً .

— كم ، تكلم !

ابتسم « الراتيرو » ابتسامة مراوغة ثم قال :

— المفارة تخصني .

هز « خوستو » رأسه من جهة لأخرى ، ثم ثبت حديقته
الغاضبتين على « الراتيرو » :

— يمكن أن أمنع « لويس » ، فتى « توريشيو ريجو » ،
من الصيد في زمام قريتنا . ما رأيك ؟ تغير وجه « الراتيرو »
في لحظة . استطالت زعنفتا أنفه وتصلبت شفتاه حتى
خارت قواه :

— هذا ما سأتكفل به أنا .

نهض « خوستيتو » غاضباً :

— أنت لا تملك الشجاعة . على أية حال ، فكر فيما
عرضته عليك . إذا قبلته ، بإمكانى مساعدتك .

منذ ذلك الحين ، كان « الراتيرو » يمضى الساعات في
مراقبة النهر . كان يعيش في حالة من الانفعال المكتوم
ولا يزور النوم جفنيه أثناء الليل . في بعض الأيام يصعد
مع الصباح حلمة « توريشيو ريجو » ويرقب بلا هوادة حواشي
النهر . وعندما يأتي المساء يلجأ الى الحانة أو الاصطبل أو
مصطبة ورشة « الأنتوليانو » ، الذي كان يسر في أذنه :
« لديك يدان ، يا « راتيرو » . لا يحتاج أى منا لأكثر
منهما » . يعنى « الروسالينو » رأسه في اتجاه « توريشيو
ريجو » ويضيف : « ما ينسب الى أحصل عليه بيدى هاتين » .
وفي الحانة ، يستحبه « المالبينو » : « النهر نهرك ،

يا « راتيرو » - أنت تعمل بهذه المهنة قبل أن يخرج هو من
البيضة » -

هذا بينما كان « النينى » يتعب نفسه فى تلبية مطالب
السكان ، لكن ابعاد اليماسيب عن الخلايا ، أو خصى الخنازير ،
أو تصنيف الأرانب فى حظائرها لم يكن يعود عليه بأكثر من
نصف بيزيتة - كان « المالبينو » يقول له : « حدد لنفسك
تعريفة - ألا يفعل هذا الأطباء والمحامون ؟ » - فيهر الصبى
كتفيه ويرميه بنظرة حادة وعندئذ يتحير « المالبينو » ويؤثر
الصمت - فى « سان بيتو » رفع الحظر عن صيد سرطان الماء
فهبط « النينى » الى النهر ومعه الشباك ، المطعمة بالديدان -
عند غروب الشمس سقطت فى الشباك خمس دست ولازال
سرطان الماء يقع فى الفخ المنسوب بسهولة كبيرة - بعد أن
حل الليل أشعل المصباح ووضع أمعاء الدجاج ، كطعم ، بدلا
من الديدان - كانت الجنادب تصيح حوله وفوق رأسه بينما
ترفرف بومة على أول شجرة من شجرات الصنوبر الثلاث -

فى منتصف الليل ، جمع « النينى » عدة الصيد ، وقبل
أن يعود الى المغارة ترك فخا منصوبا داخل النهر - كان سرطان
الماء ينزلق داخل الجوال ويحدث حفيفا رطبا ولزجا -

وفى انتظاره كان العم « راتيرو » قابعا عند مدخل المغارة
تحت ضوء القنديل :

— هل رأيته ؟ — سأل قبل أن تطأ قدماء رقعة الأرض
الصغيرة المليئة بنبات السعتر -

— لا — رد الصبى -

خرجت مهمة من بين أسنان « الراتيرو » - أضاف :

— وسرطان الماء ؟

— احدى وعشرون دستة ونصف من سرطان الماء - ولاول
مرة منذ بضعة أسابيع تنفرج شفتا « الراتيرو » عن ابتسامة -

— اذا لم تنزل « لاسيميونا » للصيد هذا العام سيصبح كل شيء على ما يرام — أضاف الصبي . كانت « لاسيميونا » منافسا قويا للصبي . فهي تصطاد بيديها ، بعد ان تشمر ملابسها فتكشف عن ساقين بيضاوين ممتلئتين ، وتدخل الانملة الخشنه لابهام يدها اليمنى فى الفجوات أو بين كرفس الماء لتقبض على السرطان بشجاعة منقطعة النظير . وبهذا التكنيك الشديد البساطة مرت أعوام كانت تصيد فيها أكثر من خمسمائة دسنة . كان « أدولفو » ، سائق حافلة المدينة ، يحمل سرطان الماء ، بعد تصنيفه تبعا لحجمه ، ويبيعه فى سوق عاصمة المحافظة . لكن « لاسيميونا » تروحت هذا العام . أطلقت شعرها على كتفها ولبست عباءة سوداء تصل الى القدمين . نفس الوشاح الذى اتشحت به « لا أفروديسيا » منذ خمسة أعوام مضت ، وهى الأولى التى وهبت نفسها وأخذتها فى بيتها الوصية الحادية عشرة .

كان على « لاسيميونا » ، مثل « لا أفروديسيا » ، قضاء ثلاث سنين عند « دونيا ريسو » ، تقوم خلالها بالأعمال الصعبة والمهينة ، استعدادا للاعتراف .

اعتاد « المالبينو » أن يقول فى الحانة : « انها احدى الوسائل للحصول على خادمة مجانا » - ومع هذا ، فقد أيقظ تحول « لاسيميونا » المفاجيء جشع رجال القرية ، الذين يتحينون الفرص : « سيميونا ، ماذا ستفعلن بالعربة ؟ » - « أحتاجها » - ترد عليهم بثبات . . . « والجمار ؟ » - يضيفون قائلين . « أحتاجه أيضا » - تجيب عليهم . وعندها يهرشون رؤوسهم ويسألون فى حيرة : « أيمكن معرفة لأجل ماذا تحتاجين عربة وجمارا خلال فترة الرهينة ؟ » - فتجيب دون تردد : « لأجل القربان المقدس » .

فى الآونة الأخيرة ، كان « النيني » يتفادى « لاسيميونا » لأنها ما من مرة تقابله فيها الا وتنحنى وتقول : « أهنى » . فيرفض الصبي بأيماءة من رأسه : « لا أفهم فى هذا » . « ابصق على » - تضيف . فيرفض الصبي . « ألم تسمع ؟

اقول لك ابصق على - تعلم طاعة الكبار - فيقاوم الصبي ، لكنه ، في بعض الاحيان ، كان يضطر لاصطناع بصقة . فلا تكتفى : « ليس هكذا - بصقة أكبر وعلى الوجه - اسمعت ؟ » - مرات أخرى ، كانت « لاسيميونا » تنمد على الارض وتتوسل اليه ان يدوسها بقدمه - وشيئا فشيئا بدات تملك الصبي قشعريرة عند رؤيتها .

صعد ، مؤخرا ، لراس الفتاة التنبؤ بموتها فكانت تقول ان « الموت سيياغتها للحد الذي لن تستطيع معه الاستحمام قبلها » - اختارت « النيني » لتحقيق رغبتها الأخيرة : « هلم الى ، يا نيني - كانت تناديه - اذا مت خذ الحمار والعريه - تبيع العربية وتنفق ثمنها على اقامة قداس على روحى - اما الحمار فاحتفظ به لنفسك - يمكن أن تمتطيه عند ذهابك الى الحقول - لكن تذكرنى كل مرة تركبه فيها بالصلاة على صلاة قصيرة » - « وكيف تكون ؟ » - يسأل « النيني » مستقصيا - « يا للمسيح ! ألا تعرف هذا ؟ الصلاة القصيرة تقول فيها : اللهم اغفر لـ « سيميونا » - لا شيء أكثر ، اسمعت ؟ لكن كل مرة تركب الحمار ، أفهمت ؟ » - « نعم ، لا تقلقى » - يوافق الصبي - فتفكر لحظة ثم تضيف : « أو من الأفضل أن تقول كل مرة تمتطى فيها الحمار : يا رب اغفر الذنوب التى اقترفتها « سيميونا » برأسها أو بيديها أو بصدرها أو ببطنها ، وهكذا حتى تصل الى القدمين - أتفهم ما أقول ؟ » - كان « النيني » يحملق فيها بهدوء ، لكنه سألها : « أيمكن أن ترتكب البطن ذنوبا ؟ » - أجهشت بالبكاء دون سابق انذار - تأخرت فى الرد عليه - قالت أخيرا : « والكبائر منها - ذنبى كان يدعى « باكيتو » وهو الآن فى المقابر بجوار أبى - ألم تكن تعرف هذا ؟ » - « لا » - رد الصبي بحدة - أرجعت شعرها للخلف فى جزع ثم قالت : « حقا ، لقد كنت صغيرا وقتها » -

لكن « لاسيميونا » مرضت فعلا فى « سان بروتاسيو »

- و « سان تريبونو » ، وعندما راها « النيني » وهى ممتدة
على الحشية تذكر موت العجوز . قالت له الفتاة :
- « نيني » . اذا مت خذ لنفسك العرية والعمار
والكلب ، أسمعت ؟
- لكن ...
- لا تقل شيئاً – قاطعته – . بعد أن أموت لن أحتاج الى
القربان المقدس .
- لن تموتى . لقد مات أبوك .
- اسكت . لا يفتدى الأب أبناءه بموته ، أسمعت ؟
- نعم – رد الصبي خائفاً .
- نظير هذا أمل فقط تلبية طلبى السابق ، أمازلت
تذكره ؟
- نعم ، كل مرة أركب فيها العمار أدعو الله أن يغفر لك
ذنوبك مبتدئاً بالرأس .
- تنهدت « لاسيميونا » مستريحة :
- حسنا – قالت – . والآن أهنى . لم يبق وقت حتى
أغتسل . انى راحلة الآن .
- ماذا ؟
- ابصق على !
- لا .
- تقلصت عضلات وجهها تقلصات سريعة :
- ألا تسمعنى ؟ ابصق على !
- رجع الصبي القهقرى ناحية الباب . لقد رأى على
أسارير وجهها العادة صورة موت العجوز وجدته «الومينادا» .
- أما هذا فلا .

فى تلك اللحظة تسربت من بين فضبان النافذة صرخة
حادة وموجعة - ظلت « لاسيميونا » بلا حراك ، طرفت
عينها بعصبية ، وفجأة غطت وجهها بيديها وشرعت فى بكاء
هستيرى :

— « نينى » ، ألم تسمع ؟ — قالت وهى تنتحب — . انه
الشیطان .

اقرب الصبى :

— انها البومة ، هونى على نفسك . تصيد جرذانا من على
سطح البيت .

استلقت حينئذ على ظهرها ، أطلقت ضحكة مدوية وبدأت
تتفوه بأشياء غير متجانسة . فى « سانتا أجريبيينا » ، شفيت
« لاسيميونا » . قابلها « النينى » فى الميدان ، لا تزال
شاحبة تترنج ، ولأول مرة منذ أن وهبت نفسها للرهبنة لم
تطلب منه اهانتها . سألها :

— هل أنت بخير ؟

— بخير ، لماذا ؟

— لا شيء .

ظلا لبرهة وجها لوجه يلاحظان بعضهما فى ارتياب .
أخيرا ، أضاف « النينى » :

— ألن تذهبى هذا العام لصيد سرطان الماء ؟

— آه ، يا بنى ! الكلام ده كان زمان . لا أهتم الآن بمثل
هذه الأشياء .

منذ تلك الليلة ، بدأ سرطان الماء يتفادى فخاخ
« النينى » سواء آكان الجو هادئا أم مضطربا بهبوب ریح
الجنوب أو الرياح الشمالية الغربية . عند المساء كان سرطان
الماء يترك أوكاره تحت نبات الكرفس ويتبخر حول الشباك ،

لكن دون أن يقرر المرور من الطوق . وبالرغم من المجهود الذى يبذله « النينى » فلم يكن يصيد أكثر من ستة واحدة . وعند وصوله للمفارة يقول للحم « راترو » :

— « لاسيميونا » حسدتنى .

فيهرش « الراترو » بأصرار ما تحت القبة ويسأل :

— لا شيء ؟ .

— لا شيء .

— علينا بالنزول اذن لصيد الفئران .

لكن « النينى » فضل العودة للزهور الصفراء والسلاحف على تدمير أعشاش صغار الفئران . فى فصل الربيع . اجتهد فى توسيع دائرة زبائنه حاملا الزهور الصفراء من باب الى باب . وصل ، ذات مساء ، لبيت المختلس ، برغم فزعه من ابتسامة صاحب البيت المتوحشة :

— « ماتياس » — نادى عليه — . ألا تحتاج زهورا صفراء للأرانب ؟

— زهورا صفراء ؟ (بطلوا ده واسمعوا ده) ! ألا تعلم أننى تركت تربية الأرانب منذ انتشار الوباء ؟

تخير « النينى » وطرفت عيناه . وفجأة ، أمسكه المختلس من رقبته وأضاف ، مطبقا عينيه وكان الضوء يضايقه :

— بالمناسبة ، ألا تعرف من الصعلوك الذى أطلق سراح الصقر الصغير من على نبات الأسل ؟

— صقر صغير بين نبات الأسل ؟ — سأل الصبى — .
الصقور لا تعيش فى مثل هذه الأماكن ، أنت تعرف هذا يا « ماتياس » .

— لكنها عاشت هذه المرة ، وجاء ابن كلب وقطع الخيط الذى ربطت فيه الصغير ، ما رأيك ؟

رفع النينى كتفيه ولعت عيناه بالبراءة - أضاف
« ماتياس ثليمين » ، بعد أن ترك الصبى وعقف ذراعيه
بمهاة فوق صدره :

— اسمع منى شيتا وضعه حلقة فى أذنك - الى الآن لست
متأكدا ممن فعل هذا ، لكنى لو أمسكت به ذات يوم فساؤربه
بيدى هذه ضربة لن تبقى له بعدها رغبة للتدخل فيما
لا يعنيه -

- ١٧ -

حلقت شمس قاسية فوق القمم العالية في « لابرنيسا
سانجرى دى نويستروسنيور » فمحقت نباتات المريمية
والخزامى من على المنحدرات . في أربع وعشرين ساعة فقط
تجاوزت درجة الحرارة خمسا وثلاثين وغرقت المنطقة في
قيظ يوهن الأعصاب .

ذاقت القمم العالية مرارة الأشعة الحارقة ، وحول
القرية تفرقع أعواد القمح الناضجة بينما يشير الشعير الذى
حصد فى أكوام متناثرة الى فترة ركود خريفية سابقة
لأوانها . تحت القيظ ، تكتسب الحياة طولا غير عادى
ولا يمزق الصمت الجهنى لساعات النهار الوسطى سوى
زقزقة العصافير الموجهة بين البوص المرتفع على ضفتى النهر .

عند مغيب الشمس ، هبطت نسائم فاترة من على التلال
فانتهاز سكان القرية الفرصة للتجمع على أبواب البيوت
وتبادل أطراف الحديث فى مجموعات صغيرة . كانت الرائحة
الجافة للدريس ترتفع من الحقول مغلفة بأصوات الطيور
المسائية ، بينما تضرب الهوام المصاييح ضربات ايقاعية أو
ترفرف حولها فى حلقات غير منتظمة . من قمة « ميرينو »
وصل غناء الكروان ، وعلى صوته ، طار البعوض على أحراج
النهر وطاف بكل مكان فى عدوانية شديدة . كان الوقت
يوافق نهاية الدورة الزراعية وعندما يجد الرجال أنفسهم
فى الشوارع المتربة يرسلون ابتسامات وكأنها تجميعية ضمن
تجاعيد وجوههم التى لوحتها الشمس ورياح الهضبة .

وبالرغم من ذلك ، فقد اشرفت الروايى ، فى « سان
ميجيل دى لوس سانتوس » ، وهى ملفقة بضباب كثيف لزج
أخذ يتضح بتقدم النهار . عندما شاهده « البرودن » عبر
قنطرة الألواح الخشبية وصعد المنحدر بمشقة ، وبمجرد
وصوله الى رقعة الأرض الصغيرة المليئة بنبات السمتر ، نادى
على « النينى » بصوت عال :

— « نينى » ، أيها الغلام — قال عندما ظهر الصبى وهو
يتمطى من باب المغارة — ، لا يمجبنى منظر الضباب - ألا يعنى
هذا اقتراب ظهور السحب ؟

كان « اللوى » يشمشم فى عقبى الرجل و « لافا » ،
جائئة الى جوار الصبى ، مستسلمة لداعبته لها بقدمه العارية
المستخة . حملق الصبى فى الأفق ، ثم فى الروايى وعليها
الضباب ، وأخيرا ، توقفت عيناه على صقر يرفرف بجناحيه
فوق حلمه « توريشيو ريجو » . هبط المنحدر دون أن يتفوه
بكلمة . تبعه « البرودن » والكلبان بنفس الانقياد الواثق
الذى يتبع به الطبيب أقارب مريض على حافة الموت . بعد
أن وصلوا الى النهر ، نشط لسان « البرودن » من عقاله وفى
نفمة باكية قال للصبى ان القمح الجاف لن يتحمل المطر .
تظاهر « النينى » بعدم سماعه ، بلل اصبعه الوسطى بريقه
وتأمل بعناية الجانب الذى يجف منه أولا . تسلل بعد ذلك
بين نباتات البوط والبوص ونظر الى سيقانها الدقيقة التى
يتسلقها النمل المجنح حتى يصل الى أطرافها ثم يعاود
الهبوط . كان « البرودن » يرقبه فى صمت وعندما خرج
الصبى من بين النباتات استشاره بنظرة منه :

— يوجد ضباب والهواء يأتى من جهة الجنوب — قال
الصبى بصوت متقطع — . يتراقص النمل المجنح فى مشيه .
إذا لم يتغير اتجاه الهواء قبل منتصف النهار ، فسيعود الضباب
ثانية . تحسن صنعا لو أخبرت الناس بهذا .
لم يحفل أحد بكلام « البرودن » ، قال له « الروسالينو » :
— له أبدأ الحصاد قبل « سان أوسبيثيو » .

— النينى يقول . . . — اراد « البرودن » ان يوضح .
 — حتى لو قالت العذراء مريم بنفسها — قاطعه
 « الروسالينو » .

ومع ذلك ، فبعد ربع ساعة فقط ، عندما نادى المنادى
 طالبا حصادين للبرودن ، ظهر التوتر على رجال القرية . لم
 يتحدث سوى « الروسالينو » الذى اراد ازالة القلق من على
 صدره :

— أسرع يا « برودن » ، قبل أن يشيط الارز .
 بعد العصر بقليل ، ظهرت فوق قمة « ميرينو » سحابة
 بيضاء ثم سحابات أخرى كثيفة وثقيلة . لم ينزل الرجال
 أعينهم من على القمة وعندما أوشك النهار على الرحيل امر
 « خوستيتو » العمدة ، « الفروتس » بأعداد الصواريخ
 لاطلاقها على الغمام .

فى تلك الساعات التى تلبدت فيها السماء بالغيوم كان
 « البرودن » ومعه « لاسايينا » ، « الرايينو تشيكو » .
 « الكريسبولو » — ابن « الأنتوليانو » الأكبر — قد انتهوا من
 تشوين القمح بالحقل . ومع غروب الشمس انفلت عيار
 ريح ساخنة أحدثت تموجات فى الحقول التى لم تحصد
 وأثارت سحابة من الغبار فوق الطريق . ازدادت قتامة السماء
 شيئا فشيئا والتهم « النينى » الطعام غير المتقن الذى أعده
 « الراتيرو » ثم أقعى على باب المغارة . أطبق الظلام فجأة
 وازداد تعكر الجو . لكنها لم تمطر حتى الآن ، ولم ترعد .
 وأقزع الصبى بريق أول شعاع . رفعت « لافا » رأسها
 وتجشأت عندما تدحرج الرعد مزجرا أسفل المنحدر .
 امتزج تنن الكبريت بالرائحة الجافة للدريس ورائحة السنابل
 الناضجة . أطل العم « راتيرو » من فم المغارة ، ونظر الى
 أعلى ، الى الظلام ، وقال :

— السماء تعد العمدة .

وقف شعر صلب « اللوى » ، وعندما شق عنان السماء الصاروخ الأول ، الموجه الى بطن السحابة المظلم ، نبح هانجا . أشبهت فرقة الصاروخ صرخة حادة لطفل بين جدال عنيف للكبار . بعدها شقت السماء عن ضوء شديد جعل سلسلة القمم العالية تلمع وكأنها من فضة . تبع الضوء الرعد مباشرة وكان قويا وصاعقا مثل ضربة سوط .

— ستكون أسوأ من تلك التى حدثت فى « سان ثينون » .
أتذكر ؟ — قال الصبى .

أطلق الصاروخ الثانى من الميدان وتبعه آخر وآخر ، دون توقف أو تخطيط ، فى يأس . كانوا مثل صياد يرمى الحصى بنبلة على قطيع من الأفيال . أغرق البرق من جديد المنطقة فى ضوء شاحب وتبع دوى الرعد أنين الأعصار وهو يكتسح الروابي والحقول ، رافعا دوامات حلزونية كثيفة من التراب نحو السماء . عندما هدأت الريح بدأت تتساقط حبات المطر الأولى ، كانت رمادية منتفخة ، مثل حبات العنب ، تطرق على الأرض الجافة ، وعند تبعثرها الى جزئيات صغيرة تتبخر من جديد دون أن تترك أثرا . قال « الراتيرو » من مكانه خلف الصبى :

— هكذا أفضل .

— ما هو الأفضل ؟

— تبعثر الحبات الأولى بهذا الشكل ، لأن المطر التالى لو نزل على مكان جاف تسوء الأمور أكثر . أنكر الصبى بإيماءة من رأسه دون أن يقلع عن النظر لبيوت القرية :

— لن يتغير الوضع . لن تتغير النتيجة والقمح على هذه الحال .

مزق البرق قبة السماء من جميع الاتجاهات فى معركة حامية الوطيس . اختلط الرعد الشمالى الغربى المربع

بالشهب الجنوبية الشرقية وتتالت دقات الثلج على جلد القمة
المشدود وكأنها دقات طبول .

بالرغم من أن الثلج كان فى حجم بيض الحمام ، الا أن
الريخ جرجرته لتكومه تحت الأعشاب أو بين فجوات الروابي .

– لقد اتحدث سحابتان – قال الصبى .
– اثنتان – أكد « الراترو » .

– مثلما حدث عام ١٩٥٣ فى « سان ثينون » ، أتذكر ؟
– تماما .

تراجع القيط شيئا فشيئا وارتفع من الحقول التى حل
بها العقاب بخار الأرض الرطبة . كان الثلج يتساقط على
فترات متقطعة وعندئذ لمح « النينى » ، على ضوء الشهب ،
أشباح الرجال السوداء ، مثل دمي خرساء ، وهى تتحرك
بلا تبصر فى الميدان . لم يكن « الفروتس » وحده ، بل
« الخوستيتو » ، و « الخوسيه لويس » ، و « البيرخيليسو » ،
و « الأنطوليانو » ، و « الماتياس » ، و « الرايينو-جيراندى » ،
وكل رجال القرية الذين كانوا يتزاحمون على اطلاق
الصواريخ فى محاولة يائسة لأرهاب نذر الشر . لكن
الصواريخ كانت تتحول عند ارتفاعها الى أثر باهت ، دون
لمعان أو قوة ، وتحدث انفجارا مكتوما على أعتاب سماء
وطيئة وجائرة .

أخذت المنطقة شكلا شبحيا تحت ضوء البرق البنفسجى
وبدا برج الكنيسة ، ومخزن التبغ ، وربوة « دونالثيو » ،
وحلمة « توريشيو ريجو » وأشجار الصنوبر الثلاث وكأنهم
شركاء فى هذه الجريمة النكراء .

أحيانا ، كان الثلج يصنع ستارة محكمة ، كثيفة
وكثيمة .

– انها أسوأ من عام ١٩٥٣ – قال « النينى » .

أكد « الراتيرو » ، الذى كان يقف خلفه فى الظلام
الدامس بلا حراك :
- أسوأ .

صبت السماء جام غضبها على المنطقة وخلال خمس
ساعات استمر لمعان الشهب ، دوى الرعد المكتوم ، وصوت
الثلج الذى كان مثل المطارق وهو يصطدم بالحقول . فى
الرابعة صباحا أمسكت السماء فجأة عن الصياح وتجمعت
السحب تجاه الشمال ، فوق حلمة «توريثيو ريجو» ، وسرعان
ما ظهر قمر عال ورطب خادشا الحواشى الأخيرة للعاصفة .
وعلى امتداد البصر ، كانت الثلوج ، عند تحللها على الأرض،
تحدث حفيفا لزجا مثل حفيف سرطان الماء داخل جوال من
الغيش .

من حين لآخر ، خلف حلمة «توريثيو ريجو» ، كانت
تخرج من السماء السنة الوهج ، لكن دوى الرعد يتأخر الآن
فى الوصول .

هبط « النينى » الى القرية بمجرد طلوع النهار . كان
المنحدر رطبا وزلقا ولذلك، نزل الصبى من على السفح حتى
تتشبث قدماه بنبات السعتر . بدت الحقول تحته وكأنها
ميتة . كانت البساتين وأشجار الصنوبر الثلاث ترفع بنجل
عريها الشجى وأزاد نعيب الغربان فى فجوات برج الأجراس
من وضوح الصمت الكبير . أما القمح ، الذى جمعه الأعصار
العنيف فى عناقيد غير منتظمة ، فينام على الطين فى وداعة .
تكاثر البرك بين السنايل المجذوة . وعلى الدروب كانت
تتناثر جثث القبرات المتيبسة فوق حبات القمح . ومن أراضى
« دون أنتيرو » المحروثة تتصاعد دخنة ، مثل التى تتصاعد من
المزروعات أيام الشتاء المشمسة بعد ليلة تساقط فيها الجليد .
انعقدت فوق الحقول نتانة طينية كثيفة ممتزجة برائحة
الدريس . تجاسر عقعقان ، لم توهن المحنة عزيزتهما ، على
اللهو فوق آلة التعذيب القديمة ، نافشين ريشهما تحت

الشمس • أحس « النيني » عند دخول القرية ببكاء النساء المستسلم خلف الأبواب • على مؤخرة بيت « البرودن » ، التي يصل الطين الى ما يقرب من منتصفها ، وقف احد طيور الخطاف • وعلى أفريز السطح كانت تزقزق الصغار وهى تطل برؤوسها الملونة من فتحة العش • بدت الشوارع خاوية وعلى جنباتها تجمع طين كثير يفوق ما يوجد فى فصل الشتاء • فى الميدان ، كانت السيدة « كلو » تكنس بهمة درجتى السلم المؤدى الى دكان الخردوات • على طابية الطوب اللبن ترتفع لافتة مكتوب عليها بحروف غير متسقة من القار : « تعيش دفعة ٥٦ ! » •

توقف « اللوى » عند حظيرة « الخوسيه لويس » فنادى عليه « النيني » بتصفيرة خافتة • عندئذ رآته السيدة « كلو » ، اتكأت على يد المكنسة وقالت له وهى تحرك رأسها الى أعلى والى أسفل وتعض على شفتها السفلى :

— « نيني » ، يابنى • ما رأيك فى هذا العقاب ؟
— ها قد رأيت •

— هل نحن أشرار لهذا الحد حتى يحل بنا هذا العقاب ؟
— بالتأكيد ، يا سيدة « كلو » •

أمام الاصطبلات تقف سيارة « دون أنتيرو » وعلى نفس الناصية وقف صاحبها برفقة بعض الغرباء يتحدثون بأسى مع رجال القرية • تجمع هناك ، بعيون ملأها الحزن وظهور منحنية وكأنها تئن تحت وطأة حمل ثميل ، « الخوستيتو » و « الخوسيه لويس » و « الرايينو تشيكو » و « الأنتوليانو » و « الأجابيتو » و « الماتياس ثليمين » و « الروسالينو » و « ألبرخيليو » • كان « دون أنتيرو » ، الغنى ، يقول :
— حقت الاستفادة من التأمين • لكن عليك بعدم الابطاء ، « خوستو » ، تقدم اليوم عريضة لطلب قروض ائتمانية •
والا سيكون الخراب شاملا ، أسمعت ؟

وافق « الخوستيتو » موافقه واهنة :

— أنت تعرف أنتى سآبذل قصارى جهدى ، يا « دون أنتيرو » .

مر « النينى » دون اكتراث ، والكلبان ملتصقان بقدميه ، لكنه قبل أن يصل الى شجرة البرباريس سمع صوت « الأنطوليانو » المتلجلج :

— أنا ... أنا ليس عندى تأمين يا دون « أنتيرو » .

وصوت « ماتياس ثليمين » الجنائزى :

— ولا أنا .

اتحد بصوت المختلس حفيف أصوات أخرى مثل جوقة :
« ولا أنا » ، « ولا أنا » ، « ولا أنا » . عند شجرة البوباريس قطع عليه « البرودن » الطريق . بدا وكأنه شبح انشقت عنه الأرض فجأة :

— « نينى » — نادى — . القمح مكوم فى الحقل وسنابله سليمة — تحدث وكأنه يعتذر — : أنا ... قاتله الصبى دون أن يمسك عن السير :

— لا تدرس الا بعد جفاف الحب ، لكن لا تؤخر الدراس حتى لا يزرع الحب داخل السنابل . أمسكه البرودن من كتفه :

— انتظر — قال — . انتظر . تعتقد أن بإمكانى الدراس أمام تعاسة الآخرين ؟

هز « النينى » كتفيه . قال ، ناظرا الى يديه فى ثبات :
— هذا شىء يخصك .

فرك « البرودن » يديه بلا حماس محاولا السيطرة على عصييته . أدخل بعد ذلك يده اليمنى فى جيبه وأخرج منه بيزيتة :

— خذ ، هذه لنصيحتك لى بالأمس • كنت أود اعطائك أكثر ، لكنى مطالب بدفع ثلاث يوميات •

تجاوز « النينى » شجرة « البرباريس » التى عراها الثلج ووصل الى النهر • على الجانب الآخر من أشجار الصنوبر الثلاث تقابل مع « لويس » ، فتى «توريثيو ريجو» • الذى ابتسم له بأسنانه البيضاء دون أن يكف عن حث كلبه :

— هيا ، هيا •

— ماذا تفعل ؟

— مرة أخرى ! ألا ترى ؟ أصيد • أيمكن عمل شيء آخر فى الحقول هذا العام ؟ — قال وهو يشير الى القمح المهشم الجاثم فوق الطين ، والى الحقول الممتدة التى تحولت الى حلفاء عقيمة •

— حدث نفس الشيء فى « توريثيو ريجو » •

كان الفتى يسير بحذاء النهر على وقع خطوات الكلب بين نباتات البوص المهشمة • رد :

— لم يترك المطر سنبلة مستوية على عودها •

لاحظ الصبى الكلب المرقط :

— هذا الكلب غير متمرس •

— أبحث كلباك بطريقة أفضل ؟

أشار الصبى الى رأس « لافا » اللاهثة :

— هذه عجوز وعوراء ، لكن الكلب الصغير يستدل على الفئران وسيصبح متمرسا العام القادم •

ضحك الفتى « توريثيو ريجو » وضرب حذاءه عدة مرات بطرف السيخ الحديدى :

— كلبى حديث العهد بالصيد أيضا •

- عمره لا يزيد بأية حال عن سنة .
- سيكملها فى « سان ماكسيمو » . كيف عرفت ؟
- من عينيه ومن فمه . ما اسمه ؟
- « لوثيرو » ، يعجبك ؟
- أنكر الصبى بهزة من رأسه .
- لماذا لا يعجبك الاسم ؟
- لأنه طويل .
- طويل ! بماذا تسمى كلبك اذن ؟
- الكلبة « فا » ، والكلب « لوى » .
- ضحك الفتى من جديد :

— من أجل كلب ، أى اسم (كويس) — أضاف ببرود .

وفجأة ، رفع الفتى عينيه وتقلصت ابتسامته حتى أصبحت تعويجة مندهشة على فمه . سمع « النينى » وقع الخطوات السريعة فرفع رأسه ليرى العم « راتيرو » وهو يسحق أعواد القمح المغشى عليها بقفزاته الواسعة . كان شاهرا سيخه الحديدى ويصيح بشيء غير واضح لا يرقى الى مرتبة الكلمات . لم يتوقف عندما وصل الى شاطئ النهر .لقى بنفسه فى الماء ، مبربطا فيه وكأنه مدفوع بقوة خارقة وهجم على الفتى . نهض « النينى » بسرعة ، أمسك بسترته المهلهلة وجذبها للخلف بكل ما أوتى من قوة ، لكن الفتى كان قد أمسك بمعصم يد « الراتيرو » مبعدا سيخ الحديد ، بينما كان يصيح : « تعقل يا هذا » . و « الراتيرو » يتمتم بكلمات ويغمغم فى غير وعى : « الفئران تخصنى . الفئران تخصنى » .

وثبت « لافا » على الفتى ، ناشبة أسنانها بغيظ فى بطن ساقه ، فقفز « اللوثيرو » بدوره عليها والتحم الاثنان ، بينما

كان « اللوى » ، الكلب الصغير ، يتبع متحيرا ، دون أن يهتدى
لأى جانب ينحاز .

بعد أن اقتنع « النينى » باستحالة الفصل بين الرجلين
وقف يرقبهما وعيناه جاحظتان محاولا تهدئتهما بصيحاته ،
لكن « الراتيرو » لم يكن يسمعها . كانت تدفعه قوة عمياء
ويردد مرة بعد أخرى وكأنه يحمس نفسه : « الفئران
تخصنى . الفئران تخصنى » .

ظل الكلبان يتشاجران بوحشية ، يعضان بعضهما بغضب
وكاشفين عن أنيابهما البيضاء ، دون أن يتوقفا عن المهمة .
تدحرج الكلبان فى الوحل وهما متكوران فاصطدم بهما
« الراتيرو » وسقط بين أعواد القمح وجسد خصمه فوقه .
حاول فتى « توريشيو ريجو » شل حركته بوضع ركبتيه فوق
صدره وغمغم : « ت - ع - ل - يا - ه - ذا » ، لكن
« الراتيرو » فوت عليه الفرصة ، تكور الى الأمام ودفعه
بقدمه الى الخلف . نهض الرجلان وهما يرقبان بعضهما
شزرا ، يلهثان ، والسيخان مرفوعان ، بينما استمر الكلبان
فى اشتباكهما الشرس . كان « الراتيرو » هو الذى أخذ
زمام المبادرة من جديد ، لكن الفتى تلقى ضربته بالسيخ
وخلال بضعة ثوان تعانق السيخان وتطاير منهما الشرر .
« الراتيرو » ، الآن ، ظهره مغطى بالطين ، يراقب خصمه
وجفناه مطبقان مثل حيوان ضار ، سدد لصدر الفتى ركلة
هائلة بالقدم أسقطته فوق السنابل المستلقية على الأرض .
جرى « الراتيرو » نحوه ، لكن الفتى ، فى التواء متوحش ،
تفادى الجسد فسقط « الراتيرو » على وجهه فى الطين .
عندما انتصب على قدميه كان لهائه خشنا ، مكروبا ، مثل
زئير . من حين لآخر كان يردد مثل آلة مبرمجة : « الفئران
تخصنى . الفئران تخصنى » . طبقة سميكة من الطين كانت
تغطى وجهه فاكسبت عيناه ، بين الجفون التى سودها الطين،
بريقا فريدا . انتظر فتى « توريشيو ريجو » ، مقوسا بعض

الشيء ، بينما كانت نظريته تتراجع تارة على عيني «الراتيرو»
وتارة على السيخ الذي يمسكه بأصابعه المتقلصة .

هجم عليه «الراتيرو» مرة أخرى مصوبا السيخ الحديدي
على حنجرتة ، لكن الفتى تفادى السيخ في الوقت المناسب
فلم يحدث سوى خدش في وجنته التي انبتق منها الدم فجأة .
كانت «لافا» تنزف أيضا من أذنيها وظهرها لكنها لم تتراجع .
جسدا الكلبين كانا يختفيان أحيانا بين كثافة القش الملقي
على الأرض ، لكي يظهرأ ثانية على بعد سبعة أمتار دون أن
يكفا عن الشجار الدموي .

بعد أن تبددت حيرة « اللوى » التصق بساقي « النيني » .
وهو ينتفض انتفاضات غريبة .

اشتبك الرجلان من جديد ، السيخان مرفوعان ،
ويتمتمان بلعنات غير مفهومة . كانت وجنة الفتى مغطاة
بالدم ومن خلال شفثيه المتشققتين المفتوحتين يرى فمه الجاف
وهو يعب الهواء على جرعات مثل سمكة تحتضر . حاول
جاهدا جرح عدوه ، لكن حد سيخه لم يصب الا سترة
«الراتيرو» الذي سدد ، عندما أحس بمداعبة المعدن لجلده
ومنتهزا فرصة الانهيار العارض لغريمه ، ضربة قوية من
أسفل لأعلى فانفرس السيخ حتى مقبضه في ضلع خصمه .
تم كل شيء في لمح البصر .

تمددت يدا الفتى وعندما سقط السيخ اختفى في
الطين . ابتعد عنه «الراتيرو» لاهثا ، وعندئذ ، تقدم الفتى
نحو « النيني » مترنحا ، عيناه جاحظتان ، وعندما حاول
التلفظ حجزت دفقات الدم الكلام . ظل يرهة بلا حراك ،
متداعيا ، وأخيرا خر على جنبه الأيمن وأغلق عينيه وكأنه
يستريح . ارتجفت ساقاه بشدة مرتين أو ثلاثا . تقيأ من
جديد ، وكأنه يريد منع هذا ، أبال وجهه ببطء وأخفى
أساريه في الطين .

رفع « النيني » المينين المذعورتين تجاه « الراتيرو » ،
ولكن هذا ، لاهثا حتى الآن ، اقترب من الجثة وأخرج منها
سيخه الحديدي . اتجه نحو الكلبين المتشاجرين ، أمسك
« اللوثيرو » من جلد رقبته وبجذبة واحدة أبعدته عن « لافا » .
حاول الكلب ، دون جدوى ، عضه من معصمه بعد أن التفت
اليه غاضبا ، لكن « الراتيرو » مزق قلبه بالسكين دون رحمة ،
وأخيرا ، ألقى بجثته فوق جسد الفتى الممدد على الأرض .

كانت « لافا » تموى متألمة وتلثم الجروح التي فى ظهرها
أثناء اقتراب « الراتيرو » من النهر وغسله للدماء التي على
السيخ بعناية . جلس « النيني » فى منخفض وأسند مرفقيه
على فخذه . وصلت « لافا » اليه وجثمت تحت قدميه مرتجفة ،
بينما كان « اللوى » ينظر متجشئا الى الجثتين اللتين يحط
الذباب فوقهما تدريجيا .

عندما عاد العم « راتيرو » الى جوار « النيني » ، ظهرت
فجأة ستة صقور سوداء وهى تطير عاليا فوق حلمة « توريشيو
ريجو » . نظر الصبى الى « الراتيرو » الذى لا يزال يلهث
فقال الأخير وكأنه يبرر فعلته :

— الفئران تخصنى .

أشار « النيني » باصبعه الى فتى « توريشيو ريجو » :

— لقد مات . الآن علينا ترك المفارة .

ابتسم « الراتيرو » ابتسامة ما بين بلهاء وماكرة :

— المفارة تخصنى .

نهض الصبى ونفض مؤخرته . تبعه الكلبان متداعيين
وبعد أن تجاوزا شجرة البوباريس طارت سماتتان فى صخب .
توقف « النيني » وقال :

— لئ يتفهموا ما جرى .

— من ؟ — سأل « الراتيرو » •

— هم — مهمهم الصبى •

بدا برج الكنيسة طافيا خلف الربوة وحوله أخذت في
الظهور ، شيئاً فشيئاً ، بيوت القرية البنية وهى غارقة بين
الضباب •

اقرا فى هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ى ٠ رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت ٠ و ٠ فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر ٠ ج ٠ فوريس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليستريدل راى	الأرض الغامضة
والتر آلن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المشهد الى فن المسرح
فرانسوا دوماس	آلهة مصر
د ٠ قدرى حفى وأخرون	الانسان المصرى على الشاشة
اولج فولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق
د ٠ محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى
اشراف س ٠ بى ٠ كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د ٠ عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بيلى شول وأدبنيث	القوة النفسية للأهرام
د ٠ صفاء خلوصى	فن الترجمة
والف ئى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومير	مستندال

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضممار	
الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الادب الروائى عند تولستوى	ف . ع انديكرف
ادب الاطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى ياربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سينسر
التصل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف دامموس
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء	
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوماً فى السنة	د . جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن	
التشكيلى	د . غبريال وهبة
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية	
وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى	
١٨٨٥ - ١٩٨٥	شموكت الربيعى
القتلثة الاسرية والابناء الصغار	د . محيى الدين احمد حسين

- تقريبات الفيلم الكبرى
مختارات من الأدب القصصى
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
حرب الفضاء
ادارة الصراعات الدولية
الميكروكمبيوتر
مختارات من الادب اليابانى
الفكر الاوربى الحديث ٢ ج
تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
كتابة السيناريو للسينما
الزمن وقياسه
أجهزة تكييف الهواء
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
العلم والطلاب والمدارس
الشارع المصرى والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائى
التخطيط السياحى
البذور الكونية
دراما الشاشة (٢ ج)
الهيرويين والايذ
تجيب محفوظ على الشاشة
- ج ٠ دادلى أندرو
جوزيف كونراد
د ٠ جوهان دورشز
طائفة من العلماء الأمريكين
د ٠ السيد عليوة
د ٠ مصطفى عناني
صبرى الفضل
فرانكلين ل ٠ باومر
جابريل باير
انطونى دى كرسبني
دوايت سوين
زافيلسكى ف ٠ س
ابراهيم القرضائى
بيتر رداى
جوزيف دامموس
س ٠ م بورا
د ٠ عاصم محمد رزق
رونالد د ٠ سمبسون
ونورمان د ٠ اندرسون
د ٠ انور عبد الملك
والث وتيمان ريسـتو
فريد س هيس
جون يوركهارت
ألان كاسبيار
سامى عبد المعطى
فريد هويل
شاندرام وىكراماسينج
حسين حلمى المهندس
روى روبرتسون
هاشم النحاس

دوركاس ماكلينتوله	مسور افريقية
بيتر لورى	المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
بوريس فيدروفيتش سيرجيف	وظائف الاعضاء من الالف الى الياء
ويليام بينز	الهندسة الوراثية
ديفيه ألدرتون	تربية اسماك الزينة
جمعها : جون ر ٠ بور	الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
وميلتون جولد ينجر	
ارنولد توينبى	الفكر التاريخى عند الاغريق
د ٠ صالح رضا	قضايا وملاحق الفن التشكيلى
م ٠ هـ ٠ كنج وآخرون	التغذية فى البلدان النامية
جورج جاموف	بداية بلا نهاية
د ٠ السيد طه أبو سديرة	الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
	حوار حول النظامين الرئيسيين
جاليليو جاليليه	للكون
اريك موريس وآلان هو	الارهاب
سيريل الدريد	اخذاتون
آرثر كيستلر	القبيلة الثالثة عشرة
توماس ٠ هـ ٠ ماريش	التوافق النفسى
مجموعة من الباحثين	الدليل الجيوجرافى
روى ارمز	لغة الصورة
ناجى متشيو	الثورة الاصلاحية فى اليابان
بول هاريسون	العالم الثالث هذا
ميخائيل البى ، جيمس لقلواه	الانقراض الكبير
فيكتور مورجان	تاريخ النقود
اعداد محمد كمال اسماعيل	التحليل والتوزيع الاوركستراالى
الفردوسى الطوسى	الشاهنامه (٢ ج)
بيرتون بورتد	الحياة الكريمة (٢ ج)
جاك كرابس جونيور	كتابة التاريخ فى مصر

ادوارد ميرى
اختيار / د ٠ فيليب عطية
اعداد / موني براخ وآخرون
آدامز فيليب
نادين جورديمر وآخرون
زيجمونت هبغر
ستيفن اوزمنت
جوناثان ريلى سميث
توني بار
بول كولنسر
موريس بيرر براير
الفريد ج ٠ بتلر
رودريجو فارتيجا
فانس بكارد
اختيار / د ٠ رفيق الصبان
بيتر نيكوللز
برنارد راصل
بينارد دودج
ريتشارد شاختر
ناصر خسرو علوى
نفتالى لويش
هيربرت شيلر
اختيار / صبرى الفضل
أحمد محمد الشنواني
اسحق عظيموف
لوريتو تود
اعداد / سوريال عبد الملك
د ٠ ابرار كريم الله
اعداد / جابر محمد الجزار
٠ ه ٠ ج ٠ ولس
ستيفن رانسيمان
جوستاف جرونبيوم

عن النقد السينمائي الأمريكى
ترانيم زرادشت
السينما العربية
دليل تنظيم المتاحف
سقوط المطر وقصص أخرى
جماليات فن الاخراج
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
الحملة الصليبية الأولى
التمثيل للسينما والتلفزيون
العثمانيون فى اوربا
صناع الخلود
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)
رحلات فارقيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)
فى النقد السينمائي الفرنسى
السينما الخيالية
السلطة والفرد
الازهر فى ألف عام
رواد الفلسفة الحديثة
سفر قامة
مصر الرومانية
الاتصال والهيمنة الثقافية
مختارات من الاداب الآسيوية
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)
الشموس المتفجرة
مدخل الى علم اللغة
حديث النهر
من هم القطار
مستريخت
مصالح تاريخ الانسانية (٤ ج)
الحملة الصليبية
حضارة الاسلام

ريتشارد ف • بيرتون	رحلة بيرتون (٢ ج)
ادمز متسز	الحضارة الاسلامية
ارنولد جزل	الطفل (٢ ج)
بادى اونيمود	افريقيا الطريق الآخر
فيليب عطية	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفلد	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهريه
فرانسيس ج • برجين	الاعلام التطبيقي
ج • كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
توماس ليههارت	فن المايه والياتقومايم
الفين توفلر	تحول السلطة
ادوارد ويونو	التغيير المتجدد
كريستيان سالين	السيناريو فى السينما الفرنسية
جوزيف • م • بوجز	ذو الفرجة على الافلام
بول وارن	منايا نظام النجم الأمريكى
جورج ستايز	بين تولستوى ودمتريفسكى (٢ ج)
ويليام ه • ماثيوز	ما دى الجيولوجيا
جارى ب • ناش	الحمر والبيض والسود
ستالين جين • سولومون	الزجاج الفيلىم الأمريكى
عبد الرحمن الشيخ	رحلة الأمير رودلف ٢ ج
عبد العزيز جاويد	رسائل ماركز واولو ٣ ج
محمود سامى عطا الله	الفيلم التسجلى
بانكو لافرين	الرومانسكية والواقعية
ليوناردو دافنشى	نظريه التصوير
حزنف ندهام	تاريخ العلم والحضارة فى الصين

يعتبر مديجل دي ليبس مؤلف رواية الغنران أحد أهم الروائيين
الاسباني من جيل ما بعد الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩)، بل أن
معظم النقاد يقدّمونه على كاميلو خوسيه ثيلا الفائز بجائزة نوبل
عام ١٩٨٩، وتتميز أعماله بنبرة إنسانية عميقة يعبر بها عن
أوجاع وإنات المظلومين ويدافع من خلالها عن كل ما هو عفوى
وانساني، وقد ترجمت أعماله إلى الكثير من اللغات، ونحن نقده
اليوم إلى القارئ العربي في تلك القصة الإنسانية التي تدور
أحداثها في الريف الإسباني في قرية تعشعش فيها الجهالات
ويخيم عليها الظلم، فجل أرضها في يد مزارع واحد لا يكف عن
التبجح بحبره الذي يغرق أهلها وبطلها صبي لا يتجاوز الحادية
عشرة من عمره يعيش مع والده صياد الغنران في كهف على قمة
ربوة عالية، ورغم فقره لكن الصبي يتمتع بذكاء نادر يجعله
مرجعاً لأهل القرية يسعون إليه لطلب الثورة، ومن خلاله يجسد
الكتاب أفكاره عن التقدم والعدل الاجتماعي، فالصبي وإن كان
صناداً لكنه لا يقبل قتل الحيوان مجرد القتل، فهو يكره الموت
ويقبل على الحماة، وفي ذات الوقت يسعى العمدة إلى طرده هو
وأبيه من الكهف وهدمه حتى لا يشوه مظهر القرية في عيون
السياح الأجانب، إنه قصة عامرة بالدلالات يحاول من خلالها
المؤلف أن يسلخ من سوء الإدارة المركزية والنفاق الاجتماعي
ويبين فداحة تحكم الآلة في الإنسان وتراجع القيم الإيجابية في
إنسان العصر وأبرز ما يثالب الظلم الاجتماعي.